موسوعة

عالم الأديان

كل الأديان . المذاهب . الفرق . البدع في العالم



12

موسوعة عالم الأديان

كلّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الكنيستان القبطية والحبشية

مجموعة من كبار الباحثين

بإشراف

ط. ب. مفرج

موسوعة

عالم الأديان

كل الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الجزء الثاني عشر

الكنيستان القبطية والحبشية

NOBILIS

طبعة أولى ـ ٢٠٠٤

طبعة ثانية ـ ٢٠٠٥

إسم المَجموعَة	:	موسوعَـــة عَالَـــم الأديَـــان
		كُلُّ الأديَان والمَذاهِب والفرَق والبَدَع في العَالَم
إسم الكِتَاب	:	الكنيستَان القُبطِيَّةُ والحَبَشِيَّة
الجِزء	:	الثَّاني عَشَر
المؤلّف	:	مجموعَة من كبار الباحِثين بإشراف ط. ب. مفرِّج
قياس الكتَاب	:	٢٠ × ٢٨
مَكان النَّشر	:	بيروت
دَار النَّشر والتَّوزيع	:	NOBILIS
تلفاكس	:	٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١
	:	٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

المحتَوَيات

الفَصلُ الأوَّل

بينَ النشُوء والمُونُوفيزيَّة

الفَصلُ الثَّاني

كَنِيسَةُ مِصر بعدَ الفَتح العَرَبيّ

الفَصلُ الثّالث

كَنِيسَةُ مِصر فِي العَهدَين العبّاسي والفَاطِمي

الفَصلُ الرّابع

في عَهد الممَاليك

الفَصلُ الخَامِس

في عَهدَي العثمَانيّين ومحمَّد عَليّ

الفَصلُ السَّادِس

في الزّمَن المُعَاصِر

الفَصلُ السَّابِع

التعدُديَّة القُبطِيَّة

الفَصلُ الثَّامِن

الأقبَاط اليَوم

الفَصلُ التّاسِع

الكَنيسَة الإثيُوبيّة الحَبَشيّة

الفَصلُ الأوّل

الكَنِيسَةُ القُبطِيّةُ بينَ النشُوءِ والمُونوفيزيّةِ

أصلُ القُبطِ وتَسميتُهم؛ الفنّ والليتورجيا القبطيّـان؛

عَشيّةَ الميلاد؛ دُخولُ المَسيحِيّةِ إِلَى مصْر وانتشارُها السّريع؛

أرضُ مِصر مَهدُ الحيَاةِ الرهبَانيّةِ؛ كنيسةُ مصْر والاضطهاد الرومانيّ؛

الإسكَندريّة عاصمةُ الفِكرِ المَسيحيّ؛ الكّنيسةُ القبطيّـة والمجَامع الكنسيّة.

أصلُ القبط وتَسميتُهم

من الواضح، لدينا، أنّ الكنيسة القبطيّة قد اتّخذت اسمها من لفظة "القبط"، التي تعني أصلاً أرض مصر، وذلك باللغة المصريّة الأصليّة التي تُعرف أيضًا باسم اللغة القبطيّة، يقابلها في اليونانيّة AIGUPTOS. ثمّ أصبحت لفظة القبط، بعد الإسلام، تعني المصريّين المسيحيّين دون سواهم. وفي اللغات الغربيّة أصبحت لفظة ÉGYPTE تعني: مصر. ويذكر باحثون أنّه قبل الفتح العربيّ لمصر، سُمّيت البلاد باسم "دار القبط" وعُرف سكّانها بالأقباط[1]. ويردّ باحثون أصل كلمة "قبط" إلى اسم "قفطيم" بن "مصريم" أحد أحفاد نوح الذي استقرّ في وادي النيل، وبنى فيه مدينة سمّاها "قفط" باسمه. ومنهم مَن يرى أنّ الأشوريّين في كتاباتهم المسماريّة قد أطلقوا اسم "هيكوبتون - HI - KU - PTON" على سكّان وادي النيل، وعنهم أخذ المؤرّخون اليونانيّون الإسم وجعلوه "ايجيبتوس". ويُجمع الباحثون على أنّ اللفظ صار GIPTOS عند العرب بحذف الحروف المتحركة الأولى[2].

١ - زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط جروس برس (طرابلس - لبنان، ١٩٩٣) ص١٥.

٢ - زخّور، قصّة الأقباط، المرجع السابق؛ وذكر في مكان آخر من المؤلّف نفسه أنّه قد غلبت على البلاد التسمية اليونانيّة AEGYPTUS ثمّ استعملها اللاتين باسم EGYPTE، وقد تكون التسمية مشتقّة من أحد أسماء "منف" القديمة، عاصمة مصر. ونُقلت إلى العربيّة بلفظة "قبط"، للدلالة على أهل مصر المسيحيّين. ويظهر أنّ مصر لم يُطلق عليها هذا الاسم إلاّ من قِبَل الساميّين، أو من قِبَل العرب، بحيث تعني الأرض التي على الحدود أو الحضر، أو الأرض الكثيرة الخيرات.

وفي بعض الموسوعات أنّ كلمة "قبط" يونانيّة الأصل، معناهاسكّان مصر القدماء[1].

نحن نعتقد بأنّ تسمية القبط جاءت تحريفًا متدرّجًا لكلمة "كمت" المصريّة القديمة، فصارت "كبت"، ثمّ "كبط" ثم "قبط". واسم "كمت" كان يُطلق قديمًا على مصر، وهي البلاد التي تحيط بنهر النيل، من حدود أرض النوبة[2] إلى ساحل المتوسّط، ومن برقة[3] إلى ساحل البحر الأحمر. ومعنى "كمت" المصريّة القديمة: الأرض السوداء، على عكس المنطقة التي تحيط بها والمسمّاة "دشرت"، ومنها اشتقّت اللفظة اللاتينيّة DESERT، ويُقصد بها الأرض الحمراء أي الصحراء.

يبقى احتمال، نورده بتحفّظ، وهو أن يكون أصل الإسم من اللغات الساميّة القديمة "قَبيط QâBîT" أي: صهريج مياه ونهر ومستنقع[4].

---

١ - الموسوعة العربيّة الميسّرة، إصدار دار الجيل، والجمعيّة المصريّة لنشر المعرفة والثقافة المصريّة، ط٢ (بيروت - القاهرة - تونس،٢٠٠١) ٣: ١٨٤٤.

٢ - النّوبة: منطقة أفريقيّة تمتدّ على شاطئ النيل بين أسوان، ودنقلة في السودان، تنقسم إلى النوبة السفلى: وهي الجزء الواقع في مصر بين أسوان ووادي حلفا، نُقلت آثارها حفاظًا عليها من مياه السدّ العالي، والنوبة العليا: وهي المناطق الواقعة في السودان. ازدهرت في عهد الفراعنة بفضل الطرق التجاريّة المؤدّية إلى السودان ومناجم الصحراء، شيّد فيها فراعنة السلالة ١٦ عددًا من المعابد والمعسكرات، أصبحت نبتة، بالقرب من جبال برقل قاعدة الحاكم الملقّب بصاحب كوش، أسّست فيها مملكة كوشيّة في القرن الثامن ق.م.، اتّخذ النوبيّون "مروى" عاصمة لهم بعد احتلال البطالسة لمصر ٣٠٠ ق.م.، اعتنقت المسيحيّة فنشأت فيها دولة أكسوم نحو ٣٥٠ ودنقلة واستمرّت حتّى القرن الرابع عشر لمّا اعتنقوا الإسلام، غزاها محمّد علي ١٨٢٠.

٣ - برقة: هي المنطقة الشرقيّة من الجماهيريّة الليبيّة، فتحها عمرو ابن العاص ٦٤٢، غنيّة بالأحراج والينابيع والأراضي الزراعيّة، من مدنها: بنغازي، طبرق، درنة.

٤ - راجع: فريحة أنيس، أسماء المدن والقرى اللبنانيّة وتفسير معانيها، الجامعة الأميركيّة في بيروت (بيروت،١٩٥٦) ص٢٦١.

تعتبر اللغة القبطيّة تطويرًا للغة المصريّة القديمة، وهي من مجموعات اللغات الحاميّة ـ الساميّة، وكانت اللغة المستعملة في العهود المسيحيّة الأولى. والأقباط من سلالة قدماء المصريّين، ويُقصد بهم اليوم المسيحيّون المصريّون[1] الذين ظلّوا على ديانتهم بعد أن تحوّل غالبيّة السكّان إلى الديانة الإسلاميّة[2]. وهم يرجعون في أصلهم العرقيّ إلى جنس البحر الأبيض المتوسّط الأوروبّيّ القوقازيّ المتميّز بتدرّج ألوان البشرة من الأبيض الفاتح إلى البنّيّ الغامق.

والأقباط اليوم قسمان: مونوفيزيّون يُعرفون بالأقباط الأرثذوكس، ذكرت دراسات أنّ عدد المقيمين منهم في البلدان العربيّة، يبلغ اليوم نحو أربعة ملايين نسمة، أكثرهم في مصر ومن ثمّ السودان[3]؛ وأقباط كاثوليك، مقيمون في البلدان العربيّة، يبلغ اليوم نحو مائة ألف نسمة، أكثرهم أيضًا في مصر ومن ثمّ السودان[4].

الفنّ والليتورجيا القبطيّـــــــان

تستوحي الكنيسة القبطيّة التقليديّة هندسة البازيليكات الرومانيّة وهيكليّتها: صحن مركزيّ واسع الأطراف، يقوم على جوانبه رواقان ضيّقان، وينتهي لجهة الشرق بصدر الكنيسة، ويُقال له أيضًا القدس، وهو يرتفع ببضع درجات عن مستوى أرض

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ٣: ١٨٤٤.

٢ ـ زخّور، قصّة الأقباط، المرجع السابق، ص ١٥.

٣ ـ السمّاك محمّد، الأقليّات بين العروبة والإسلام، دار العلم للملايين (بيروت، ١٩٩٠) ص٢٤.

٤ ـ إبراهيم د. سعد الدين، المجتمع والدولة في الوطن العربيّ، مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت، ١٩٨٨)؛ السمّاك، الأقليّات، مرجع سابق، ص٢٤.

الكنيسة. كما ينتهي الرواقان الجانبيّان لجهة الشرق أيضًا، وعلى جانبَي صدر الكنيسة، إمّا بصدرَين صغيرَين، وإمّا بحجرتَين مربّعتَين. والكنيسة مشيّدة على أساس مستطيل، والصدور الشرقيّة مبنيّة من الداخل، ولا تظهر من الخارج مطلقًا. وتعلوها قبب ثلاث، الوسطى منها تكون عادةً أعلى من الأخريَين، وتحت كلّ قبّة مذبح مكعّب مملوء، تقوم وراءه في الحائط حنية. ويفصل صدر الكنيسة، الذي يقوم فيه المذبح الرئيسيّ أو الهيكل، عن صحن الكنيسة، حجاب حامل الأيقونات، مرتفع، مصنوع من الخشب المشغول المطعّم بالعاج، وفيه باب مركزيّ ونافذتان جانبيّتان صغيرتان، وأمام الحجاب "الخورس" وهو مساحة مربّعة مخصّصة للمرتّلين والقارئين، وتعلو الرواقَين الجانبيّين غالبًا "شرفة" أو مقصورة مستطيلة، كانت تُخصَّص في ما مضى للنساء. وفي الكنائس القديمة جدًّا، نجد، في الطرف الشرقيّ من مدخل الكنيسة حوضًا محفورًا في الأرض يُسمّى "حوض الظهور"، حيث كانت تمارَس في الماضي، في عيد الظهور، أي الغطاس، طقوس خاصّة لتبريك المياه. وأمّا جرن المعموديّة فليس له مكان محدّد في الكنيسة. وقد نجد غالبًا كنائس أخرى ثانويّة، لها الهيكليّة نفسها ولكن بقياسات أصغر، ملائمة للكنيسة الرئيسيّة. وفي بعض الكنائس بالصعيد، قد تُضاف إلى كلّ من جانبَي صدر الكنيسة كنيسة صغيرة، ما يجعل الكنيسة تبدو وكأنّ عرضها أكبر من طولها، فتظهر للناظر إليها من بعيد أو من فوق كما لو كانت تجمّع قبب صغيرة[1].

تتسّم الليتورجيا القبطيّة بخصائص مميّزة. ويبدأ حساب السنين في سنة ٢٨٤ الميلاديّة، وهي السنة الأولى من حقبة الشهداء الأقباط الذين استُشهدوا في عهد ديوقليتيانس. ويتّبع الأقباط التقويم اليوليانيّ، وهو متأخّر حاليًّا عن التقويم الغريغوريّ بثلاثة عشر يومًا. وإنّ توزيع الأشهر هو أيضًا خاصّ بالأقباط. وقد أخذوه عن التقويم

---

١ ـ موسوعة الأديان في العالم، الكنائس الشرقيّة ٢، مرجع سابق، ص ١٢٣ ـ ١٢٤.

الفرعونـيّ. فتبدأ السنة بعد "النّيروز" الموافق لـلأوّل من شهر تـوت (١١ ايلـول/ سبتمبر). ويأتي بعد شهر "توت" شـهر "بابـا" ثمّ "هـاتور"، فـ"كَيهْك" الـذي ينتهـي بعد الميلاد، ثمّ تـأتي أشـهر "طوبـه"، "أمشـير"، "بَرَمْهـات"، "بَرَمـوده"، "بشـنس"، "بؤونـة"، "أبيب"، "و"مسرى". وهذه الأشهر الإثنا عشر التـي يتـألّف كـلّ منهـا مـن ثلاثين يومًـا، تُستكمل بشهر صغير إضافيّ من خمسة أيّام أو ستّة يُسمّى "النّسـي". وتتـوزّع، وسـط هذه الأشـهر، أعيـاد وطقـوس ترتبـط ارتباطًـا وثيقًـا بـالتواتر الزراعـيّ. وهكـذا، فعيد الصليب، الموافق لـ ١٧ "توت"، هو عيد النيل وفيضان المياه المبارك. واثنَين الفصـح هو "شمّ النسيم" أو "عيد الربيع". وهناك صلوات خاصّة بأوقات الزرع والحصاد[١].

لم تحتفظ الليتورجيا الإفخارستيّة القبطيّة إلاّ بثلاثة نوافير: نافور القدّيس باسيليوس الذي يُتلى في كافّة أيّام السـنة، ونـافور القدّيـس غريغوريُـس المحفـوظ لأعيـاد الميـلاد والظهور والفصح، ونافور القدّيس كيرلّس الذي يُتلى طوال شهر "كيهـك". ولقـد أدخـل السينودس البطريركـيّ بعـض التعديـلات فـي القدّاس الباسـيليّ اليومـيّ، وذلـك فـي الثمانينات، رغبة منه في التجديد والتأقلم مع المتطلّبـات الراعويّـة والروحيّـة. ويسـري الآن تجديد مماثل في رُتَب سائر الأسـرار، ولا سيّما فـي سرّي الـزواج والمعموديّـة، وكذلك الأمر في الأصوام الكنسيّة... بما يتوافق ومقتضيات العصر إلى جـانب الأمانـة للتقليد العريق. وأمّا سرّ المعموديّة، فلا يُمنح قبل مرور أربعين يومًا على ولادة الطفـل الذكـر، وثمـانين يومًـا علـى ولادة الطفل الأنثـى، وهـي المدّة التـي يجوز فيهـا لـلأمّ الاقتراب من الكنيسة، وفي نهايتها تخضع الأمّ لرتبة تطهـير. ومـن جهـة أخرى يُمنـح العماد إمّا فرديًا، وإمّا في رتبة جماعيّة في "أحد التناصر" الـذي يسـبق أحـد الشـعانين. أمّا الزواج فيجري بحسب الطقس القبطيّ. ويتكوّن الاحتفال الأساسـيّ بـالزواج بتكليل

---

١ ـ الحصاد يتمّ في شهر "برموده"، وهو "الشهر الجديد" الذي يؤمّن البقاء للسنة.

الخطيبيَن (الزواج = الإكليل). وأمّا رتبة الجنّاز، فهي متأثّرة على وجه ملحوظ بالمعتقدات المصريّة القديمة في شأن الموت: "إطلاق النفس" التي تبقى تَحوم حول المنزل حتّى اليوم الثالث بعد الوفاة. وبحسب التقليد القبطيّ القديم، لا يتقرّر المصير الأبديّ للميت إلاّ في اليوم الأربعين بعد وفاته، وهو اليوم الذي يذهب فيه أهل الميت إلى الكنيسة، للمرّة الأولى بعد وفاته، للاحتفال بذكراه أمام صورته. ويبقى التعلّق الشديد بالتقاليد الخاصّة قويًّا جدًّا لدى الأقباط، عن أمانة وعن رغبة في الاحتفاظ بشخصيّة متميّزة وسط طقوس الكنائس الأخرى[١].

عشيّة

الميلاد

منذ القديم، سكن هذه البلاد جنس بشريّ جمع بين الإرثَين الحاميّ والساميّ، وإلى عهد الفراعنة لم يكن فيه إلاّ أثر ضعيف من الجنس الزنجيّ. هذا الجنس البشريّ استطاع أن يكوّن له حضارة تُعدّ من أقدم الحضارات التي يمتدّ تاريخها إلى أكثر من خمسة آلاف سنة قبل الميلاد. وفي هذا المجتمع المصريّ العريق، عُرفت وحدة الانتاج الزراعيّ باسم "المشترك القرويّ" الذي كان يضمّ عددًا من الأسر. وكان الفلاّح الذي يعمل ولا يملك يشكّل محور العمليّة الانتاجيّة، في حين كان المالك هو شيخ القرية ومدير شؤونها. ومع مرور الزمن، ولمّا قامت الدولة المركزيّة القويّة، تحوّلت إلى مالك فعليّ للأرض على اتّساع رقعة البلاد، يحكمها حاكم فرد (فرعون، ملك، حاكم، والي، موظّف...) تساعده فئة من الموظّفين، مهمّتها إنشاء السدود والأقنية للريّ،

---

١ ـ موسوعة الأديان في العالم، الكنائس الشرقيّة ٢، مرجع سابق، ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

وتنظيم الزراعة، وحفظ الأمن في الداخل، والدفاع عن حدود البلاد ضدّ الاعتداءات الخارجيّة..ولطالما نشبت في المجتمع المصريّ، نتيجة التغيّرات التي تصيب المُلكيّة، انتفاضات فلاّحيّة وثورات اجتماعيّة غالبًا ما كانت تؤول إلى الفشل، وبالتالي تتفشّى ظاهرة النزوح القسريّ للفلاّحين عن قراهم. والمجتمع المصريّ كان منقسمًا إلى طبقتَين اجتماعيتَين: طبقة الحاكمين، وتضمّ الملك (الفرعون) ونوّابه، وكبار الموظّفين من مدنيّين وعسكريّين... وطبقة المحكومين، وتتمثّل بالفلاّحين والرعاة والصيّادين... ولقد كانت هذه الأخيرة موضع استغلال بالغ الشدّة. وفي ما بعد، وعلى أثر ضعف السلطة المركزيّة، برزت من صفوف الموظّفين فئة من أصحاب الملكيّات الكبرى (إقطاعيّين) ما أحدث تبدّلاً أو انقلابًا، أدّى بدوره إلى انفجار الصراعات الاجتماعيّة داخل المجتمع المصريّ القديم. وانتهى الأمر أن يصبح للفرعون وظيفة دينيّة ـ لتقوية موقعه السياسيّ الضعيف، وأصبحت الديانة دينًا مركزيًّا للدولة ومؤسّسة فكريّة وُظّفت للمحافظة على تماسك المجتمع المصريّ، وأحيانًا لتوحيد البلاد ضدّ الغزاة. وأصبح الكهنة جزءًا مهمًّا من أجهزة الدولة، وتسلّم بعضهم مقاليد الحكم في مصر القديمة. وفي العهدَين البطليميّ[1] والرومانيّ، طرأ بعض التغيير في نمط الإنتاج السائد، إذ ازدهرت التجارة ازدهارًا كبيرًا، وقامت الملكيّات الكبيرة في الريف. لكنّ هذا التغيير لم يؤدِّ إلى تصفية ذلك النمط، إذ استمرّت الأرض، في غالبيّتها، تؤول في النهاية إلى ملكيّة الدولة[2].

---

١ ـ نسبة إلى بطليمُس PTOLÉMÉ: إسم أُطلق على ملوك مصر الهلّنستيّين المتأخّرين خلفاء بطليمُس المعروفين بالبطالسة أو اللاجيّين (٣٠٦ ـ ٣٠ق.م.) وعددهم ٦٦.

٢ ـ زخّور، قصّة الأقباط مرجع السابق، ص٢٠ ـ ٢٢.

على الصعيد السياسيّ، توالّى على حكم مصر ثلاثون أسرة، توزّعت على أربعة أدوار هي: الدولة القديمة، والدولة الوسطى، والدولة الحديثة، ثمّ عهد الإنحطاط. وتبدأ الدولة القديمة بتوحيد البلاد في حوالى سنة ٣٢٠٠ ق.م. على يد الفرعون "مينا". وقد شهدت مرحلة من الازدهار، واشتهرت ببناء أهرامات وفو، وخفرع، ومنكورع، وبعلاقاتها التجاريّة خاصّة مع فينيقية، وكانت عاصمتها مدينة تتيس؛ وفي أواخر هذا العهد حصلت ثورات سياسيّة واجتماعيّة أدّت إلى تفكّك الدولة، لكنّ ملوك الدولة الوسطى أعادوا للبلاد وحدتها وازدهارها، واتّخذوا لهم مدينة "طيبة[1]" عاصمة. ولم يدم الازدهار طويلاً في عهد الدولة الوسطى بسبب احتلال الهكسوس[2] لمصر، وحكمها أكثر من قرن ونصف القرن؛ ومع عهد الدولة الحديثة، بلغت مصر مرحلة من القوّة والاتّساع، بحيث أصبحت أمبراطوريّة امتدّت حتّى الفرات شرقًا. وفي هذا العهد قامت ثورة أخناتون، كمحاولة لعبادة الإله الواحد آتون: قرص الشمس، واتّخذ له عاصمة جديدة في تلّ العمارنة[3]، لكنّ محاولته فشلت بسبب قيام الكهنة عليه. وبعد الفرعون رعمسيس الثاني (نحو ١٣٠١ ـ ١٢٣٥ق.م.) ضعفت مصر، وتقلّصت سلطة الملوك، واستقلّ الحكّام بمقاطعاتهم، وغزت البلاد شعوبٌ غريبة وحكمتها كالليبيّين والأثيوبيّين والفرس. وهكذا فقدت مصر استقلالها، ثمّ تمّ فتحها على يد الإسكندر المقدونيّ في سنة

---

١ ـ طيبة أو ثيبَة THÈBES : مدينة قديمة في مصر على النيل في محافظة "قنا" اليوم، اشتهرت في عهد السلالة الحادية عشرة بعبادة الإله أمون، بدأت بالانحطاط بعدما هُجرت فأصبحت مركزًا دينيًا، تقوم على أنقاضها اليوم قرى الكرنك والأقصر، كانت قديمًا عاصمة إقليم "تيس" الذي ازدهر بحياة النسّاك المسيحيّين.

٢ ـ الهكسوس، أي الملوك الرعاة: سادوا بقوّة السلاح مصر وشرقيّ البحر الأبيض المتوسّط بما فيه المدن الفينيقيّة، مارسوا سيادة إقطاعيّة على المناطق التي سيطروا عليها نحوًا من ثلاثين سنة (١٦٠٠ ـ ١٥٧٠ق.م.)

٣ ـ تلّ العمارنة: موضع أثريّ في مصر على النيل في محافظة أسيوط تقوم عليه أنقاض عاصمة الفرعون أخناتون نحو ١٣٦٦ق.م.، اكتُشفت فيه المراسلات التي تبادلها الفراعنة العمارنة وملوك الشرق.

٣٣٢ ق.م.، وإليه يُعزى بناء مدينة الإسكندريّة[١] التي ستلعب دورًا هامًّا في ما بعد. ولمّا توفّي الإسكندر عام ٣٢٣ ق.م.، اقتسم قوّاده الثلاثة الأمبراطوريّة الواسعة في ما بينهم، فآلت أمور مصر إلى بطليمُس الذي أرسى قواعد مملكة البطالسة التي امتدّ عهدها إلى سنة ٣٠ ق.م. حين غزا أغسطس مصر بعد انتحار كليوباترا وأصبحت مصر جزءًا من الأمبراطوريّة الرومانيّة الواسعة. وقد دعا المؤرّخون العصر الذي بدأه الإسكندر المقدونيّ وانتهى عام ٣٠ ق.م. بالعصر الهلّينيّ أو الإغريقيّ، إذ شيّد البطالسة في مصر أسس دولتهم على نظام إغريقيّ بحت، فاستعانوا بالإغريق دون غيرهم لتدعيم حضارتهم، واعتبروا لغتهم لغة البلاد الرسميّة، مع انتشار اللغة اللاتينيّة في بعض الحواضر الفكريّة كالإسكندريّة. ورغم أنّ مصر قد أصبحت بحضارتها آنذاك تمثّل ذروة الحضارة الإغريقيّة، فإنّ المصريّين، سكّان البلاد الأصليّين، احتفظوا بطابعهم الحضاريّ المميّز. ولمّا انتقل الحكم من البطالسة إلى الرومان، حاول الأخيرون اقتباس الحضارة الإغريقيّة، ووضعوا عدّة تشريعات ماليّة واجتماعيّة ودينيّة وسياسيّة، وقف منها المصريّون مواقف سلبيّة، تحوّلت إلى اضطرابات سادها العنف خلال القرنَين الأوّل والثاني للميلاد[٢].

---

١ ـ أسّس الإسكندر الكبير مدينة الإسكندريّة سنة ٣٣٢ ق.م. كمرفأ تجاريّ، وزيّنها بالمباني والقصور الفخمة والشوارع المتّسعة والبساتين الجميلة، وكانت الإسكندريّة "درّة البحر الأبيض المتوسّط"، فجذبت أنظار العالم، واستوطنها عدد كبير من اليونانيّين واليهود، فصارت الإسكندريّة ملتقى العروق والثقافات والأديان في حضارة هلّينيّة قائمة على اللغة اليونانيّة. وسرعان ما انتشرت فيها المتاحف والمدارس الفلسفيّة والسيرابيون والمكتبات الشهيرة بفضل فيلون الشهير الذي حاول التوفيق بين الفلسفة والتوراة، وهنا ستؤسّس المدرسة التعليميّة المسيحيّة الشهيرة وتُسمّى "الديدَسْكاليون" لإعداد الموعوظين للعماد والتي سيكون لها شأن كبير في ما بعد.

٢ ـ زخّور، قصّة الأقباط، مرجع السابق، ص٢٠ ـ ٢٤.

دُخولُ المَسيحيّة إلَى مصر
وانتشارُهــا السّريــــــع

ذكر باحثون أنّ الأقباط، خلال احتلال الإسكندر لبلادهم، والبطالسة مـن بعـده، ثـمّ الرومان، قد ظلّوا يشكّلون شعبًا قبطيًّا مستقلاً في الجنس واللغة والتقـاليد والعبـادات... فعلى الصعيد الدينيّ ـ الثقافيّ، عاش المصريّون بدينهم الأوّل آلاف السنين، ورفـض كهنتهم الآلهة التي حاول البطالسة والرومان فرضها عليهم، كما قاوم الفلاّحون الأقبـاط عبادة الإله سيرابيس[1].

وهكذا فلمّا كانت المسيحيّة تبدأ دروب انتشارها في خلال القرنَين الأوّلَين للميـلاد، كان الأقباط المصريّون على عباداتهم القوميّة الأساسيّة. ويرى باحثون أنّ المسيحيّة قد انتشرت في مصر، وتحديدًا في الإسكندريّة، منذ منتصف القرن الأوّل للميلاد، على يد أحد تلامذة السيّد المسيح: القدّيس مرقس[2]، الذي قدم البلاد مبشّرًا سنة ٤٨ حسب تقليـد كنسيّ قديم يخبر عنه المؤرّخ المسيحيّ الشهير أوسابيوس القيصريّ[3]. وهو يستند إلـى أقوال يوليوس الأفريقيّ الذي عاش في أوائل القرن الثـالث. والمقول أنّ مرقس، قد وجد في الإسكندريّة، وسط الجالية اليهوديّة، بعض الأشخاص الذيـن وصلتهم الرسـالة

---

١ ـ سيرابيس: هو في الواقع إله مصريّ ـ يونانيّ، أوجده بطليمس الأوّل ٣٢٨ ـ ٢٨٣ ق.م. وأدخل في عبادته عناصر من الديانتَين المصريّة واليونانيّة للتوفيق في ما بينهما، دُعيت معابده "سيرابيوم"، أقدمها في "منف" وأكبرها في الإسكندريّة، كانت مراكز ثقافيّة هامّة.

٢ ـ مرقُس أو يوحنّا مرقس: أحد الإنجيليّين الأربعة، فتح بيته للرسل والتلاميذ في أورشليم، رافق بولس ثمّ لازم بطرس في تبشيره، كتب إنجيله حوالى ٦٤.

٣ ـ أوسابيوس القيصريّ EUSÈBE (نحو ٢٦٣ ـ ٣٣٩): أسقف قيصريّة فلسطين، لُقّب بـأبي التاريخ الكنسيّ، أشهر مؤلّفاته وأنفسها "التاريخ الكنسيّ" لما يحتوي عليه من حوادث ووثائق لولاه لما عُرفت.

المسيحيّة منذ يوم العنصرة[1]. وقد تمكّن بعضهم من معرفة السيّد المسيح، وأخذوا يبشّرون به. فنظّم القدّيس مرقس هذه الجماعة الناشئة ورسم لها شمامسة وكهنة وواصل التبشير في كلّ القطر المصريّ. ثمّ دعته الغيرة الرسوليّة إلى التبشير في ليبيا التي كانت، بحسب بعضهم، موطنه الأصليّ. حتّى أصبح، للمدن الخمس، وهي "قيرينه" و"بطلمايس" و"أرسينوية" و"سوزوزا" و"بردينة"[2]، منذ القرن الثاني، خمسة أساقفة تابعين لأسقف الإسكندريّة. وعند خروج مرقس البشير إلى الإسكندريّة، هاج عليه الوثنيّون، واضطُهد، وفي أثناء الاحتفال بعيد القيامة سنة ٦٨م. هجم عليه الوثنيّون وجرجروه في الشوارع حتّى أسلم الروح. وبعد القدّيس مرقس، يذكر أوسابيوس المؤرّخ قائمة تضمّ عشرة أساقفة ترأس كلّ منهم الكنيسة لمدّة اثنَي عشر عامًا دون ذكر شيء عنهم بالتفصيل.

ويرى باحثون أنّ ما ساهم في سرعة اعتناق الأقباط المسيحيّة، وما جذبهم إليها، اعتبار أفكارها سلاحًا للفقراء في مواجهة السيطرة الغربيّة المتمثّلة بجبروت الأمبرطوريّة الرومانيّة الوثنيّة. لذلك، فإلى جانب تطابُق جوهر هذا الدين مع ديانتهم القديمة، كان عليهم، في مقاومتهم للحكم الرومانيّ، أن يتزوّدوا بأفكار تحمل تطابقًا بين الموقف الدينيّ ونزعتهم إلى التحرّر. فقد تحوّل الأقباط، منذ وقت مبكّر جدًّا، إلى المسيحيّة التي كانت تنادي ضدّ ظلم الرومان، وكانت في جوهرها تشبه ديانتهم القديمة. فالثالوث في المسيحيّة يشبه ثالوث "أوزيريس" و"إيزيس" و"حورس" في الديانة المصريّة القديمة. وكذلك الإيمان بالحياة الآخرة، وخلود الروح، والثواب والعقاب[3].

---

١ ـ أعمال الرسل ٢: ١٠.

٢ ـ كانت تقع هذه المدن في مصر وليبيا.

٣ ـ زخور، قصّة الأقباط، مرجع السابق، ص٢٦ ـ ٢٧.

وازداد عدد المسيحيّين في عموم مصر، ولا سيّما في منطقة الصعيد حيث تُرجمت الكتب المقدّسة من اللغة اليونانيّة، التي لم يعد يفهمها الشعب، إلى اللغة القبطيّة لغة الشعب. وعليه لم تعد المسيحيّة في مصر مقتصرة على منطقة معيّنة، بل انتشرت في جميع أنحاء مصر في القرن الثالث، بدليل كثرة روايات اضطهاد الدولة الرومانيّة وتعذيبها الأقباط المسيحيّين، لدرجة أنّ القمع الدمويّ بلغ ذروته في أواخر القرن الثالث، فعُرف ذلك العصر بعصر الشهداء[1].

وبانتشار المسيحيّين ازداد عدد الأساقفة اللازمين لرعايتهم، ووصل عددهم إلى خمسين في سنة ٢٥٠ وإلى ١٠٠ سنة ٣٢٠؛ وأوّل أسقف إسكندريّ يتحدّث عنه التاريخ بشيء من التفصيل هو ديمتريوس الكرّام (١٨٠ ـ ٢٣٠)، الذي عُني خاصّة بمدرسة الإسكندريّة[2]، وعيّن لها مديرًا شهيرًا هو أوريجينِس ORIGÈNÊS (١٨٥ ـ ٢٥٣) بعد هروب إقليمنضس أثناء الاضطهادات[3]. وكان أوريجينِس من مواليد الإسكندريّة، وقد أصبح من أشهر أساتذة مدرستها اللاهوتيّة ومن نوابغ الفكر البشريّ، ترك آثارًا واسعة في اللاهوت وشرح الأسفار المقدّسة وتطرّف في بعض تعاليمه[4]. وقد اهتمّ

---

١ ـ زخّور، قصّة الأقباط، مرجع السابق، ص٢٦ ـ ٢٧.

٢ ـ مدرسة الإسكندريّة: مدرسة تعليميّة مسيحيّة شهيرة أُسّست في الإسكندريّة، وسُمّيت الـ"ديدَسْكاليون"، لإعداد الموعوظين للعماد، ضارعت المدارس الأخرى وأتى إليها الفلاسفة من كلّ حدب وصوب. فيها تُرجمت أسفار العهد القديم إلى اللغة اليونانيّة لتكون في متناول الجميع، وهي الترجمة التي تُسمّى "الترجمة السبعينيّة". وفي هذه الإسكندريّة اشتهر الكثيرون من العلماء، أمثال إقليمُس عالم الرياضيّات وأرخميدس صاحب قانون الطفو وغيرهما، فكانت الإسكندريّة حقًّا عاصمة العلم والفلسفة لكلّ الأمبراطوريّة الرومانيّة.

٣ ـ ويذكر بعض المرويّات أنّ مدرسة الإسكندريّة كانت قد أضحت لتعليم الغنوسيّة وقد اشتهر فيها أساتذة كبار، أمثال فالنتيونس، وفاسيليدس، وكربوكراتس، وكان على آباء الكنيسة أن يتصدّوا لهؤلاء، ومن الذين أفلحوا في ذلك، إيريناوس IRAENEUS الذي أصبح قدّيسًا. وكان إيريناوس قد تتلمذ على يدي بوليكاربوس POLYCARPE الذي أصبح هو الآخر قديسًا، والإثنان من مواليد آسية الصغرى.

٤ ـ المنجد في الأعلام، ط٣، المطبعة الكاثوليكيّة، دار المرق (بيروت،١٩٧٦) ص٩٢.

بإدخال الفلسفة والمنطق والعلوم الرياضيّة في المدرسة. وقد وُصف أوريجينس بأنّه مسيحيّ في أسلوب حياته، ولكنّه يونانيّ في تفكيره، لهذا اتُّهم بالهرطقة في مجمع القسطنطينيّة عام ٥٥٣م[١]. وممّن تتحدّث عنهم المدوّنات، ديمتريوس، الذي تدخّل في موضوع المشكلة الفصحيّة مساندًا فكتور الأوّل[٢] أسقف روما في تحديد يوم عيد القيامة يوم الأحد التالي للرابع عشر من شهر نيسان (إبريل)، ردًّا على كنائس آسيا التي كانت تعيّد في يوم الرابع عشر من شهر نيسان (إبريل). وبتلك المناسبة نُظِّم الحساب القبطيّ الذي حدّد عيد الفصح لكلّ سنة، وهو الأحد الواقع بعد اكتمال القمر من الاعتدال الربيعيّ. وكان ديمتريوس (١٨٩ ـ ٢٣٢) أوّل مَن رسم في مصر أساقفة للمدن الأخرى التابعة له، خارج الإسكندريّة[٣]. وأوّل مَن اتّخذ في الكنيسة لقب "بابا الإسكندريّة". وخلفه "ياروكلاس"، أحد تلامذة أوريجينس في مدرسة الإسكندريّة، وكان فيلسوفًا متضلّعًا من شتّى العلوم الفلسفيّة، كما كان خطيبًا مفوّهًا، وكان له تأثير كبير في النفوس، حتّى إنّه استقطب عددًا كبيرًا من الوثنيّين إلى المسيحيّة، وقام برحلة

---

١ ـ زخّور، قصّة الأقباط، مرجع السابق، ص٣١؛ كان أوريجينس شعلة ذكاء نادر، وامتاز بجلَده وجدّه في البحث والتأليف والتعليم حتّى أصبح في بادئ الأمر منارة في الكنيسة، ومن أشهر مفسّري الكتاب المقدّس. لكنّه قد تطرّف في الاعتماد على عقله الجامع لشتات المعارف، وبالغ في تتبّع سبل الفلاسفة ولا سيّما أفلاطون منهم؛ فغشت على عقله غيوم كثيفة من الضلال ولا سيّما لرغبته في ألاّ يترك شيئًا في الكتاب المقدّس دون أن يفسّر تفسيرًا يقبله العقل، فأمست كتاباته وتعاليمه مصادر يعتمد عليها عدد غفير من المبتدعين الذين أبسلتهم الكنيسة مع تعاليمهم. أمّا أشهر آرائه التي حرّمها، وحرّم صاحبها، المجمع المسكونيّ الخامس فهي التالية: إنّ الابن الوحيد الذي لا يمكن أن يشاهد الآب ولا الروح القدس يستطيع أن يرى الابن؛ إنّ الشيطان وكلّ الأبالسة سيعودون في النهاية إلى حالتهم الملائكيّة السابقة، وإنّ جهنّم ليست أبديّة؛ اعتبر أنّ كلمة الله الأقنوم الثاني أدنى من الآب، وأنّ الروح القدس الأقنوم الثالث أدنى رتبة من الابن، وأنّ قوّة الآب أعظم من قوّة الابن، وأنّ قوّة الابن أعظم من قوّة الروح القدس.

٢ ـ فكتور الأوّل: بابا روما ١٨٩ ـ ١٩٨، قدّيس، وُلد في أفريقيا، أقرّ عيد الفصح يوم الأحد في روما.

٣ ـ رستم أسد، كنيسة مدينة اللّه أنطاكية العظمى، المكتبة البولسيّة (بيروت،١٩٨٨) ١: ٤٤ ـ ١٤٥ PATROLOGIA GRACCA, VOL. 61, P. 982

راعويّة طاف خلالها في المدن المصريّـة، وبسبب ازديـاد عـدد المسيحيّين رسـم لهـم عشرين أسقفًا. وقد برز في تلك الحقبة وجه تفتخر به كنيسة الإسكندريّة هـو الأسقف القدّيس ديونيسيوس الكبير (٢٤٨ ـ ٢٦٢)، الـذي اشـتهر بمؤلّفاتـه اللاهوتيّـة، وحـارب القائلين بالنظريّة الألفيّة، ولا سيّما الهرطقة "الصابليّة" التـي تنكـر الثـالوث وتتكلّـم عن أقنوم واحـد اتّخـذ ثلاثـة أشـكال مختلفـة. وكـان معتـدلاً وصـانع سـلام بيـن الأطــراف المختلفة، يحارب التشدّد فـي النسـك وفـي معاملـة المرتدّيـن. وقـد أبـرزَ قيمـة الـزواج المسيحيّ ردًّا علـى الذيـن يـرون فيـه دنسًـا وشـرًّا، كمـا أنّـه حـثّ علـى قبـول الخطـأة الراجعين إلى اللّه بتوبـة صادقـة، بعـد أن ارتـدّوا عـن المسيحيّة بسـبب ضعفهـم أثنـاء الاضطهادات، متّخذًا موقف بابا روما إسطفانُس الأوّل (٢٥٤ ـ ٢٥٧) ضدّ نوخاسيوس المتشدّد. كما وقف، في مسألة تعميد الهراطقة، في صفّ البابا إسطفانس ضدّ قبريـانس أسقف قرطاجة. وعندما شكاه أخصامه إلى البابا بحجّة أنّه يقلّل من قيمة الإبـن بالنسبة إلـى الأب، وطلـب إليـه البابـا إيضاحًـا، أفحمـه بـردّه واعتُبرت الشكوى افـتراء. وقـد تعرّض هذا الحبر للاضطهاد في عهد الأمبراطور الروماني "داقيـوس" التـي اغتصـب السلطة سنة ٢٤٩ من يد فيليبّس إثر معركة حاسمة وقعت قرب ثيرونة الإيطاليّة قضـى بخلالهـا فيليبّـس مقـاتلاً. وكـان داقيـوس مـن الأبــاطرة الذيـن تشـدّدوا فــي اضطهــاد المسيحيّين كمـا سيأتي. وبنتيجـة الاضطهـاد اضطـرّ ديونيسيوس إلـى الهـروب نحــو الصحراء، وبعد عودته نُفـي إلـى الصحـراء الليبيّـة حيث بشّـر وجـذب الكثيرين إلـى المسيحيّة. ثمّ أُفرج عنه في عهـد إليـانُس. فرجـع إلـى الإسـكندريّة واسـتمرّ فـي خدمـة كنيسته بكلّ أمانة حتّى لقي ربّه. ومن بعده انتشرت المسيحيّة في مصر انتشارًا واسعًا، حتّى صـار عـدد المسيحيّين ثلث عدد السكّان فـي أواخـر القرن الثـالث. وزاد عـدد الأساقفة على المائة في السينودوس الذي عقده البطريرك ألكسـندروس ضـدّ آريـوس

سنة ٣٢٠. وقد ذكر بعض المراجع "أنّ رئيس الإسكندريّة كان، بادئ الأمر، الأوّل بين أقرانه الشيوخ والأساقفة PRIMUS INTER PARES وكان هؤلاء يقيمون رئيسًا بوضع الأيدي... ولعلّ السبب في ذلك أنّ أسقف الإسكندريّة ظلّ الأسقف الأوحد في مصر حتّى أوائل القرن الثالث[1].

أرضُ مِصـــــــــر
مَهدُ الحيَاة الرهبَانيَّة

إلى جانب انتشار المسيحيّة في مصر باكرًا، ظهر فيها نظام الرهبانيّات أو الأديرة قبل أيّ مكان آخر، وخاصّة ابتداء من عهد الأمبراطور فالنس (٣٦٤ ـ ٣٧٨م.) لذلك دُعيت مصر "مهد الحياة الرهبانيّة". وقد بدأت مسيرة النشأة الرهبانيّة بظهور النسّاك المتعبّدين، إلى أن ظهر القدّيس أنطونيوس الكبير (نحو ٢٥٠ ـ ٣٥٦) الذي وُلد في مصر، فتتلمذ على "باولا" أوّل الحبساء، ثمّ تنسّك في الصعيد فجذب الكثيرين إلى الحياة النسكيّة، ولمّا كثر عدد هؤلاء، وضع أنطونيوس قوانينه الشهيرة للحياة الرهبانيّة، وهي القوانين التي انتسب إليها أوائل الرهبان في مصر، ثمّ شاعت في الشرق والعالم ولا يزال معمولاً بها إلى اليوم، وأساسها نذر الفقر والطاعة والعفّة من قِبَل الرهبان الذين يعيشون حياة مشتركة في الأديار. ثمّ كان نظام الشركة الذي يرقى تأسيسه إلى الأنبا "باخوم"، الذي وُلد سنة ٢٩٢ من والدَين وثنيّين بـ"إسنا" في صعيد مصر، وتثقّف بالعلوم المصريّة، ولكنّه كان يشعر بنفور من عبادة الأصنام. وفي العشرين من عمره، اضطرّ إلى الالتحاق بالجيش الرومانيّ بإمرة الأمبراطور

---

١ ـ رستم، كنيسة مدينة الله، المرجع السابق.

"مكسيمينُس[١]" لمحاربة جيش "ليقينيُوس[٢]" وقسطنطين. وفي أثناء تأدية خدماته بالجيش، تأثّر بمعاملة المسيحيّين للجنود حتّى الغرباء منهم وبتجرّدهم وسخائهم في سبيل الآخرين. وبعد انكسار مكسيمينس وخروجه من الجيش، لم يشأ باخوم الرجوع إلى أهله، بل أخذ يتعلّم الديانة المسيحيّة حتّى قبل العماد في بلدة "شنسيت" وقصد أن يحيا حياة تليق بالمسيحيّ. فذهب إلى أحد المتوحّدين المشهورين المدعو "بلامون". وبعد اختبارات كثيرة قبله كتلميذ له وعاش مع معلّمه حياة الصلاة والنسك. وكان من عادة باخوم أن يبتعد في الصحراء إلى مكان يُدعى "طابنيس". فسمع يومًا صوتًا من السماء يقول له: "أمكث في هذا المكان وابنِ ديرًا لاستقبال كلّ مَن يرسلهم اللّه إليك لخدمته". وشجّعه بلامون على ذلك بعد أن عاش معه سبع سنوات، وكان أوّل تلميذ انضمّ إليه هو أخاه يوحنّا، وتبعه كثيرون. وقد أدرك باخوم مساوئ الحياة الانفراديّة من ملل وغرور وخطر التطرّف في التقشّفات وعدم ممارسة فضيلة المحبّة، فجمع تلاميذه في حياة جماعيّة. وهكذا ظهرت للمرّة الأولى حياة الشركة. ولُقّب باخوم بأبي الشركة الرهبانيّة. ولقي نظام باخوم نجاحًا كبيرًا أسهم في زيادة عدد الرهبان، فأسّس في حياته تسعة أديرة للرجال واثنَين للنساء، وكان لكلّ دير رئيس ومدبّر. ووضع باخوم قانونًا بإرشاد سماويّ كُتب باللغتَين القبطيّة واليونانيّة، ثمّ تُرجم إلى اللاتينيّة. وقد حدّد هذا القانون واجبات كلّ منهم وواجب كلّ راهب نحو الرئيس، واتّسم بالاعتدال، مراعيًا حالة كلّ فرد. ونظّم الحياة الرهبانيّة لجهة المأكل والمشرب والملبس والصلاة وقراءة الكتب المقدّسة. وكان للشغل اليدويّ في تنظيمات باخوم النصيب الأوفر،

---

١ ـ مكسيمينُس الثاني دايا MAXIMINUS DAIA: أمبراطور رومانيّ على الشرق ٣٠٥ ـ ٣١٨، غلبه مناوزه ليقينيُوس فانتحر.

٢ ـ ليقينيُوس أو ليسينيوس LICINIUS: أمبراطور رومانيّ في الشرق ٣٠٧ ـ ٣٢٤، اتّفق مع قسطنطين على سياسة التسامح مع المسيحيّين ثمّ تراجع عنها فحاربه قسطنطين وقتله.

فكان من الرهبان نجّارين وخبّازين وحدّادين وحائكين وفلاحين. وعلى منوال باخوم قام "شنودة الأتريبي" بتأسيس "دير البيت الأبيض" بالقرب من "أخميم". وكان شنودة راهبًا مثقّفًا يعرف اللغة اليونانيّة، وملمًّا بالفلسفة اليونانيّة والشعر. إلاّ أنّه عُرف بصرامته نحو الرهبان والراهبات، إذ تشدّد في تطبيق القوانين الباخوميّة، وبمحاربته الشديدة للهرطقة والوثنيّين. وقام شخصيًّا مع رهبانه بهدم الكثير من معابدهم، ووصل عدد الرهبان عند الفتح العربيّ إلى ما يزيد على ثلاثة آلاف راهب. ومن ثمّ انتشرت القوانين الباخوميّة في أثيوبيا حيث نجد ترجمة حبشيّة لقوانين الأنبا باخوم، ثمّ انتقلت إلى فلسطين وسوريا مع "هيلاريون[1]"، وإلى آسية الصغرى مع "القدّيس باسيليوس[2]"، وإلى الغرب مع "هيرونيمُس[3]" و"يوحنّا كاسيان". وإذ أثّر هذا النظام الرهبانيّ سلبًا على تجنيد المصريّين في الجيش الرومانيّ، ناهض بالأمبراطور الرهبان الذين تمّت ملاحقتهم، فنشبت ثورة في الإسكندريّة قام خلالها المصريّون بنهب أملاك الأغنياء، وهاجموا الأحياء اليهوديّة[4]. ذلك أنّه لمّا شهدت مصر قيام الحركة الرهبانيّة أو الديريّة، وكانت أهمّ مراكزها الإقليم الطيبيّ في منطقة الصعيد، وبلغت هذه الحركة أوسع انتشارها في القرنَين الثالث والرابع للميلاد على أيدي القدّيسَين بولس

---

١ ـ هيلاريون (ت٣٧١): ناسك قدّيس، وُلد في غزة فلسطين، أسّس الحياة النسكيّة فيها.

٢ ـ القدّيس باسيليوس: أسقف قيصريّة قبدوقية ٣٢٩ ـ ٣٧٩، سنّ قوانين رهبانيّة للنسّاك انتظم الجميع فيه سنة ١٢٢٤، أقرّه ١٢٤٥ البابا اينوشنسيوس الرابع ١٢٤٣ ـ ١٢٥٤، يلحظ الصلوات الليليّة والقطاعة الدائمة والصوم والصمت والاستعطاء، إلاّ أنّ البابا أوجين الرابع ١٤٣١ ـ ١٤٤٧ رأى في قانون الرهبانيّة من الصرامة ما لا يتحمّله عامّة المتنسّكين فخفّف منها بعض الشيء واضعًا لها نظامًا جديدًا.

٣ ـ القدّيس هيرونيمُس أو إيرونيمُس JÉRÔME HIERONYMUS (حوالى ٣٤٧ ـ ٤٢٠): من آباء الكنيسة، وُلد في دلماتيا (يوغوسلافيا)، تنسّك في شمال سورية ثمّ في بيت لحم، مؤرّخ ومفسّر للأسفار المقدّسة التي ترجمها بكاملها إلى اللاتينيّة وأصبحت النصّ المعتمد عليه في الكنيسة الغربيّة.

٤ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص٢٩.

وأنطونيوس في الصحراء الشرقيّة، ومع تحولها في القرن الخامس إلى نظام "رهبان الشركة" مع القدّيس باخوم، أصبح الدير أشبه بمستعمرة اقتصاديّة تتمتّع، إلى حدّ ما، بالاكتفاء الذاتيّ. ومع الوقت انتشرت الأديرة من أعالي الصعيد إلى مصر الوسطى، ثمّ إلى شمال مصر عند وادي النطرون. وشكّل رهبان وادي النطرون ومريوط في الإسكندريّة فرقًا منظّمة ساندت غالبًا بطاركة الإسكندريّة في صراعهم ضدّ المذهب الرسميّ للدولة. ومن جهة أخرى، وانطلاقًا من الإقليم الطيبيّ أيضًا، عمل القدّيس شنودة الأخميميّ على محو آثار الوثنيّة وعبادة الإله سيرابيس، وحوّل المعابد الوثنيّة القديمة إلى كنائس مسيحيّة قبطيّة[1].

كنيسَــــةُ مصـــر
والاضطِّهاد الرومانيّ

قاست الكنيسة المصريّة منذ نشأتها، شأنها شأن سائر الكنائس، عذاب الاضطهاد على أيدي الرومان، وكان طبيعيًا أن تصطدم الكنيسة بالنظام الوثنيّ المتفشّي في الأمبراطوريّة الرومانيّة. فإنّ تمسّك المصريّين بالإله الواحد ورفضهم للأصنام، أثار عليهم تجّار المنحوتات والمصنوعات الوثنيّة[2]. ثمّ كانت المسيحيّة تفرض على أتباعها سلوكًا يختلف عن سلوك الوثنيّين، فكان لا بدّ من إعلان الاختلاف القائم بين المسيحيّة والمجتمع الذي أخذت تنتشر فيه. وكان هذا الاختلاف يتغلغل في داخل الأسر. فمَن كان يهتدي إلى المسيحيّة فيها كان يتعرّض لمقاطعة أهله جميعًا، لأنّه لا يشاركهم في

---

١ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط ص٣١.

٢ ـ أعمال الرسل ١٩: ٢٣ ـ ٢٤.

عبادتهم الوثنيّة. فلا تلبث الأسرة أن تتّهمه بالكفر فترتفع الشكوى على المسيحيّين وتشيع فيهم القصص الكاذبة عن اجتماعاتهم وعن آدابهم. وإذا كانت المسيحيّة في مصر قد سلمت من الاضطهادات، إلى حدّ ما في خلال بداية مراحل الاضطهاد، ما جعل الكنيسة المصريّة تمتدّ إلى الأقاليم جنوبًا وغربًا، فقد تغيّرت الأحوال في القرن الثالث. إذ في سنة ٢٠٢، جلس على عرش روما الأمبراطور سبتيمس ساويرس، الذي تخوّف من انتشار المسيحيّة في أمبراطوريّته. ولمّا أراد إيقاف انتشارها، حرّم التنصّر وأمر بالقبض على المهتدين إلى المسيحيّة والهادين إليها. وكان لهذا الاضطهاد وقع خاصّ في كنيسة مصر، ولا سيّما في المدرسة الإسكندريّة التي كانت تقوم بتعليم الواعظين وتجذب الكثيرين إلى المسيحيّة، فأغلقت أبوابها بعض الوقت وهرب مديرها اكليمنضس واستُشهد الكثيرون من الموعوظين. وسكنت العاصفة بموت سبتيمس ساويرس سنة ٢١٢، وعاشت الكنيسة نحو أربعين عامًا في سلام. ذلك أنّ الأمبراطوريّة الرومانيّة كانت قد بدأت تتّبع سبيل المصالحة مع المسيحيّة في عهد فيلبُّس العربيّ سنة ٢٤٤. وكان الأمبراطور الجديد فلسطينيّ الأصل وكانت بينه وبين أوريجينِس، معلّم المدرسة الإسكندريّة الشهير، مراسلات متواصلة. وسنة ٢٥٠ تولّى العرش الأمبراطور داقيوس، فراعه ما رآه من انحلال الأمبراطوريّة وعزم على أن يجدّد نظمها الوثنيّة ويوحّد سكّان أمبراطوريّته الشاسعة الأطراف حول العبادة الإلهيّة لروما وللأمبراطور، وذلك بقرار أمبراطوريّ ينطبق على الجميع تحت طائلة أقسى العذابات والنفي أو الإعدام للمتمرّدين. فنزل بالمسيحيّة كلّها ولا سيّما بمصر، ضروب من الإرهاب والإكراه لم يسبق لها مثيل. فكان الجنود في الإسكندريّة يقطعون رؤوس النساء المسيحيّات على مرأى الجموع، إشباعًا للغرائز، ويدفعون البنات المسيحيّات إلى أقبح صنوف الهوان والعار. ومَن لا يُلقى من المسيحيّين إلى الوحوش كان يُحرق

حيًّا في مواقد مستمرّة. ولم يكن ديوقليتيانس (حكم ٣٨٤ ـ ٣٠٥) في السنوات العشرين من ملكه ذا نزعةٍ دمويّة، فكان عدد المسيحيّين يتزايد بين جميع الطبقات حتّى في القصر الأمبراطوريّ نفسه، إذ كانت زوجته "برسكا" وابنته "فاليريا" في عداد الموعوظين. ويرجّح تأثّره بمعاونه "غلاريوس"، الذي كان وثنيًّا متعصّبًا وحانقًا على الجنود المسيحيّين لرفضهم تقديم الذبائح للآلهة، وسعى عند مولاه بدهائه للحصول على أمر يقضي بمنع الاجتماعات المسيحية وبهدم الكنائس وبحرق الكتب المقدّسة وبإرغام المسيحيّين على إنكار دينهم. ثمّ ألصق بالمسيحيّين تهمة حرق الأمبراطور. فجنّ جنون ديوقليتيانس وأصدر ثلاثة أوامر أخرى تجبر جميع المسيحيّين في الأمبراطوريّة كلّها على أن يقدّموا الذبائح للآلهة، وتنفي أو تعدم المتمرّدين على هذه القوانين. وبدأ اضطهاد غير مسبوق في شدّته، استُشهد فيه الألوف من المسيحيّين في أهوال فظيعة يرويها أوسابيوس القيصريّ* في كتابه "التاريخ الكنسيّ". وكان من أشهر ضحايا تلك الاضطهادات القدّيس بطرس بابا الإسكندريّة الذي يُلقّب بخاتم الشهداء[1]. واستمرّ هذا الاضطهاد عشرين سنة من حكم ديوقليتيانس ومعاونه، وفي عهد "غلاريوس" خليفة ديوقليتيانس إلى أن صدر قرارُ الأمبراطور قسطنطين الأوّل الكبير (أمبراطور ٣٠٦ ـ ٣٣٧) عام ٣١١م.، الذي منح الحريّة لجميع الأديان، والاعتراف بحقّ المسيحيّين في ممارسة ديانتهم، "وفي أن يستمرّوا في الوجود وأن ينظّموا اجتماعاتهم شرط ألاّ يُخلّوا بالنظام، وعليهم بناءً على تسامحنا وتعطّفنا أن يصلّوا إلى إلَههم ليسعد ظروفنا وظروف الدولة وظروفهم"[2]. وفي العام التالي لصدور قرار

---

١ ـ لم ينسَ أقباط مصر هذا الاضطهاد، ولكي يظلّ دائمًا في الذاكرة ويذكّرهم ببسالة أجدادهم الشهداء، صنعوا له تقويمًا خاصًّا يبدأ في ٢٨٤، وهي سنة اعتلاء ديوقليتيانس العرش الرومانيّ، ويسمّونه "تقويم الشهداء".

٢ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط مرجع سابق، ص٢٧ ـ ٢٨.

الأمبراطور قسطنطين صدر مرسوم ميلان الذي قضى باعتبار الدين المسيحيّ دين الدولة الرسميّ. وفي سنة ٣١٥م. أصدر قسطنطين أوامره المشدّدة بتحريم التبشير باليهوديّة والدعاية لها. وبدا وكأنّ الخلافات بين المسيحيّين في مصر والأباطرة قد طُويت صفحتها بعد هذا التاريخ. لكنّ الصراع استمرّ مع الأباطرة المسيحيّين الذين كانوا يناصرون مذاهب مخالفة لمذهب الكنيسة المصريّة. "فالمسيحيّة المصريّة قد اتّخذت صبغة تتّفق وعقليّة أهل البلاد، وهي الطبيعة الواحدة للسيّد المسيح، على عكس البيزنطيّين الذي نادوا بالطبيعتَين الإلهيّة والبشريّة للمسيح"[1]. وعلى الرغم من المجامع التي عُقدت لتقريب وجهات النظر، فقد كان موقف الأقباط الدينيّ سببًا في مواكبة المسيحيّة في مصر حركة قوميّة منذ ظهورها، خصوصاً وأنّ البيزنطيّين كانوا، كالرومان، يضطهدون الأقباط أصحاب الطبيعة الواحدة، ويعزلون بطاركة كنيستهم، ولطالما اتّخذ بطريرك الإسكندريّة مواقف معارضة لتدخّل الأباطرة البيزنطيّين في المسائل الدينيّة والاعتقاديّة. فالبطريرك أثناسيوس الذي تمّ انتخابه سنة ٣٢٦م.، والذي استمرّ في منصبه ستّة وأربعين عامًا، كتب ذات مرّة إلى أمبراطور بيزنطيا يقول: "لا تُقحم نفسك في المسائل الكنسيّة ولا تصدر إلينا أمرًا بشأن هذه المسائل. لقد أعطاك اللّه المملكة، وعهد إلينا بأمور الكنيسة، وليس مسموحًا لنا أن نمارس حكمًا أرضيًا، وليس لك سلطان أن تقوم بعمل كنسيّ"، وكأنّه بذلك يدعو إلى فصل الدين عن الدولة. ولمّا تولّى هرقل الحكم (٦١٠ - ٦٤١) أرسل إلى مصر الحاكم "قيرس"[2] ليعمل على تحويل أهل البلاد إلى العقيدة الرسميّة بالقوّة، قاومه بطريرك الأقباط "بنيامين"

---

١ - زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط مرجع سابق، ص٢٨.

٢ - قيرس أو كيرُس أو كورش: أطلق عليه العرب اسم المقوقس، وزير حاكم مصر البيزنطيّ وبطريرك الإسكندريّة لمّا فتح عمرو ابن العاص مصر ٦٣٩ - ٦٤٢.

مع أبناء كنيسته، فاضطرّ إلى الهرب إلى الصحراء، والاختباء في أحد أديرة الرهبان، واستمرّ مختبئًا حتّى دخول العرب الفاتحين[1].

الإسكندريّـــــــــة

عاصمةُ الفِكرِ المَسيحيّ

ذكر باحثون في شؤون المسيحيّة في مصر أنّه في أقلّ من قرن واحد، أصبحت مصر بكاملها على الديانة المسيحيّة. ومع ازدياد عدد المسيحيّين هذا، أصبحت كنيسة الإسكندريّة الأولى بين الكنائس المسيحيّة في الأمبرطوريّة الرومانيّة. وكان بطاركتها يُختارون من العائلات العريقة جدًّا، واستمرّت هكذا حتّى انعقاد مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م. ولقد استطاعت هذه الكنيسة أن تكسب استقلالها، وازدادت أملاك الأديرة التابعة لها، وأصبح للبطاركة والأساقفة فيها سلطات مدنيّة وقضائيّة وسياسيّة إلى جانب سلطاتهم الدينيّة[2]. وكانت الإسكندريّة قد تزعّمت الفكر المسيحيّ قبل الانشقاقات لمدّة من الزمن قبل أن تشاطرها أنطاكيا هذه الزعامة. ومنذ أواخر القرن الثالث الميلاديّ، تصدّت مدرسة الإسكندريّة اللاهوتيّة لادّعاءات المدرسة الإغريقيّة الوثنيّة.

إضافة إلى ما تقدّم، فإنّ كنيسة الإسكندريّة، في القرنَين الرابع والخامس، قد تصدّت للعديد من البدع والهرطقات كالآريوسيّة في خلال مجمع نيقية

---

١ - د. زخّورفرج توفيق، قصّة الأقباط مرجع سابق، ص٢٨ - ٢٩.

٢ - زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط مرجع سابق، ص٢٩.

سنة ٣٢٥م[1]. والنسطوريّة في خلال مجمع أفسس عام ٤٣١م. كما استطاع الفنّ الدينيّ القبطيّ (الأيقونات) أن يبتعد، إلى حدّ ما، عن المؤثّرات الرومانيّة ـ البيزنطيّة، ويتميّز عنه[2]. وكانت كنيسة الإسكندريّة قد قالت بكمال الطبيعة البشريّة في المسيح، كما بكمال الطبيعة الإلهيّة. إلاّ أنّ بعض معلّميها نظر إلى الطبيعة الإلهيّة بتركيز مميّز، إلى أن تطرّف أوطيخة[1] الإسكندريّ باتّحاد الطبيعتَين، إلى حدّ قال عنده باختلاطهما في طبيعة واحدة لا يميّز بين اللاهوت والناسوت. فالتقى بذلك مع القائلين بالطبيعة الواحدة

---

١ ـ جاء في رسالة مجمع نيقية إلى كنيسة الإسكندريّة: بنعمة اللّه إلى الكنيسة في الإسكندريّة، وإلى إخوتنا المحبوبين الإكليروس والشعب الأرثذوكسيّ في كلّ أنحاء مصر والمدن الخمس وليبيا وكلّ أمّة تحت السماء... فبداية بحضور الملك الحسن العبادة قسطنطين جرى فحص القضايا الناشئة عن ضلال آريوس وأتباعه وإلحادهم، فاستقرّ الرأي على إبطاله هو ورأيه الكفريّ وكلّ افتراضاته وبراهينه الباطلة التي اندفع يتفوّه بها مجدّفًا على ابن اللّه وزاعمًا أنّه مخلوق من العدم، وأنّه قبل أن يولد لم يكن، وأنّه كان وقت لم يكن فيه، وأنّ ابن اللّه بإرادته الحرّة يختار إمّا الرذيلة أو الفضيلة. كلّ هذه الأقوال والآراء قد حرّمها المجمع الذي لم يحتمل سماع هذه البدعة الكفريّة والحماقة وكلمات التجديف...أمّا وقد أنقذت عناية اللّه مصر من البدعة والتجديف ومن الذين تجاسروا على إثارة الشغب والانقسام بين شعب كان متمتّعًا بالسلام، بقي على المجمع أن ينظر في وقاحة "ملاتيوس" والذين سلمهم من الإكليروس... ثمّ إنّنا نعلن لكم البشرى السارّة عن الاتّفاق المختصّ بالفصح المقدّس، فإنّ هذه القضيّة قد سُوّيت بالصواب بحيث أنّ كلّ الإخوة الذين كانوا في الشرق يجرون على مثال اليهود، صاروا من الآن فصاعدًا يعيّدون الفصح العيد الأجلّ الأقدس في الوقت نفسه، كما تعيّده كنيسة روما، وكما تعيّدونه أنتم وجميع مَن كانوا يعيّدونه هكذا منذ البداية. ولذلك فقد سرّتنا هذه النتائج المحمودة... فاستقبلوا بأوفر إكرام وأعظم محبّة زميلنا أسقفكم ألكسندرُس الذي سرّنا وجوده معنا.... صلّوا أيضًا من أجلنا واطلبوا معنا أن يثبت كلّ ما ارتأينا أنّه حقّ وصواب. فإنّ كلّ ما أنجزناه إنّما قمنا به حسب اعتقادنا ابتغاء لرضى اللّه الضابط الكلّ وابنه الوحيد سيّدنا يسوع المسيح وروحه القدّوس، له المجد إلى الأبد آمين. ـ عن زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط؛ مرجع سابق، ص٣٨ ـ ٣٩.

٢ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص٣١.

٣ ـ **أوطيخة، أو أوطيخا أو أوتيخِس** EUTYCHÈS (٣٨٨ ـ ٤٥٤): راهب يونانيّ عاش في القسطنطينيّة، كان زاهدًا ورعًا محترمًا تقدّم جميع رهبان العاصمة وبرز تبريزًا، بينما كان الجدل قائمًا حول طبيعة المسيح بين نسطورِيُس من جهة، وكيرلُّس الإسكندريّ بطريرك الإسكندريّة (٤١٢ ـ ٤٤٤) من جهة أخرى، كان أوطيخا يقول قول كيرلّس، تمادى في التركيز على الطبيعة الإلهيّة في المسيح، معتبرًا أنّ الطبيعة الإنسانيّة فيه، "ليست سوى نقطة خمر وقعت في بحر ماء، فامتزجت فيه". وهكذا يكون المسيح ذا طبيعة واحدة وأقنوم واحد؛ راجع: الجزء الثامن من هذه الموسوعة.

من خلال قوله بالمشيئة الواحدة، إلاّ أنّ كنيسة الإسكندريّة، كما سائر كنائس مصر، قد وافقت على مقرّرات المجمع الخلقيدونيّ سنة ٤٥١.

الكنيسَة القُبطيَّة والمجَامع الكنسيَّة

ويسجّل باحثون أقباط تاريخ الكنيسة القبطيّة مع المجامع الكنسيّة بالقول إنّه بعد السلام القسطنطينيّ، واجهت الكنيسة خصومات من الداخل، كانت أشدّ خطرًا عليها من الأعداء الخارجيّين. فقد شهدت الكنيسة المسيحيّة، منذ أوائل عهدها، خلافات مذهبيّة خطيرة تحكّمت في توجيه التيّارات السياسيّة، بل في تغيير مجرى الأحداث التاريخيّة، خاصّة في القرنَين الرابع والخامس للميلاد[1]. فقد استُهلّ القرن الرابع بانشقاق "ميليتيوس" أسقف "ليكوبوليس[2]" الذي أخذ على البطريرك تسامحه في معاملة المرتدّين الراجعين إلى الكنيسة بعد ردّتهم أثناء الاضطهادات. ثمّ استغلّ منح البطريرك "بطرس" الرسامة الكهنوتيّة لرجال من غير أبرشيّته، خلافًا لِما تقضي القوانين الكنسيّة، فكوّن لنفسه حزبًا منشقًّا عن السلطة الشرعيّة. وظلّ يستمرّ في زرع الشقاق في الكنيسة حتّى أثناء منفاه في مناجم "فاينو" بفلسطين. وأخذ حزبه يقاوم أثناسيوس ويلقي في حقّه التهم في مجمع عُقد سنة ٣٣٥ متواطئًا مع الآريوسيّين، ما أدّى إلى نفي أثناسيوس إلى "تريف" بفرنسا، وقد ضعف هذا الحزب مع الآريوسيّة سنة ٣٨١. فالمشكلة الأساسيّة التي قسمت المجتمع الرومانيّ المسيحيّ إلى قسمَين، وأثارت

---

١ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص٣٥.

٢ ـ ليكوبوليس: هي مدينة أسيوط المصريّة الحاليّة.

البغضاء الدينيّة والسياسيّة مدّة قرنَين وأكثر، كانت المشكلة التي أثارها كلّ من "آريوس[1]" و"أثناسيوس[2]" حول تحديد العلاقة بين المسيح الابن والإله الآب. فقال آريوس بأنّ المنطق يفرض وجود الآب قبل الإبن، ولا يمكن للإبن أن يساوي الآب في الجوهر والقدسيّة والأزليّة، وإلاّ يُتّهم المسيحيّون بعدم التوحيد وبعبادة إلهَين. وقال أثناسيوس بأنّ فكرة الثالوث المقدّس تحتّم بأن يكون الإبن مساويًا للإله الآب تمامًا[3]... وراح آريوس ينشر بدعته في أشعار وأغاني يردّدها أتباعه. وهكذا قسم الكنيسة إلى قسمَين بين أنصار له ومقاومين، وبالرغم من أنّ البطريرك ألكسندرس قد حرمه في سينودوس محلّيّ بالإسكندريّة سنة ٣٢٠، إلاّ أنّ آريوس لم يرتدع بل استمرّ في نشر ضلاله.

إلى جانب هذه المشكلة الأساسيّة برزت بدع أخرى، منها بدعة "نسطوريوس" أسقف الإسكندريّة وبطريرك القسطنطينيّة[4]، الذي رفض أن يدعو العذراء والدة الإله. هذه البدعة قاومها بشدّة بطريرك الإسكندريّة كيرلّس الكبير (٣٧٠ ــ ٤٤٤) الذي يُعدّ أكبر لاهوتيّ في الكنيسة الشرقيّة بعد أوريجينِس، فقد تثقّف تثقيفًا أدبيًّا ولاهوتيًّا عاليًا، أهّله لخلافة خاله "ثاوفيلس" على كرسيّ الإسكندريّة. وكان نسطوريوس تلميذ المدرسة

---

١ ـ آريوس ARIUS: كاهن إسكندريّ من أصل ليبيّ، تخرّج من المدرسة الأنطاكيّة، اشتهر بعلمه وبلاغته، قاده كبرياؤه وطموحه في الوصول إلى الكرسيّ البطريركيّ إلى مقاومة البطريرك الكسندروس ونشر بدعته المعروفة بالآريوسيّة وهي تقوم على إنكار لاهوت السيّد المسيح، وعلى الزعم بأنّ "الكلمة" غير مساوٍ للآب في الجوهر، حرمه المجمع النيقاويّ ٣٢٥، استمرّت بدعته حتّى أواخر القرن الرابع في الشرق والسابع عند القوط واللومبارد.

٢ ـ أثناسيوس الإسكندري (٢٩٥ ـ ٣٧٣): بطريرك الإسكندريّة، من آباء الكنيسة، حارب الآريوسيّة بعد المجمع النيقاويّ، نُفي خمس مرّات بسبب صلابة رأيه، كتب حياة القدّيس أنطونيوس ومؤلّفات لاهوتيّة.

٣ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص٣٥؛ راجع: الجزء الثامن من هذه الموسوعة.

٤ ـ راجع: الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

الأنطاكيّة، بدأ في عظاته يرفض لقب "أمّ اللّه" للسيّدة العذراء، قائلاً إنّها أمّ المسيح وليس اللّه، واضعًا هكذا في السيّد المسيح أقنومَين: أقنومًا إلهيًّا وأقنومًا بشريًّا، اتّحدا اتّحادًا أزليًّا عن طريق الصدفة. وسرعان ما وصلت الأخبار إلى الإسكندريّة فتصدّى البطريرك كيرلّس لهذا التعليم المخالف لتقليد الكنيسة، فحرّر خطابَين إلى نسطور ليُرجعه عن غيّه. لكنّ نسطور تمسّك بموقفه. ولجأ إلى أسقف روما البابا قليستينُس الأول (٤٢٢ ـ ٤٣٢)، وطلب إلى الأمبراطور البيزنطيّ ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ ـ ٤٥٠) عقد مجمع في أفسس سنة ٤٣١ ليفصل الموضوع بين كيرلّس ونسطور[1].

دبّ خلاف جديد في الكنيسة أثاره رئيس رهبان القسطنطينيّة. فلكي يحارب ثنائيّة نسطور، وقع أوطيخا* في بدعة مضادّة تقوم على إنكار حقيقة طبيعة المسيح البشريّة التي ذابت في اللاهوت. وبالتالي، لم يعد المسيح مساويًا للبشر في الجوهر، مغاليًا في تفسير تعليم كيرلّس عن "طبيعة واحدة للّه الكلمة المتجسّد"، وهذا المعتقد يُسمّى المونوفيزيّة. فحرمه بطريرك القسطنطينيّة فلافيانوس. ولجأ أوطيخا إلى "ديوسقورس"

---

١ ـ إلتأم المجمع المسكونيّ الثالث في كنيسة والدة الإله مريم في أفسس، وهي مدينة في آسيا الصغرى، وذلك في عهد الأمبراطور ثيودوسيوس الثاني سنة ٤٣١م.، وكان عدد الأباء الحاضرين نحو مئتَين. وكان من زعماء المجمع البارزين القدّيس كيرلّس أسقف الإسكندريّة الذي ناب عن كيلستين أسقف روما... وقد دُعي المجمع للنظر في الدعوى على نسطوريوس أسقف القسطنطينيّة. أمّا سبب الدعوى المقامة عليه فشروده عن الإيمان القويم متأثّرًا بتعاليم ديودورس ولا سيّما في ما يختصّ بسرّ التجسّد. فقد قسّم المسيح الواحد إلى أقنومَين وجوهرَين محوّلاً إيّاه إلى مجرّد كائن بشريّ بطبيعة كطبيعة البشر ومنفصل عن الكلمة، وإلى إله فقط بتحديد المعنى وبغير اتّخاذ البشر. ومفاد ذلك أنّه قسّم الابن الواحد إلى ابنَين مسمّيًا أحدهما ابن اللّه والآخر ابن العذراء. ولهذا كان يأبى أن يدعو العذراء وهي أمّه بالجسد، أي التي أعطت ولادة اللّه. لذلك حرّم المجمع المقدّس نسطوريوس... فالمجمع "لا يبشّر بكائن بشريّ متألّه بل بالعكس، يعترف أنّ اللّه قد تجسّد... وإنّ الكلمة صار كائنًا بشريًّا وعاش بالفعل معنا وبيننا كأنّه ابن الانسان ليس فقط بحسب الإرادة والقبول، وليس باتّخاذه شخصيّة فحسب بل إذ قد انضمّت الطبيعتان مع اختلافهما بقصد الاتّحاد ونتج من اتّحادهما مسيح واحد"...

بطريرك الإسكندريّة وإلى الأمبراطور ثيودوسيوس الثاني الذي أمر بعقد مجمع مسكونيّ ليبتّ في الموضوع.

انعقد المجمع في أفسس سنة ٤٤٩ برئاسة ديوسقورس، الذي لم يبالِ برسالة البابا لاون إلى فلافيانس، ولم يتمكّن نوّاب البابا أن يقرأوها، ويبرّئوا أوطيخا، وحرموا فلافيانس، وحكموا عليه بالنفي، فمات من العذاب وهو في طريقه إلى المنفى. وقد احتجّ البابا لاون على ذلك لدى الامبراطور، لكنّه لم يجد آذانًا صاغية إلى أن توفّي ثيودوسيوس، وحلّ محلّه الأمبراطور "مرقيانس" (٤٥٠ ـ ٤٥٧) الذي أظهر ولاءه للبابا لاون واستجاب لطلبه في عقد مجمع آخر ليصلح الأوضاع. فاجتمع أكثر من خمسمائة أسقف، أوّلاً في نيقيا سنة ٤٥١. فانتهز ديوسقورس تغيّب الأمبراطور ليلقي الحرم على البابا لاون. ثمّ انتقل الآباء إلى خلقيدونية، واستبعدوا ديوسقورس وحرموه، لا بسبب الهرطقة بل بسبب استعمال العنف في المجمع السابق. وقد أعلن المجمع براءة فلافيانس بعد وفاته، وأصدر قرارًا لا يختلف كثيرًا في نصّه عن رسالة البابا لاون الأوّل (٤٤٠ ـ ٤٦١) إلى فلافيانس، مؤكّدًا على أنّ في السيّد المسيح أقنومًا واحدًا وهو الأقنوم الإلهيّ القائم في طبيعتَين: الإلهيّة والبشريّة. وتمّ هذا الاتّحاد بدون اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير. وهو مساوٍ للآب في الجوهر من حيث اللاهوت، ومساوٍ للبشر في الجوهر من حيث الناسوت. وحُكم على ديوسقورس بالنفي إلى "غنغرا" في آسيا الصغرى، وعُيّن "بروتيريوس" مكانه. ولكنّ معظم الأساقفة المصريّين والرهبان والشعب ظلّوا متمسّكين ببطريركهم وتعاليمه، حتّى أنّه بعد وفاته سنة ٤٥٤م، عيّنوا له خليفة في شخص "تيموتاوس أيلور"، أي النمر.

وهكذا تثبّت الانقسام في الكنيسة المصريّة بين الخلقيدونيّين الذين عُرفوا بالملكيّين أو الملكانيّين أي أتباع الملك الذين يقولون بالطبيعتَين في السيّد المسيح، وغير

الخلقيدونيّين وهم القائلون بالطبيعة الواحدة في المسيح، محافظين على تعبير القدّيس كيرلّس[1].

هذه الخلافات اللاهوتيّة كانت تستدعي عقد مجامع دينيّة ترمي إلى الإصلاح واستئصال الوثنيّة والدفاع عن العقيدة ضدّ الأفراد وتجاوز السلطة، أو للبحث في أمور الكنيسة وتنظيم شؤونها. وكانت المجامع على أنواع، منها المحليّة، ومنها العالميّة المسكونيّة ثمّ الإقليميّة التي يرأسها الرئيس الدينيّ[2]. ومن أشهر تلك المجامع:

---

١ ـ لمّا كان المجمع الخلقيدونيّ قد اعتمد صيغة القدّيس لاون الكبير بأنّ السيّد المسيح أقنوم واحد "وفي طبيعتَين" فقد ظنّ الأقباط أنّ المجمع قد تخلّى عن صيغة القدّيس كيرلّس الإسكندريّ، وهي "أقنوم واحد أو طبيعة واحدة من طبيعتَين". وأنّه بالتالي قد انحرف عن الإيمان القويم ومال إلى النسطوريّة، وأنّه قصد الحطّ من كرامة الكرسيّ الإسكندريّ والنيل من دوره القياديّ في الدفاع عن الإيمان الرسوليّ، خاصّة بعدما عزل المجمع البطريرك ديوسقورس عن كرسيّه، وتسبّب في نفي الأمبراطور إيّاه بسبب موقفه الجائر من فلافيانس أسقف القسطنطينيّة. ولأنّ ديوسقورس كان معدودًا "أبا الأقباط" وخليفة أثناسيوس وكيرلّس في الدفاع عن الإيمان الرسوليّ وحقوق الكرسيّ الإسكندريّ. ولأنّ الموقف اتّسم بالروح القوميّة وحماسة الدفاع عن الذات الكنسيّة في مواجهة سلطة الاحتلال الأجنبيّ والهيمنة الكنسيّة البيزنطيّة، فقد ثار غالبيّة الأقباط ثورة عارمة، ورفضوا الخضوع للأسقف بروتيرُس الذي انتخبه الخلقيدونيّون خلفًا للبطريرك ديوسقورس. وبعد وفاة هذا الأخير في المنفى، أضرم المونوفيزيّون بالإسكندريّة نار الثورة، واغتالوا بروتيريوس أثناء الصلاة سنة ٤٥٧ واختاروا زعيمهم الراهب تيموثاوس إيلور أسقفًا لهم، فقبله الأمبراطور الجديد لاون (٤٥٧ ـ ٤٧٤) رغبة منه في أن يسود السلام والهدوء. ولكي يتّخذ الأمبراطور لاون موقفًا محدّدًا من هذا الانقسام والجدل، طلب من كلّ الأساقفة رأيهم في المجمع الخلقيدونيّ، فجاوبت الأغلبيّة بقبول المجمع ضدّ موقف البطريرك المونوفيزيّ تيموثاوس إيلور، فقام الأمبراطور بإبعاده، وعيّن بدلاً منه تيموثاوس سالوفاكيور (٤٥٠ ـ ٤٨١). وقد أدّت هذه الأحداث إلى انقسام الكنيسة إلى قسمَين: القسم الأكبر مونوفيزيّ يتمسّك بصيغة "الطبيعة الواحدة" ويرفض قرارات المجمع الخلقيدونيّ والخضوع لسلطة الأمبراطوريّة، والقسم الآخر كاثوليكيّ خلقيدونيّ يقبل قرارات المجمع والملك، فدُعي رجاله الملكانيّين أو الملكيّين. وبسبب هذا الصراع الذي بدأ بنفي القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم أسقف القسطنطينيّة، وانتهى بنفي ديوسقوروس بطريرك الإسكندريّة، وبسبب الأحداث التي أعقبت الانقسام، اضمحلّ بهاء بطريركيّة الإسكندريّة وسلطانها في الكنيسة الجامعة، فانكفأت على نفسها تحيا حياتها الخاصّة بلغتها القوميّة وطقوسها الرهبانيّة. وتوالى الأباطرة زينون (٤٧٤ ـ ٤٩١)، وأنسطاس (٤٩١ ـ ٥١٨) وبازيليسكو فعطفوا على الأقباط المونوفيزيّين، فأعاد زينون أساقفتهم والبطريرك تيموثاوس إيلور من المنفى. وفي محاولة منه لرأب الصدع بين الكنائس وإعادة الوحدة بينها، وبإيعاز من أكاكيوس أسقف القسطنطينيّة، أصدر مرسومًا عُرف "بالهينوتيكون" أي المرسوم الوحدويّ، الذي نصّ على قبول قرارات المجامع المسكونيّة الأولى وإدانة كلّ من نسطور وأوطيخا، وأكّد على اتّحاد الطبيعتَين في المسيح دون التطرّق إلى تحديد طبيعة واحدة أو طبيعتَين بعد الاتّحاد.

٢ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص٣٥.

مجمع نيقية الأول سنة ٣٢٥، ومجمع القسطنطينيّة سنة ٣٨١، ومجمع أفسس سنة ٤٣١ الذي عُقد برئاسة كيرلّس الإسكندريّ ونائبَين عن البابا قليستينس، وحرم الآباء المائتان الحاضرون نسطور وأكّدوا على وحدانيّة أقنوم السيّد المسيح بالعبارة الشهيرة "طبيعة واحدة للّه الكلمة المتجسّد"، وبالتالي الأمومة الإلهيّة للسيّدة العذراء. ففرح سكّان أفسس بهذا القرار وأخذوا يطوفون الشوارع حاملين المشاعل والمصابيح مرنّمين الترانيم الجديرة بالسيّدة العذراء؛ ثمّ كان مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ الذي سبق ذكره[١]. والذي وافقت الكنيسة القبطيّة على مقرّراته بداية، ولكن بعد ثلاث سنوات، خرجت كنيسة الإسكندريّة عن تلك المقرّرات، إثر نزاع على الأسقفيّة فيها، إنتهى بفتنة رهيبة داخل الكنيسة. وبوصول تيموتاوُس الهرّ AILOUROS، الذي اعتبر نفسه مرسَلاً من السماء، إلى سدّة الأسقفيّة، وبعد ثبوته في الكرسيّ، صفّى أخصامه من مؤيّدي المقرّرات الخليقدونيّة، وجمع مجمعًا محليًّا، وحرّم المجمع الخلقيدونيّ، وقطع الأساقفة الموافقين عليه في روما والقسطنطينيّة وإنطاكية[٢]. ودخلت كنيسة الإسكندريّة في حقبة انشقاق وصراع طويلة الأمد. وإذ تعرّض المونوفيزيّون في نهاية العهد البيزنطيّ للتضييق، راح كبارهم يلجأون إلى مصر، حيث انقسمت المونوفيزيّة بين قائلين بأنّ جسد المسيح قابل للفساد، وبين قائلين بأنّه غير قابل للفساد. وعندما جاء الفتح الإسلاميّ، كان مسيحيّو مصر على هذا التشتّت[٣].

تمكّن المونوفيزيّون، في نهاية الأمر، من السيطرة على كرسيّ الإسكندريّة تمامًا لدى احتلال الفرس للمنطقة، وقد مال هؤلاء إلى القائلين بالمونوفيزيّة التي كانت

---

١ ـ راجع الأجزاء ٨ و٩ و١٤ من هذه الموسوعة.

٢ ـ رستم، كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى، مرجع سابق، ٢: ٣٤٧ ـ ٣٤٨.

٣ ـ DRAGUET JULIEN, *D'HALICARNASSE*, REV., HIST. ECCL. (1937) PP. 92- 95; STEIN, E. II, 233- 235.

تخاصم الأمبراطور. إلاّ أنّ عودة هرقل قسمت هولاء المونوفيزيّين من جديد، إلى حدّ استتصر معه فريق العرب عند الفتح الإسلاميّ ضدّ الفريق الآخر[1]. وكان قد ظهر القول ببدعة "الفعل الواحد" في بعض الأوساط القبطيّة في مصر، وسط معارضة بطريرك الإسكندريّة "أفلوغيوس" الذي كان متمسّكًا بالكنيسة الجامعة[2]. ولكن لم يمضِ وقت طويل حتّى سيطر المونوفيزيّون في مصر على قيصريّة الإسكندريّة حيث جلس بطريركهم على كرسيّها، قبل أن يجعل هرقل بطريركًا وواليًا على مصر إسمه "كيرُس"، قال قول الأمبراطور بالفعل الواحد والمشيئة الواحدة[3]، ما أدّى إلى هروب المونوفيزيّين إلى ملاجئ نائية، ومناصرتهم للعرب المسلمين لدى دخولهم إلى مصر، إذ رأوا فيهم المنقذين من السيطرة الروميّة[4]. وهكذا، فعندما شنّ العرب غزوتهم على الإسكندريّة سنة ٦٤٥، عاونهم المونوفيزيّون ضدّ البيزنطيّين الذين انهزموا، فخرجوا من الإسكندريّة وأخذوا أموال أهل القرى.... "فلمّا ظفر بهم المسلمون جاء أهل القرى الذين خالفوا الروم فقالوا لعمرو بن العاص: إنّ الروم أخذوا دوابّنا وأموالنا ولم نخالف نحن عليكم وكنّا على الطاعة. فردّ عليهم ما عرّفوا من أموالهم بعد إقامة البيّنة. وهدم عمرو سور الإسكندريّة"[5].

---

١ - راجع: MANSI, XI, COL. 561- 564.

٢ - رسمتم بالاستناد إلى: BARDENHEWER *UBER TRINITAL AND INCARNATION*, THEOL. QUART., 18.

٣ - SÉVÉRE D'ASHMOUNEIN, VIE DE BEOJAMIN, I, PP. 489- 792.

٤ - MANSI, XI, COL. 561- 564.

٥ - إبن الأثير، الكامل في التاريخ، (دار صادر - بيروت ١٩٧٩) ٣: ٨١.

الفَصلُ الثَّاني

كَنيسَةُ مِصر
بعدَ الفَتح العَربِيّ

عَشيَّةَ الفَتحِ الإسلاميّ لمصر؛ منَاصرَة الأقبَاط للفَتح الإسلاَميّ؛

سيطَرة القُبط على الكَنيسَة المصريَّة؛

صِراعُ كنَسيّ عقَائديّ وسطَ الثورات القوميَّة.

عَشيّةَ الفَتحِ الإسلاميّ لمصر

قام الأقباط بعمل تبشيريّ مسيحيّ في آسيا، واتّصلوا بالغساسنة على حافّة شبه الجزيرة العربيّة الشماليّة، خاصّة بعد مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م؛ وفي أواسط القرن السادس للميلاد، قام بطريرك الإسكندريّة "ثيودوسيوس" بسيامة مطرانَين في الشرق، أحدهما في الرها والآخر في البصرة. وأقام الأقباط أيضًا علاقات وطيدة مع السريان في سورية، خاصّة مع أتباع يعقوب البرادعي الذي كان يدافع بصلابة عن مذهب الطبيعة الواحدة للسيّد المسيح[1]. واعتُبر "دير الهانادون"، جنوبيّ الإسكندريّة، من المراكز العلميّة التي أقامت مثل هذه العلاقات بسورية، وفيه جرت مراجعة الترجمة السريانيّة للإنجيل ومقابلته مع النصّ اليونانيّ. وفي القرن السادس للميلاد، أُسّس دير للسريان في "وادي النطرون[2]" حيث كان يأوي رهبانًا أقباط إلى جانب الرهبان السريان. وفي عام ٦٨٤ أصبح أحد هؤلاء الرهبان السريان رئيسًا لكنيسة الإسكندريّة تحت اسم "سيمون الأوّل"، وهو البطريرك الثاني والأربعون. وهكذا يمكن القول إنّ مرحلة من مراحل تاريخ مصر قد عُرفت باسم "العصر القبطيّ" ذي الطابع المسيحيّ

---

١ ـ راجع: الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

٢ ـ وادي النطرون: منطقة في الصحراء الغربيّة بمصر بين القاهرة والاسكندريّة، استغلّ الفراعنة بحيرات نطرون منذ القديم، اشتهر الوادي في العهد المسيحي بكثرة أديرته التي أثّرت على الفكر المسيحي، لا تزال أربعة منها قائمة حتّى اليوم هي: أنبا بوى، السريان، البرموس، وأبو مقار، وفيه آثار معبد شيّده أمونمحات الأوّل ١٩٩١ ـ ١٩٦١ ق.م.

الشرقيّ. وقد سعى المصريّون الأقباط في خلاله إلى أن يحدّدوا مقوّمات رئيسيّة لهويّة ثقافيّة متمايزة طرحت نفسها إزاء الحضارات الوافدة كالهلّينيّة والرومانيّة والبيزنطيّة. وتجلّت هذه المقوّمات بتحوّل الأقباط من الوثنيّة إلى المسيحيّة، وتمسّكهم بمذهب الطبيعة الواحدة للسيّد المسيح، وبإعادة الاعتبار إلى اللغة القبطيّة في مواجهة اليونانيّة، ثمّ بالتفاعل الثقافيّ والحضاريّ مع الثقافات الشرقيّة كالعربيّة والسريانيّة وغيرهما. ولمّا وعى هرقل (٦١٠ ــ ٦٤١م) خطورة الموقف القبطيّ، أعلن عام ٦٢٢ "مذهبًا توفيقيًّا" قال بوحدة المشيئتَين الإلهيّة والبشريّة في السيّد المسيح، محاولاً تجاوز الخلاف بين الأقباط ودعاة الطبيعتَين. ولجأ إلى فرضه على كنيستَي الإسكندريّة وإنطاكية، غير أنّ محاولته باءت بالفشل فاستخدم العنف. وهنا دخلت مصر، في الحقبة التي سبقت الفتح العربيّ بسنوات قليلة، مرحلة من الفوضى والاضطهاد[1].

منذ القرن السادس للميلاد، اضطربت أحوال المصريّين، واشتدّت قبضة الموظّفين البيزنط، وفُرضت ضرائب جديدة. وباءت محاولات الأمبراطور يوستينيان (٥٢٧ ــ ٥٦٥) بالفشل عندما حاول أن يحدّ من امتيازات كبار الملاّكين والموظّفين. وعلى صعيد آخر، اضطربت أحوال التجارة في الأمبرطوريّة، وبدا أنّ الأمور تسير من سيّء إلى أسوأ باتّجاه الهاوية. إزاء هذه الأحوال المتردّية وجد الأقباط أنفسهم مدفوعين إلى إيجاد السبل لخلاص مجتمعهم. وقد برزت هذه المحاولات في أكثر من مجال، كانت تسير جنبًا إلى جنب. فلم تخلُ مصر، في أيّ حقبة بعد ظهور المسيحيّة، من محاولات الاستقلال والإصرار على عدم الانصهار في الحضارات الطارئة. فمنذ مطلع القرن الثالث الميلاديّ، كانت قد ظهرت محاولات على نطاق ضيّق جدًّا لكتابة

---

١ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط مرجع سابق، ص٣٢ ـ ٣٣.

اللهجة المصريّة العاميّة، وذلك عن طريق إدخال عدّة أحرف "ديموطيقيّة"[1] إلى الأبجديّة الإغريقيّة المتداولة. تلا ذلك محاولات أقوى نسبيًّا، خاصّة بعد انتشار المسيحيّة واعتناق الأقباط لها، بأن تمّت ترجمة الإناجيل إلى اللغة القبطيّة، وتوقّفت كنيسة الإسكندريّة عن استخدام اللغة اليونانيّة في الطقوس الكنسيّة. ثمّ كانت دعوة القدّيس شنودة الأخميميّ، منذ النصف الأوّل من القرن الخامس الميلاديّ، إلى تطهير اللغة المصريّة القبطيّة من كلّ أثر يونانيّ، وأصبحت اللهجة الصعيديّة لغة الأدب والكتابة في مصر[2].

مناصَرة الأقبَاط للفتح الإسلاَميّ

في مطلع القرن السابع للميلاد، استطاع الفرس احتلال مصر حوالى عشر سنوات، وظهر تفكّك الأمبرطوريّة الرومانيّة، وضعفت قوّتها العسكريّة ما أدّى إلى سقوط مصر أمام الفتح العربيّ عام ٦٤١م[3]. وقد ذكرنا في نهاية الفصل السابق أنّه عندما شنّ العرب غزوتهم على الإسكندريّة سنة ٦٤٥، عاونهم المونوفيزيّون ضدّ البيزنطيّين الذين انهزموا، فخرجوا من الإسكندريّة وأخذوا أموال أهل القرى.... وأنّ عمرو بن العاص[4] قد ردّ على المسيحيّين خسائرهم، وهدم سور الإسكندريّة. ويبدو أنّ

---

١ ـ الأحرف الديموطيقيّة: متحدّرة من الهيروغليفيّة.

٢ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص٣٠.

٣ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط مرجع سابق، ص٢٩.

٤ ـ عمرو بن العاص (ت ٤٣ هـ/ ٦٦٤ م.): انتصر على البيزنط في أجنادين (فلسطين)، فتح مصر وهزم الأعداء في عين شمس وبابليون، احتلّ الإسكندريّة ٦٤٢، حكم مصر، بنى مدينة الفسطاس، اشترك في التحكيم الذي عقب صفين بين علي ومعاوية فرجّح بدهائه كفّة معاوية، توفّي بالقاهرة.

معاونـة المونوفيزيّين للعـرب لـم تقتصـر علـى منـاوأتهم للبيزنطيّين، بـل تعدّتهـا إلـى معاونتهم ضدّ خصومهم مـن المسيحيّين أيضـًا. فـإنّ بعـض البـاحثين[1] بدقـائق التـاريخ المصريّ يؤكّد على أنّ البطريرك كيرس الذي نصبّه هرقل علـى كرسـيّ البطريركيّـة الإسكندريّة قبل الفتح الإسلاميّ بعشر سنوات، اضطهد القبط شديد الاضطهاد، حتّى لـم يكبر عليهم أن يعاونوا العرب عليه حينما اضطروا إلى ذلك. وجاء في بعض الأبحـاث أنّ الأقباط قد عانوا عسفًا شديدًا، خاصّة بالإسكندريّة، تحت ولاية كيرس، فتطلّعوا إلـى التحرّر من نير الحكم البيزنطيّ بـأيّ ثمـن، بعدمـا اتّحدت المشـاعر الوطنيّـة بـالعقيدة الدينيّة. ولذلـك رحّب الأقبـاط بـالعرب لأنّهـم رأوا فيهـم منقذًا أرسلته العنايـة الإلهيّـة إليهم[2]. علـى أنّ بعـض المراجـع يفيد عـن أنّ الأقبـاط قـد قـاتلوا المسلمين فـي بدايـة الفتـح، ويذكــر أنّ الجيـوش العربيّــة بقيــادة عمــرو بــن العــاص، قــد سـلكت تلـك الطريق القديمة التي سار عليها "رعمسيس الثـاني" و"تحتمـوس" و"قمبيز" و"الإسـكندر" و"أنطيوخُس" و"نـابليون" و"ابراهيم باشـا" وغيرهم، وهـي الطريـق الدوليّـة فـي العـالم القديـم الموصلـة بيـن أهـمّ مراكـز حضاراتــه: مصــر وســورية وعيــلام[3] ومــا بيــن الرافديـــن. وبعـــد أن اجتـــاز عمـــرو بجيوشـــه العريـــش[4]، وصلـــوا إلـــى

---

١ - راجع: Butler Alfred, *The Arab Conquest Of Egypt*, المقتطف، المجلّد ٢٨، الجزء ٣ (آذار - مارس ١٩٠٣) ص ٢٣١ وما يليها.

٢ - موسوعة الأديان في العالم، الكنائس الشرقيّة، مرجع سابق، ٢: ١٠٢.

٣ - عيلام: بلاد قديمة كانت تمتدّ بين شمال شرقي الخليج العربيّ ودجلة الأسفل، عاصمتها سوس، عرفت حضـارة غنيّة ترقى إلى الألف الرابع قبل الميلاد، خضعت للنفوذ السومريّ والأكاديّ، بلغت أوج عزّها بين القرن الرابع عشر والقرن العاشر قبل الميلاد، احتلّها أشور بانيبال ٦٤١ ق.م.، هي اليوم إيران.

٤ - العريش أو عريش مصر: مدينة على المتوسّط في سيناء، تقوم على أنقاض مدينة "رينو كلورا" المصريّة القديمة، عاصمـة محافظـة سيناء، فيها وقّع الفرنسيّون معاهدة الجلاء ١٨٠٠.

"بيليزيوم[1]" وهي حصن على الساحل، ومعظم سكّانه من الأقباط، فوقعت المدينة في أيديهم بعد حصار استمرّ حوالي الشهرَين، قاتل أثناءها الروم والأقباط قتالاً شديدًا. وبعدها سار العرب إلى "بلبيس" ومنها إلى "هليوبوليس[2]" فاستسلمت حاميتها القبطيّة، وأُعطي أفرادها الأمان على أرواحهم وأموالهم. ومنها توجّه العرب إلى حصن "بابليون[3]" حيث تصدّى لهم الروم والأقباط، لكنّ الحاكم الرومانيّ "المقوقس[4]" دخل في مفاوضات مع عمرو بن العاص انتهت إلى هدنة، ثمّ إلى اتّفاقيّة في عهد الأمبراطور البيزنطيّ قنسطانس (٦٤٢ ـ ٦٦٨). وبعد ذلك استولى العرب على الفيّوم[5] في وسط مصر، وقتلوا القائد القبطيّ الشهير يوحنّا. لكنّ الأقباط تصدّوا لهم بعنف في قرى منطقة الدلتا مثل "طوخ" و"سلطيس" و"دمسيس" و"قرطسا" و"مصيل" و"بلهيب" و"دمياط" و"دميرة" و"أشمون" و"تنيس". ولم يستطع العرب الانتصار عليهم إلاّ بعد أن أعملوا حرقًا بهذه القرى، وسبوا أهلها[6]. ويذكر الباحث نفسه أنّ المقاومة القبطيّة للعرب تدلّ على أنّهم، كشعب حرّ، لم يريدوا أن ينتقلوا كسلعة بعد الأغارقة والروم، وهم الذين

---

١ ـ بيليزيوم: هي اليوم الفرماء، مدينة قديمة في محافظة سيناء المصريّة، اصطدم فيها العرب بالروم عند هجومهم على مصر، فتحها عمرو بن العاص نحو سنة ٦٤٠، بالقرب منها قلعة قديمة ظلّت منفى حتّى أواخر القرن الثامن عشر.

٢ ـ هليوبوليس: هي اليوم عين شمس، مدينة قديمة في محافظة القاهرة المصريّة، فيها جامعة شهيرة، ومن آثارها مسلّتان أقامهما الفرعون سنوسرت الأول.

٣ ـ بابليون: هي نفسها ممفيس أو منف، مدينة قديمة على شاطئ النيل بالقرب من القاهرة، كانت مرّات عديدة عاصمة الفراعنة، احتلّها عمر بعد عين شمس ٦٤١ فانفتحت له أبواب مصر، فيها أنقاض هياكل وقبور فرعونيّة وكنائس قديمة.

٤ ـ المقوقس: أنظر قيرس في حاشية سابقة.

٥ ـ الفيّوم: محافظة في مصر عاصمتها مدينة الفيّوم، تسقيها مياه النيل، فيها أنقاض أديرة وكنائس، حفظت مخطوطات يمتدّ تاريخها إلى نحو ٣٠٠٠ سنة مكتوبة بعشر لغات مختلفة ومنها العربيّة، تشتهر بزراعة الأرزّ وقصب السكّر والتين والعنب، فيها آثار إسلاميّة.

٦ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٥١.

كانوا، منذ اعتناقهم المسيحيّة، مدفوعين بروح قوميّة تتمثّل في اللغة والأدب والفنّ القبطيّ التي كانت تعبّر عن شخصيّة مصر القديمة. وأنّ أهل الإسكندريّة الأقباط استمرّوا يقاومون العرب المسلمين، لدرجة أنّ الخليفة الراشديّ عمر بن الخطّاب استاء لأنّ حصارها قد طال. لكن لمّا وقّع المقوقس الاتّفاقيّة مع العرب أذعن الأقباط، واتّهموه بأنّه سلّم مصر للمسلمين، وأرادوا أن يرجموه بالحجارة. ومع ذلك ظلّت مصر تقاوم بعد عام ٦٤٢م. اثنَي عشر عامًا، وكان العرب، في ما بعد، يتصرّفون بحذر شديد، ويخافون من انتفاضة الأقباط في أيّ وقت[١].

وفي التفاصيل جاء أنّ البطريرك الوالي قيرس[٢] قد قام بالتفاوض مع عمرو بن العاص، لكنّ الأمبراطور هرقل كان معارضًا لذلك، فاستدعى قيرس إلى القسطنطينيّة ونفاه. وفي ١١ شباط (فبراير) ٦٤١، مات هرقل فعاد قيرس من المنفى. ولمّا تولّى هيرقليون، التقى قيرس الذي أقنعه بحتميّة الصلح مع العرب. وعاد قيرس مرّة أخرى إلى الإسكندريّة في أيلول (سبتمبر) ٦٤١ فذهب بصحبة بعض الكهنة إلى حصن بابليون للتفاوض مع عمرو دون أن يخبر قادة الجيش البيزنطيّ، خشية معارضتهم، وانتهت المفاوضات في تشرين الثاني (نوفمبر) ٦٤١ بتسليم الحصن. وعاد قيرس مرّة أخرى إلى الإسكندريّة ليقدّم لقادة الجيش شروط المعاهدة، معلّلاً قبولها لرغبته في ضمان الحريّة الدينيّة لسكّان مصر. كما عقد عمرو بن العاص معاهدة مع الأقباط المونوفيزيّين، بعد تسليم الحصن سنة ٦٤١، مفادها أن يدفع الأقباط الجزية في مقابل "الأمان على أنفسهم وملّتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرّهم وبحرهم "النيل"[٣].

---

١ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٥١ ـ ٥٢.

٢ ـ هو نفسه المقوقس وكيرس.

٣ ـ موسوعة الأديان في العالم، الكنائس الشرقيّة مرجع سابق، ٢: ١٠١.

أسوة بالجابية في الشام، وبالبصرة والكوفة في العراق، ونزولاً عند رغبة الخليفة عمر، أنشأ العرب لهم مدينة الفسطاط قرب حصن بابليون، اتّخذها الأمير الذي أقامه الخليفة عمر مقرًّا. وقد سُمّيت الفسطاط "مصر" لكونها مدينة للعرب على الحدود، وقد تحوّلت إلى مدينة عظمى، وعُرفت بمصر القديمة بعد أن بنى الفاطميّون القاهرة عام ٩٦٩م. وبنى فيها عمرو أيضًا "مسجدًا" مكان إحدى كنائس الأقباط، ما زال يحمل اسمه إلى اليوم[١].

سيطَرة القُبط على الكَنيسَة المصريَّة

لم يكن انتصار العرب على البيزنطيّين، عمليًا، سوى حلول سيّد مكان آخر. على أنّ سياسة عمرو بن العاص كانت ترمي إلى كسب ودّ الأقباط المونوفيزيّين والاحتفاظ بوحدة مصر وقوّتها، فرأى، على خلاف ما كان يفعل قادة العرب، أنّ المصلحة تقضي بمنع توزيع أراضي الأقباط وأسلابهم على المحاربين كغنيمة حرب، كما أدرك فائدة معاملة سكّان مصر ورؤساء مللهم معاملة طيّبة، واحترام شعورهم الدينيّ والحفاظ على ثروة البلاد الزراعيّة مع جباية الضرائب عنها. كما أدرك عمرو منزلة البطريرك "بنيامين" وترحيبه بالعرب فأرسل يستدعيه من مخبئه مؤكّدًا "له العهد والأمان والسلامة من اللّه. فليحضر آمنًا مطمئنًا ويدبّر حال بيعته وسياسة طائفته". فعاد البطريرك بنيامين إلى الإسكندريّة بعد غيبة ثلاث عشرة سنة. وطلب عمرو إلى البطريرك أن يبارك حملته على طرابلس الغرب لأنّه كان يرغب في جعله "مسؤولاً عن إخلاص

---

١ - زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٥٢.

الأقباط للعرب". وقد كافأه على ذلك بترك مؤمنيه يستولون على معظم كنائس الملكيّين وأديرتهم، فظلّ الأخيرون بدون بطريرك نحو سبعة وسبعين عامًا. ولكنّ العرب لم يستطيعوا فتح ممالك النوبة* المسيحيّة التي قاومت ببسالة وصدّت حملات عبداللّه بن سعد مرّتَين: الأولى عام ٦٤٠، والثانية عام ٦٥٠، وفي النهاية عقدوا هدنة ذات بنود سياسيّة وتجاريّة، أهمّ شروطها: ألاّ يعتدي أحدهما على الآخر، وأن تؤدّي النوبة لمصر عددًا من الرقيق كلّ سنة، وأن تؤدّي مصر إلى النوبة قدرًا معيّنًا من القمح والعدس وغيرهما كلّ سنة. وظلّ أهل مملكة "توباطيا" على المذهب المونوفيزيّ[1]، كما أنّ أهل مملكة "مقورة" الملكيّين الذين كان لهم أسقفهم الخاصّ، بعد أن خلا عندهم الكرسيّ بسبب وجود بطريرك ملكيّ بالإسكندريّة، طلبوا أسقفًا من البطريرك القبطيّ فصاروا على مذهبه[2].

وجد العرب في مصر نظمًا قامت منذ عهد الفراعنة، فأبقوا عليها كما فعل الرومان من قبل، واكتفوا بشغل بعض المناصب الرئيسيّة ليشرفوا على الإدارة والأمن، كما أبقوا على أسماء المدن والبلاد كما كانت عليه. فانتعشت الكنيسة القبطيّة وتنظّمت في حكم عمرو بن العاص. واعتقد الأقباط لحقبة أنّ انتصار العرب أعاد لهم الحريّة والكرامة والشخصيّة القوميّة. لا سيّما أنّ عمرو بن العاص اتّبع وصيّة نبيّ الإسلام وعطفه على الأقباط إذ جاء في الحديث:

---

١ ـ ذكر باحثون (زخور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٥٢) أنّ عمرو بن العاص لم يقصد احتلال بلاد النوبة، إنّما غزاها إشعارًا لأهلها باحتلال العرب لمصر حتّى لا يهاجموا صعيدها، وربّما لتأديبهم بسبب مساعدتهم للأقباط في موقعة عين شمس، ومن ثمّ عقد معهم هدنة. وقد ترتّب على عقد هذه الهدنة أن ازداد نفوذ الكنيسة القبطيّة في النوبة إزاء المذهب المسيحيّ الرسميّ، القائل بالطبيعتَين الإلهيّة والبشريّة. واستمرّت غالبيّة سكّان بلاد النوبة على الديانة المسيحيّة حتّى القرن الرابع عشر للميلاد، إلى أن أرسل إليها المماليك جيوشهم، فتحولت إلى الديانة الإسلاميّة.

٢ ـ موسوعة الأديان في العالم، الكنائس الشرقيّة ٢، مرجع سابق، ص ١٠٢.

إنّ الله عزّ وجلّ سيفتح مصر بعدي، فاستوصوا بقبطها خيرًا، فإنّ لهم منكم صهرًا ونسبًا.

فقد كانت ماريّة القبطيّة (ت١٦ هـ/ ٦٣٧م.) زوجة للرسول، مصريّة، أهداها المقوقس عامل الاسكندريّة إلى النبيّ العربيّ فتزوّجها وأنجبت له ابنه الوحيد إبراهيم الذي توفّي بعد سنة ونصف تقريبًا. وأهدى المقوقس إلى النبيّ العربيّ مع مارية أختها "سيرين" التي تزوّجها حسّان بن ثابت[1].

وقد ساعد الفتح العربيّ في بداية الأمر على نهضة اللغة القبطيّة على حساب اليونانيّة، لغة الثقافة من قبل، فالقراءات الطقسيّة صارت تُتلى بالقبطيّة وحدها، كما تُرجمت إليها أقوال الآباء. وقد بُنيت عدّة كنائس وجُدّدت كنائس أخرى. ففي أيّام البطريرك أغاثون (٦٦١ ـ ٦٦٧) عُمّرت كنيسة أبي مقار، وبُنيت كنيسة القدّيس مرقس بالإسكندريّة في ولاية عمرو بن العاص الثانية، وظلّت قائمة إلى أن هدمها السلطان العادل أخو صلاح الدين الأيّوبيّ في القرن الثالث عشر ميلاديّ. ولقد أفتى الليث بن سعد وعبدالله بن لهيعة، وهما أئمّة الفقه الإسلاميّ، ببناء الكنائس وتعميرها لأنّهما عدّا ذلك من مظاهر التعمير في البلاد، على ما يقول الكنديّ في كتابه "الولاة والقضاة".

بعد حكم عمرو بن العاص تبدّدت آمال الأقباط في حياة حرّة رغدة، إذ سرعان ما دعت الحاجة الأمويّين إلى مضاعفة الجزية والخراج، لكثرة نفقات الفتوح الإسلاميّة، حتّى أُلغيت الإعفاءات التي مُنحت لكبار السنّ والرهبان، واستُعمل العنف والإجحاف في تقديرها. فأثقلت الجزية كواهل المسيحيّين، الذين راح عدد كبير منهم يعتنق

١ ـ المنجد في الأعلام، مرجع سابق، ص٦٢٧؛ راجع الجزء الثامن عشر من هذه الموسوعة.

الإسلام، رغم أنّ القبط كانوا، بمؤازرة الأمويّين، قد سيطروا على جميع كنائس مصر التي كانت للملكيّين، وأقاموا منهم أساقفة عليها، كما أرسلوا الأساقفة إلى بلاد النوبة التي تحول مسيحيّوها، أمام هذا الواقع، إلى المونوفيزيّة القبطيّة[١]، كما سبق، وتخلّوا، هم وأهل الحبشة، عن الكنيسة البيزنطيّة تمامًا[٢].

هذه التحوّلات، لم تقضِ تمامًا على وجود الكنيسة المسيحيّة الملكانيّة في مصر، إذ في عهد هشام بن عبد الملك (٦٩٠ ــ ٧٤٣)، وإثر وقوف الملكانيّين ضدّ الأمبراطور الرومانيّ في مسألة الأيقونات، كما سيأتي، كافأهم هشام بإعادة بعض كنائسهم إليهم بعد أن كان المونوفيزيّون قد استولوا عليها، ومنها كنيسة القيساريّة[٣]. ويبدو أنّ الملكانيّين كانوا قد تمكّنوا من المحافظة على كنيسة مار ميخائيل التي في قصر الشمع "وكانوا يصلّون فيها، وكانوا إذا مات أسقفهم بعثوا إلى مطران صور فكان يصلح لهم أسقفًا[٤]". وفي عهد هشام، عُيّن قزما بطريركًا ملكانيًّا، فذهب لزيارة

---

١ ـ المقريزي، الخطط، طبعة بولاق، ص ٤٩٣؛ تتحدث الكاتبة سيدة إسماعيل في كتابها "مصر في فجر الإسلام" عن تفضيل العرب للأقباط المونوفيزيّين فتقول: وقد انتصر المسلمون لليعاقبة القبط على الكنيسة الملكانيّة، فاستردّ اليعاقبة أو أخذوا عددًا من الكنائس والأديرة التي كانت في يد الملكانيّين. كما انتهزوا فرصة حسن علاقتهم بالمسلمين لكي يجذبوا إلى مذهبهم كثيرًا من الملكانيّين. بل حدث في عهد قرّة بن شريك (والي مصر) أن فرض على الملكانيّين جزية مضاعفة.

٢ ـ راجع: شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر، طبعة بطرسبرغ، ص٢٦٩؛ ابن حوقل، صورة الأرض، طبعة ليدن (١٩٣٨) القسم الأوّل، ص ١٠.

٣ ـ قابل: المقريزي، الخطط ص ٤٩٣.

٤ ـ نظم الجوهر (طبعة بيروت) ٢: ٤٥ ـ ٤٦؛ جاء في بعض التفاصيل أنّ الأقباط الملكانيّين لم يتمتّعوا ببعض الحريّة إلاّ في حقبات معيّنة، استندوا فيها، في غياب بطريركهم، إلى جهود بعض الموظّفين المسيحيّين لدى الخليفة في دمشق أو لدى الوالي بالفسطاط كما حدث في عهد الخليفة عبد الملك (٦٨٥ ـ ٧٠٥)، إذ كان بعض الأقباط الملكانيّين يعملون لدى عبد العزيز أخي الخليفة ووالي مصر، فسمح لهم ببناء كنيسة على اسم مار جرجس، كما حصل بعض الكتّاب الأقباط على إذن ببناء كنيستين: واحدة باسم القدّيس سرجيوس والأخرى باسم القدّيس مرقوريوس.

الخليفة في دمشق ليسمح له باستعادة الكنائس والأوقاف المغتصبة. وقد أمر الخليفة واليه بمصر بتلبية طلب البطريرك، فحصل على كنيستَي قيساريون وانجليون. ولمّا انعقد المجمع المسكونيّ في نيقية عام ٧٨٧، أوفد البطريرك الملكانيّ الإسكندريّ "يوليانوس" مندوبًا عنه في شخص الراهب "توما". وقد ذكر البطريرك القسطنطينيّ "فوتيوس[١]" أنّه كان في وقته أسقف ملكانيّ في الأقصر، وأنّ الطقوس هناك تُقام باللغة القبطيّة الصعيديّة. أمّا في الإسكندريّة فكان الأقباط الملكانيّون لا يزالون يستعملون الطقس الإسكندريّ باللغة اليونانيّة. وتذكر الوثائق والمخطوطات أنّه، حتّى منتصف القرن الثاني عشر، كان هناك أساقفة في الصعيد ورهبان في الأديرة لا يزالون يستعملون التعبير الخلقيدونيّ عن طبيعة السيّد المسيح. واستمرّ الملكانيّون في استعمال الطقس الإسكندريّ حتّى بدء القرن الثالث عشر، حين كان بطريرك الملكيّين "مرقس الثاني" يونانيّ التبعيّة، فكتب إلى "بلسمون" بطريرك القسطنطينيّة يسأله: هل تستطيع كنيسة الإسكندريّة الملكيّة أن تستمرّ على طقس القدّيس مرقس أم يجب تبديله؟ فردّ بلسمون "بأنّ كنيسة القسطنطينيّة لا تقرّ هذا الطقس، وعلى الملكيّين في مصر أن يتّحدوا في طقوسهم مع روما الجديدة (القسطنطينيّة) وأن يقيموا القدّاسات البيزنطيّة". فصار الملكيّون في مصر ذوي صبغة بيزنطيّة صرف، لا في الفكر والرئاسة فحسب، بل في الطقوس أيضًا، ما حدا ببعض الملكيّين المصريّين إلى تفضيل البقاء على الطقس الإسكندريّ والانتماء إلى الكنيسة القبطيّة، أو إلى المرسَلين الرومانيّين الذين جاؤوا إلى مصر لخدمة القنصليّات والتجّار الأوروبيّين[٢].

---

١ ـ فوتيوس (ت حوالى ٨٩١): بطريرك القسطنطينيّة ٨٥٨ ـ ٨٨٦، انفصل مدّة عن الكنيسة الكاثوليكيّة ٨٦٧، له أبحاث لاهوتيّة ومجموعة قوانين الكنيسة اليونانيّة، مات منفيًّا.

٢ ـ موسوعة الأديان في العالم، الكنائس الشرقيّة ٢، مرجع سابق، ص ١٠٥.

بعد اعتناق عدد كبير من القبط للإسلام، وانحسار سيطرتهم على الكنائس في مصر نهاية العهد الأمويّ، شهدت الكنيسة القبطيّة في نهاية ذلك العهد تقهقرًا نسبيًّا ملحوظًا، سوف يكون له تأثيره الواضح عليها في بداية العهد العبّاسيّ.

صِراعٌ كنَسيّ عقائديّ
وسطَ الثوراتِ القوميَّة

ثار الأقباط عدّة مرّات على حكّامهم العرب، خاصّة في عهد الأمويّين الذين اعتبروا أنّ مصر قد فُتحت عنوة، وأنّ أهلها عبيد، فلهم، أي للأمويّين، أن يزيدوا عليهم ما يشاؤون من المال[1]. وعندما كانت الثورات الاجتماعيّة المسيحيّة ناشبة في مصر وبعض بلدان الشرق الأوسط ضدّ الحكم الإسلاميّ، كانت الخلافات العقائديّة لا تزال تعصف في ما بين المذاهب المسيحيّة، لا بل كانت على أشدّها. ومن تلك الصراعات مسألة الأيقونات، التي كان للقدّيس يوحنّا الدمشقيّ[2] ذلك الموقف الشجاع فيها، شكّلت موضوعًا لخلاف آخر نشأ في الكنيسة منذ أمد بعيد، إلاّ أنّه تطوّر بشكل خطير في العام ٧٢٦ إذ أشعل نزاعًا حادًّا استمرّ في حالة مدّ وجزر حوالى مئة

---

١ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٥٢.

٢ ـ القدّيس يوحنّا الدمشقي (نحو ٦٧٥ ـ ٧٤٩): من آباء ومعلّمي الكنيسة، وُلد في دمشق. حفيد منصور بن سرجون رئيس ديوان الماليّة على عهد معاوية، قاوم بدعة محطّمي الصور أو الإيقونوكلاست، ألّف في اللاهوت والفلسفة والخطابة والتاريخ والشعر والألحان الدينيّة، مهّد بمؤلّفاته إلى نشأة تعليم الفلسفة واللاهوت في أوروبّا، تُرجم بعض مؤلّفاته إلى العربيّة منها كتابه "منهل المعرفة"؛ للتوسّع في معرفة سيرة يوحنّا الدمشقيّ دفّاق الذهب: رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ٢: ٦٣ وما يليها؛ نصرالله الأب يوسف، سيرة يوحنّا الدمشقيّ المنشورة بمناسبة الذكرى المئويّة الثانية عشرة لوفاة القدّيس، ص ٣٨ ـ ٣٩؛ الراهب ميخائيل، سيرة يوحنّا الدمشقي، طبعة الخوري قسطنطين الباشا؛ الأب خريسوستموس، الدمشقيّ اللاهوتيّ، ص ٩٤.

وعشرين عامًا. وجوهر هذه المسألة اعتراض بعض الفرق المسيحيّة على إقامة الصور وتكريمها في الدين المسيحيّ[1].

ويرى مؤرّخو الكنيسة أنّ بداية استعمال الصور في تكريم القدّيسين كانت على أيدي المسيحيّين الأوائل الذين هم من غير اليهود، وقد كرّم هؤلاء السيّد المسيح والقدّيسَين بطرس وبولس برسم الصور لهم وتعليقها في الكنائس. إلاّ أنّ المسيحيّين الذين هم من أصل يهوديّ، قد اعترضوا على هذا العمل، معتبرين أنّ منشأه وثنيّ. وبعد طيّ هذه المسألة لمدّة طويلة، عادت لتتفاعل في إسبانيا حيث حرّم مجمع محلّيّ إقامة الصور في الكنائس[2]. وفي قبرص، قام أحد كبار آباء الكنيسة الشرقيّة، وهو أسقف سلامينا أبيفانويُس (حوالى ٣١٥ ـ ٤٠٣) بمعارضة استعمال صور القدّيسين بشدّة[3]. ولم تتوقّف هذه الظاهرة طوال القرن السادس، على ما يبدو، من خلال المدوّنات التي تفيدنا عن أحداث متفرّقة في هذا المجال، مفادها أنّ بعض الأساقفة، إنْ في الشرق أم في الغرب، كان يعارض "التعبّد لِما هو من صنع البشر". بيد أنّ تلك الأحداث ظلّت محدودة حتّى مجيء الإسلام، وهو الدين الذي تنكّر للفنّ التصويريّ، وقد ذهب معظم الفقهاء إلى أنّ رسم الكائنات الحيّة من خصائص اللّه وحده. حتّى أنّ محمّدًا قال بأنّ "أشدّ الناس عذابًا عند اللّه يوم القيامة المصوّرون[4]".

ويبدو أنّ ظاهرة الاعتراض على استعمال الأيقونات كانت قد تفشّت في منتصف العهد الأمويّ، وقد كان للمعتقد الإسلاميّ أثر في تفشّيها دون شك. وقد يكون هذا

---

١ ـ راجع الجزء التاسع من هذه الموسوعة.

٢ ـ هو مجمع ELVIRA، راجع: MANSI, *CONSTITUM LIBERITANUM*, XXXVI.

٣ ـ BAYNES N. H., *IDOLATRY AND THE EARLY CHURCH*, BYZ. STUDIES, PP. 127 - 128

٤ ـ البخاري، الجامع الصحيح، نشر بولاق (١٢٩٦) ٧: ٦١.

التقشّي سببًا رئيسيًا في جعل الأمبراطور البيزنطيّ لاون الأيصوريّ (أمبراطور ٧١٦ ـ ٧٤٠) الذي كان يُحسن العربيّة، يشجّع رافضي الأيقونات على تحطيمها[١]، مُشعلاً بذلك ما يشبه الحرب في الكنيسة.

في الوقت نفسه، كان الخليفة الأمويّ يزيد الثاني (٧٢٠ ـ ٧٢٤) يتابع سياسة سلفه الأسبق عبد الملك بن مروان (٦٤٦ ـ ٧٠٥) فيأمر بتحطيم الأيقونات والصور والصلبان في المعابد والبيوت وحيث وُجدت[٢].

إنطلقت شرارة حرب الأيقونات بين المسيحيّين من NOCOLIA و SYNNADA التابعتَين للقسطنطينيّة. فبينما قال أسقف الأولى بوجوب التخلّص من الأيقونات والصور، وهو الأمر الذي كان يجري في البلدان الواقعة تحت السيطرة الإسلاميّة بأمر من الخليفة، قام متروبوليت SYNNADA معترضًا. وتطوّر الأمر إلى أن وقف فريق مع الأسقف ومبدأ تحطيم الأيقونات، وكان من جملة هذا الفريق الأمبراطور نفسه، ووقف فريق آخر مع المتروبوليت[٣]. وانتقل الخلاف إلى العامّة عندما أمر الأمبراطور سنة ٧٢٧ بإنزال أيقونة السيّد المسيح من مكانها فوق أحد مداخل القصر، فاضطرب سكّان العاصمة، وهجم بعضهم محاولاً منع إنزال الأيقونة. وإذ صدّهم الجند، تعارك الفريقان، ما أسفر عن سقوط عدد من الضحايا وإلقاء القبض على مَن طالتهم يد السلطة من المتظاهرين، وقد جُلد وشُوّه بعضهم، وتمّ نفي بعضهم الآخر[٤]. كذلك

---

١ - DIEHL C., *LEO III AND THE ISAURIAN DYNASTY*, CAM. MED. HIST. IV: 1 - 26.

٢ ـ راجع: المقريزي، الخطط ٢: ٤٩٢ ـ ٤٩٣؛ أبو الفرج الملطي، مجموعة المشرق (١٩٤٩) ص ٤٨٤؛ THEOPHANES, *CHRON.* A. 6125; MANSI, XII, COL. 197

٣ - OSTROGORSKY G., *LES DÉBUTS DE LA QUERELLE DES IMAGES*, P. 238.

٤ - THEOPHANES, *CHRON.* A. 6218 - 6221.

تصدّى لقرار الأمبراطور أساتذة جامعة القسطنطينيّة التي دفعت ثمن غضبه غاليًا إذ أمر، بحسب بعضهم، بإقفالها، أو بإحراقها، كما يذكر بعض المؤرّخين[1]. وطال الانشقاق الجيش البيزنطيّ نفسه، الذي سقط منه عدد من القادة، إذ أمر الأمبراطور بذبحهم بسبب قيادتهم فرقًا حاولت الانقضاض عليه لوقفه عن تدمير الأيقونات. وعبثًا حاول لاون بالتهديد والوعيد الحصول على تأييد أيٍّ من بابا روما غريغوريُس الثاني، أو بطريرك القسطنطينيّة جرمانُس، اللذَين أنذرا المؤمنين بعدم الانصياع للأمبراطور، حتّى غدا الصراع واضحًا بين السلطتَين الروحيّة والزمنيّة، إذ كان الأمبراطور يعتبر نفسه رئيسًا للشعب، وللكنيسة، ولكنّ موقف الكنيسة الجامع، قد خيّبه، ما جعله يصعّد حربه، داعيًا المجلس الأعلى للدولة المؤلّف من مجلس الشيوخ وكبار رجال الدولة والكنيسة، إلى اجتماع رسميّ في قصر دفنة في بداية العام ٧٣٠، محاولاً انتزاع موافقة الأعضاء على بيان أعدّه، يرسم تحريم الأيقونات. وإذ رفض البطريرك جرمانُس توقيع البيان، سارع الأمبراطور إلى تعيين أنسطاسيُس ألسنكلُس ليحلّ محلّه، وكان من الطبيعيّ أن ينفّذ هذا الأخير رغبة الأمبراطور، من خلال دعوة المجمع القسطنطينيّ إلى الانعقاد وتحريم الأيقونات. وهذا ما جعل روما تحتجّ، ممّا تسبّب في ظهور شرخ بين الكنيستَين[2].

سقط بنتيجة تشدّد الأمبراطور والبطريرك عدد كبير من ضحايا اضطهادهما لرافضي تحريم الأيقونات بين شهداء ومشوّهين ومعذّبين ومنفيّين. حتّى أنّ سكّان القسطنطينيّة نفسها قد لجأوا إلى الفرار منها جماعات تلو الجماعات، مفضّلين التهجير على التنكّر لمقدّسات في عرفهم.

---

١ ـ المرجع السابق.

DUCHESNE, *LIBER PANTIFICALIS*, I: 408 - 409. ـ ٢

أمّا الكنيسة القبطيّة فكانت من الكنائس التي عارضت محاربي الأيقونات بشدّة. ويستشهد منظّروها للدلالة على صحّة موقفهم، بما قاله يوحنّا الدمشقيّ في دفاعه عن تعليم الكنيسة في إكرام الأيقونات، في المَجمع المسكونيّ السابع في نيقية عام ٧٨٧، وممّا جاء:

إنّ اللّه قد وضع لليهود هذه الشريعة وهذه الوصيّة الثانية من الوصايا العشر القائلة: لا تصنع لك صنمًا أو تمثالاً أو منحوتًا... لأنّهم كانوا سريعي السقوط في عبادة الأصنام. أمّا نحن الذين أُعطيت لنا نعمة الإيمان ونعمة الاتّصال باللّه بعد أن هجرنا البدع الخرافيّة وعرفنا الحقيقة فيختلف الأمر معنا عن اليهود. وفوق هذا فنحن قد حصلنا من اللّه على مقدرة تحكيم العقل وأصبحنا نعرف ما هو الذي يمكن تصويره وما هو الذي لا يمكن التعبير عنه بالصورة والرسم. نعم إنّ "اللّه لم يره أحد" وإنّه ليس بالإمكان التعبير عن غير المنظور بالأيقونة ولا الوصول إلى إدراك غير المدرك، ولا رسم الذي لا يُعرف طوله ولا عرضه ولا حجمه لأنّه غير محدود.... من البديهيّ مثلاً أنّك عندما تشاهد مَن لا جسم له قد اتّخذ جسدًا لأجلك أن تصوّر شكله البشريّ، وعندما ترى غير المنظور صار منظورًا بالجسد أن ترسم بالأيقونة صورة مَن أصبح موضوعًا للنظر واللمس والسمع، وعندما ترى "اللّه آخذًا صورة عبد وصائرًا على شبه الناس" لا تتأخّر بالطبع عن أن ترسم على الألواح صورته ليشاهد الناس الآتون بعدك ذاك الذي تنازل وقبل أن يراه الناس. أجل إرسم تنازله الذي لا يعبَّر عنه بالكلام وحده. صوِّر ولادته من عذراء في مغارة، ومعموديّته في الأردنّ، وآلامه وصلبه الخلاصيّ، ودفنه وقيامته وصعوده إلى السماوات. ولا تبخل أن تنقل هذه الأمور إلى إخوانك بني الإنسان إمّا بالكلام وإمّا بالرسم ليحيّوا مَن رُسم عليها ويسجدوا للشخص الممثّل فوقها... إنّ الأيقونات هي وسيلة شريفة للتذكير. فكما أنّ الكتاب يذكّر المتعلّمين الذين يطالعونه، هكذا تذكّر الأيقونات الذين ينظرون إليها باحترام من غير المتعلّمين، وكما أنّ الكلام يؤثّر في السمع، هكذا تؤثّر الأيقونة في البصر ويتمّ الإدراك في كلا الأمرين عقليًّا.

وممّا ورد في المجمع السابع:

.. ولكنّنا في تكريمنا وسجودنا للأيقونات لا نسجد للألوان ولا للخشب أو غير ذلك من الموادّ المصنوعة منه، ولكنّنا نمجّد بالتكريم الكائنات المقدّسة الذين تمثّلهم هذه الأيقونات فنتصوّر حضورهم بأذهاننا كأنّنا نراهم بأعيننا... وإنّنا نطلب المعونة من اللّه ومن القدّيسين، ولكن ليس بأسلوب واحد... إنّنا نتوجّه إلى اللّه قائلين بكلّ خشوع: إرحمنا واصغ إلينا يا ربّ. وأمّا القدّيسين فنبتهل إليهم قائلين: تشفّعوا فينا وصلّوا لأجلنا[1]....

في النهاية، كان لموقف الأمبراطور من الأيقونات مردودًا عكسيًا من الخلافة الأمويّة. ففي الوقت الذي كان الأمبراطور يقف موقف المسلمين من الصور، وكان من المفروض أن تدعمه الخلافة في إجراءاته، شاءت الأقدار أن يتسنّم الخلافة في هذه الحقبة هشام بن عبد الملك (٦٩٠ ـــ ٧٤٣) الذي ارتاح لمعارضة كنائس أنطاكية وأورشليم والإسكندريّة للأمبراطور البيزنطيّ، فرخّص لها بإقامة البطاركة من جديد[2].

إلاّ أنّ وضع الكنيسة في نهاية العهد الأمويّ لم يكن على الشكل الذي أراده هشام. فإنّ الخليفة الوليد الثاني (٧٤٣ ـ ٧٤٤) غضب على قادة الكنيسة الذين "تخاصموا وتغالبوا في المناظرة بينهم وبين علماء المسلمين" فأمر بقطع لسان البطريرك الأنطاكيّ إسطفانس الذي انتُخب في عهد هشام، وبقطع لسان متروبوليت دمشق بطرس، ولم ينجُ من الآباء الكبار سوى المونوفيزيّين، وأصحاب الرأي المستقيم البعيدين عن يد الخليفة، ومنهم الذين كانوا يتّخذون من الجبال اللبنانيّة معقلاً لهم.

---

١ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ٤٢ ـ ٤٣.

٢ ـ راجع: THEOPHANES, *CHRON*, A. 6234.

وهكذا، فعندما جاءت الثورة العبّاسيّة على الأمويّين، لم يكن وضع الكنيسة في المنطقة مرتاحًا. وكان على أنطاكية بطريرك اسمه ثيوفيلكتُس بن قنبرة الصائغ الرهاويّ، وهو "كاهن أرثذوكسيّ أوعز مروان الثاني بانتخابه[1]". وانتهى العهد الأمويّ بثورة دمويّة، بينما كانت حرب الأيقونات لا تزال تتفاعل في الشطر الآخر من الشرق في عهد قسطنطين الزبليّ (٧٤٠ ـ ٧٧٥) الذي خلف لاون.

١ ـ رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، مرجع سابق، ٢: ٩١.

الفَصلُ الثّالث

كَنيسَةُ مِصر
في العَهدَين العبّاسي والفَاطِمي

فِي العَهد العبّاسيّ؛ ثَورةُ البشموريّين والتمرّدُ القبطيّ؛

تشدُّد العبّاسيّين؛

في العَهدِ الفَاطِميّ؛

تعريبُ مصرَ الثقافيّ والفِكريّ؛ صُمُود القُبط في مَسيحيّتِهم.

فِي العَهد العبَّاسيّ

فرض العبّاسيّون، في بداية عهدهم، التدابير الصارمة على المسيحيّين. وإذا كان هؤلاء قد تحمّلوا تلك التدابير، فلم يكن ذلك إلاّ بحكم أنّهم مغلوب على أمرهم. ولقد حاول بعضهم التمرّد حيث أمكن، مثلما حصل في لبنان في العام ٧٥٩، عندما شبّت أولى الثورات المسيحيّة ضدّ الحكم الإسلاميّ في قرية صغيرة من أعالي لبنان، إسمها المنيطرة، القريبة من أفقا، الواقعة بين جبيل ساحلاً وبعلبكّ شرقًا[١]. أمّا في مصر، فكانت ثورة البشموريّين.

ثَورَةُ البشموريّين والتمـرّدُ القبطـيّ

بشمور، هي أرض تحيط بها المستنقعات، تقع في مصر بين الإسكندريّة ورشيد، قرب بحيرة "أدكو"، كان يقطنها مسيحيّون، نُسبوا إليها، فعُرفوا بالبشموريّين. أمّا أصل هذا الشعب فيُقال إنّه من سلالة أربعين يونانيًّا بقوا في مصر بعد الفتح الإسلاميّ، فانعزلوا في تلك المنطقة الحصينة بالمستنقعات، حيث راحوا يزاولون زراعة الغابات وإنتاج ورق البردى[٢].

---

١ ـ راجع: الجزء الرابع عشر من هذه الموسوعة.

٢ ـ إبن بطريق، كتاب التاريخ، تحقيق ونشر الأب شيخو، ص ٥٧.

البشموريّون هؤلاء، أطلق عليهم بعض المحدثين المسيحيّين، ومن بينهم ابن البطريق، اسم "البياماي". ولا نعلم سبب هذه التسمية وأصلها. وكانوا يشكّلون مجموعة إتنيّة داخل الطائفة القبطيّة في مصر.

يبدو أنّ العرب قد اعتبروا هؤلاء البشموريّين المتحدّرين من أصل يونانيّ، وكأنّهم أعداء، فعاملهم العبّاسيّون معاملة في غاية القسوة، فقد "ربطوهم بسلاسل إلى المطاحن، وضربوهم بشدّة ليطحنوا الغلال كما تفعل الدواب سواء بسواء. وقد اضطرّ البشموريّون أن يبيعوا أولادهم ليدفعوا الجزية ويتخلّصوا من آلام العذاب[1]". وهكذا، فعندما لاحت بوادر تمرّد مسيحيّ قبطيّ في مصر على الحكم الإسلاميّ، في عهد العبّاسيّين، كان البشموريّون على استعداد للقتال في أشدّ معانيه.

كان الأقباط قد قاموا بحركة تمرّد في نهاية العهد الأمويّ، عندما حاولوا الامتناع عن دفع الجزية، وقد ترجموا هذا الرفض بأعمال مقاومة ضدّ موظّفي الدولة التي أحبطت هذا التمرّد سنة ٧٣٩. وفي بداية العهد العبّاسيّ، هدأ الأقباط، إذ خفّض العبّاسيّون مستوى الجزية. ولكنّ هذا التساهل لم يدم طويلاً، إذ لم يمضِ عقدان على العهد الجديد، حتّى عادت الضرائب القاسية لتثقل كواهل مسيحيّي مصر، فكان التمرّد الثاني سنة ٧٧٣، الذي أخمده العبّاسيّون بسرعة، وخضع الأقباط للحكم الإسلاميّ بعد ذلك ما يقارب الستّين سنة، حتّى نشبت كبرى ثوراتهم سنة ٨٣١ في عهد خلافة المأمون. "وقد سالت فيها الدماء وترتّبت عليها نتائج رهيبة. انضمّ عدد كبير من المسلمين إلى النصارى في ثورتهم... فأخرجوا العمّال وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمّال السلطان، فيما كانت بينهم وبين عساكر

---

١ ـ ساويروس بن المقفع، تاريخ بطاركة الإسكندريّة، نشر SCYBOLD (بيروت) ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

الفسطاط[1] حروب[2]. وفيما اعتبر بعض المحقّقين أنّ البشموريّين قد انضمّوا إلى هذه الثورة بفعاليّة، قال سواهم بل إنّهم كانوا أوّل مَن قام بإعلان الثورة ضدّ جباة الضرائب، وإنّهم كانوا أكثر توحّشًا وتعنّتًا من سائر سكّان مصر.

الثابت أنّ البشموريّين قد "قاموا بالثورة ضدّ والي مصر العبّاسيّ عبد الملك[3]، وكان يقودهم مينا بن بكيرة، وقد انضمّوا إلى أهل "شبرا سنباط"، واستولوا على هذه الناحية، ورفضوا أن يدفعوا الجزية للحاكم وللقائم العامّ على شؤون الضريبة. وقد سار إليهم عبد الملك على رأس جيش، ولكنّه لاذ بالفرار بعد مذبحة كبيرة. ثمّ عاد فأرسل إليهم جيشًا وأسطولاً ولكنّهما باءا بالفشل الذريع[4]".

ليس بوسع المراقب إلاّ أن يتوقّف عند أهميّة هذه الثورة التي استدعت حضور الخليفة العبّاسيّ شخصيًّا إلى مصر في محاولة لإخمادها. وممّا يدلّ على مدى خطورة تلك الثورة، أنّ المأمون (خليفة ٨١٣ ـ ٨٣٣) لدى حضوره إلى مصر، عرض على

---

١ ـ **الفسطاط**: أوّل مدينة أسّسها العرب في مصر بالقرب من بابليون على الضفّة الشرقيّة للنيل، بناها عمرو بن العاص نحو ٦٤٣ وأقام فيها مسجدًا، هجرها العبّاسيّون ثمّ الطولونيّون دون أن تتلاشى أهميّتها، كانت في العهد الفاطميّ من مدن الإسلام الزاهرة، اشتهرت في القرن الثالث عشر بمعامل النحاس والورق والزجاج، نُقلت بقاياها لبناء القاهرة بعد أن قضى عليها الوباء والمجاعات، عادت إليها الحياة في عهد صلاح الدين الأيّوبي وأصبح مسجدها مركزًا هامًّا للدراسات الدينيّة حتّى كان طاعون ١٣٤٨ فبدأت بالتدهور.

٢ ـ المقريزي، المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار، طبعة بولاق، ١: ٧٩ ـ ٨٩.

٣ ـ **عبد الملك بن يزيد الخرساني** (ت ٧٧٧) كنوته أبو عون، قائد عبّاسيّ من الولاة، هزم عثمان بن سيفان في شهرزور سنة ٧٤٩، اشترك في معركة الزّاب سنة ٧٠٥ وتعقّب مروان الثاني حتّى قتل، ولّي مصر مرّتين ثمّ خرسان ٧٧٦.

٤ ـ تاريخ ميخائيل السوريّ، ترجمة "شابو" عن اللغة السريانيّة، (باريس،١٩٠٥) ٣: ٨٣.

الثوّار عفوًا عامًّا إذا هم هدأوا[1]. وقد لجأ إلى بطريرك الأقباط "ديونيسيوس" في "تلّ مهرة" ليقوم بمهمّة "سفير" بين الخليفة والبشموريّين، ولكنّ الخليفة اشترط أن ينتقل هؤلاء من بشمور ومستنقعاتها ليسكنوا في أماكن أخرى. إلاّ أنّ البشموريّين، رفضوا الاستسلام، رغم ضآلة إمكاناتهم القتاليّة ضدّ أقوى أمبراطوريّة كانت تسيطر على الشرق في ذلك التاريخ. وهذا ما دفع المأمون العبّاسيّ إلى شنّ حملة عنيفة كبرى عليهم، سحقتهم سحقًا، وقتلت منهم عددًا كبيرًا، ونُفي الناجون منهم إلى أنطاكية ومنها إلى بغداد، وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف. وقد مات بعضهم في الطريق. أمّا الذين أُسروا خلال القتال، فقد سيقوا عبيدًا ووُزّعوا على العرب. وبلغ عدد هؤلاء حوالى خمسماية نسمة أُرسلوا إلى دمشق وبيعوا في سوق الرقيق.

سُجن البشموريّون الأقباط في بغداد طوال عهد المأمون، حتّى جاء عهد أخيه إبراهيم، فأفرج عنهم، فعاد بعضهم إلى مصر وبقي الآخرون في بغداد حيث يُعرفون حتّى الآن بالبشموريّين. وبذلك أطفأ المأمون نهائيًّا جذوة ثورة الأقباط في مصر، وقد ذكر مؤرّخو الحقبة أنّه "من حينئذ، أذلّ اللّه القبط في جميع أراضي مصر، وخذل شوكتهم. فلم يقدر أحد منهم على الخروج ولا القيام على السلطان[2]".

---

١ ـ جاء في بعض الدراسات زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٥٢، أنّ ثورات حصلت في عهد الخليفة العبّاسيّ المأمون الذي اضطرّ أن يحضر بنفسه على رأس قوّة إلى مصر للقضاء على ثورة الأقباط التي اشتعلت عام ٨٣١م. فقتل الرجال وسبى النساء والأطفال. ومنذ ذلك الحين أخلد الأقباط إلى السكينة، ولم تقم لهم قائمة. وبدأت تظهر شخصيّة مصر الإسلاميّة، خاصّة في عهدَي الطولونيّين والإخشيديّين، إلى أن أصبحت مركزًا للخلافة الشيعيّة في عهد الفاطميّين، وللدولة السنّيّة في عهد المماليك.

٢ ـ المقريزي، خطط ص٧٩ ـ ٨٠.

تشـــدُّد العبّاسيّين

إنّ المدقّق فـي أخبار الخلفـاء العبّاسيّين والعهد العبّاسـيّ عمومًـا، يستخلص من تناقض المدوّنات عن معاملة العبّاسيّين للمسيحيّين، أنّ العبّاسـيّين فـي بدايـة ملكهم، قد حاولوا استمالة الفعاليّات المسيحيّة إليهم، في غمرة الغليان الـذي عـمّ المنطقـة بكاملهـا، من فلسطين إلى الفـرات، حيـث عـمّ الاضطـراب بسـبب انتقـال السلطة مـن الأمويّيـن ودمشق، إلى العبّاسيّين والعراق. وإنّ تقريـب بعـض الشـخصيّات المسـيحيّة مـن بـلاط الخلفاء، لم يكن ليعوّض، أدنـى تعويـض، عـن التشـدّد الـذي مارسـه العبّاسـيّون ضـدّ المسيحيّة. ولا يمكن إغفال الفرق فـي هـذا الشـأن بيـن خليفـة وآخـر، كمـا يلاحـظ مـن بعض الوقائع، خاصّة وأنّ بعض هؤلاء الخلفاء كـان ليّـنًـا منفتحًـا متسـامحًا، وبعضهـم الآخر كان قاسيًا متشدّدًا[1]. من الأمثلة على ذلك التشدّد ما أعاده هارون الرشيد، الخليفة العبّاسيّ الخامس (٧٨٦ ـ ٨٠٩) من مفاعيل بعض الإجراءات التي وضعهـا عمـر بـن عبد العزيز ضدّ النصارى واليهـود. "وفـي سـنة ٨٠٧ أمـر بهـدم جميـع الكنـائس التـي كانت قد بُنيت قبل الفتح الإسلاميّ، مقلّدًا بذلك المهـديّ، وسـنَّ كذلـك قانونًـا أوجـب بـه على جميع الذمّيّين أن يلبسوا المعيّن[2]". وكما فعل هارون الرشيد، قام الخليفة العبّاسـيّ العاشر: المتوكّل (٨٢١ ـ ٨٦١) بإعادة شرعة التمييز البشريّ، عن طريق إحياء تنفيـذ الإجراءات العمريّة التي أتبعها بتدابير جديدة، كانت أشدّ ما فُرض بحقّ الأقليّـات علـى الإطـلاق. فقد أجبر النصـارى واليهـود علـى أن يجعلـوا علـى بيوتهـم تمـاثيل خشـبيّة للشـياطين، وأن لا يرفعوا سطوح قبورهم عن مستوى سـطح الأرض، وأن يرتـدوا

---

١ ـ راجع: الجزء التاسع من هذه الموسوعة.

٢ ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ص ١٤١.

معاطف عسليّة اللون لتدلّ على هويّتهم الدينيّة، وأن يجعلوا على كلّ من الكمّين رقعتَين عسليّتَين تخاط إحداهما من أمام والثانية من وراء، وأن لا يركبوا إلاّ البغال والحمير على سرج من خشب له على قربوسيه كرتان خشبيّتان كأنّهما رمّانتان. فصار الذمّيّ يُسمّى بسبب هذه الملابس الخاصّة بالأرقط. ثمّ إنّ القضاة المعاصرين عمدوا إلى اعتبار شهادة اليهوديّ والنصرانيّ على المسلم غير مقبولة، بناءً على الآية القرآنيّة[1] التي تتّهم اليهود والنصارى بتحريف الكتاب المقدّس[2]. وكانت نتيجة هذه التشريعات وقوع تعدّيات عديدة على المسيحيّين.

تلك التدابير التمييزيّة كانت تقسو وتلين، إلاّ أنّ تدبير دفع ضريبة الجزية الذي كان يشكّل أكبر حيف لحق بالذمّيّين، كان ثابتًا.

١ ـ سورة البقرة: ٧٠؛ سورة المائدة: ١٦ ـ ١٨.

٢ ـ حتّي د. فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة د. كمال اليازجي، مراجعة د. جبرائيل جبّور، دار الثقافة (بيروت، ١٩٥٩) ٢: ١٦٨ ـ ١٦٩، بالاستناد إلى: الطبري، ٣: ١٣٨٩ ـ ١٣٩٣؛ الجاحظ، البيان، ١: ٧٩، س ٢٨.

فِي العَهدِ الفَاطِمِيّ

كان الطولونيّون أوّل من أنشأوا دولة إسلاميّة استقلّت في مصر والشام (٨٦٨ ـ ٩٠٥). أسّسها أحمد بن طولون[١]، والـي مصر من قبل الخليفة العبّاسيّ سنة ٨٦٨، فضبط أحوالها. ثمّ أظهر الاستقلال سنة ٨٧٨. وورث بنوه دولته المصريّة وألحقوا بها الشام. وقد شيّد أحمد مدينة "القطائع" ومسجدها الكبير. وخلفه ابنه "خمارويه" سنة ٨٨٤، فوسّع نطاق دولته، وتزوّج ابنة الخليفة العبّاسيّ المعتضد. خلفه ابنه "أبو العساكر جيش" سنة ٨٩٦، ثمّ "أبو موسى هرون بن خمارويه" سنة ٨٩٦، فـ"أبو المناقب شيبان بن أحمد" آخر سلالة الطولونيّين سنة ٩٠٤، وقد سلّم لمحمّد بن سليمان قائد المكتفي العبّاسي سنة ٩٠٥. وليس في المدوّنات ما يفيدنا عن أيّ تبدّل في أوضاع أقباط مصر في خلال العهد الطولونيّ القصير، ولا في العهد الأخشيديّ الذي أعقبه بين ٩٣٥ و٩٦٨. وهو العهد الذي أنهاه الفاطميّون باستيلائهم على مصر سنة ٩٦٨، سوى أنّ مجتمع مصر كان يدور، في خلال الحقبتَين، في الفلك الإسلامي المتشدّد، وأنّ شخصيّة مصر الإسلاميّة قد بدأت تظهر في تلك الحقبة[٢].

أنهى الفاطميّون حكم الإخشيديّين باجتياحهم مصر بقيادة "جوهر الصقلّي" سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨ م.، الذي سرعان ما وجّه جيشًا إلى بلاد الشام بقيادة "جعفر بن فلاح الكتامي"، ولم يمضِ زمن طويل حتّى كان الفاطميّون قد احتلّوا دمشق بالقوّة،

١ ـ طولون: جدّ الطولونيّين، كان مملوكًا تركيًا من بخارى، أُهدي إلى الخليفة العبّاسيّ المأمون، لصبح قائد حرس الخليفة العبّاسيّ المعتصم.

٢ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق.

وعيّنوا "ريان الخادم" حاكمًا على طرابلس، و"ابن الشيخ" على صيدا، وهو رئيس المغاربة، و"ظالم بن موهوب على بعلبك".

عندما مات الخليفة الفاطميّ الخامس العزيز بالله سنة ٦٦٩، كان عمر ابنه البكر، منصور، إحدى عشرة سنة وستّة أشهر، فتولّى الوصاية على منصور الذي سيصبح الخليفة الفاطميّ السادس باسم الحاكم بأمر الله، أستاذه ومربّيه "أرجوان الخادم"، فقام بأمره، وبايع له، وأخذ له البيعة على النّاس. في هذه الأثناء بلغت الخلافة الفاطميّة دركًا سيئًا من التردّي بسبب سيطرة قبائل البربر على الحكم، "فانبسطت كتامة[1] في البلاد وحكموا فيها ومدّوا أيديهم على أموال الرعيّة وحريمها، وأرجوان مقيم مع الحاكم في القصر يحرسه"[2]، ولم تنفع محاولاته للحدّ من الفوضى والثورات والإنتفاضات في أرجاء الأمبراطوريّة الفاطميّة. فقد استطاع شيخ كتامة وسيّدها: الحسن بن عمّار، أن يحكم أفريقيا بأمره بعد أن لقّب نفسه بأمين الدولة، وهو أوّل من تلقّب في دولة الفاطميّين. و"لو لم يحتقر ابنُ عمّار عُمْرَ الخليفة الفاطميّ الجديد، ذلك الصبيّ ذي السنوات الإحدى عشرة، لكان قتله"، فلقد كان متأكّدًا من أنّه لن تقوم لذلك الطفل قائمة، ومن أنّ الخلافة لن تكون إلاّ لكتامة بعد ذلك اليوم. وراح ابن عمّار يستعمل الولاة على المناطق إلى أن دبّت الفوضى في مصر نفسها، لا بل في قصر الخلافة بالذات بين أرجوان وجماعته من جهة، وابن عمّار وأنصاره من جهة ثانية.

يبدو أنّ الحاكم عندما بلغ الخامسة عشرة من عمره، قد ضاق ذرعًا بأرجوان ونصائحه وطريقة معالجته للأحكام، فبادر إلى قتله سنة ٣٨٩هـ./ ٩٩٨م.، واستوزر

---

١ ـبنو كتامة: قبائل بربريّة، ناصرت الفاطميّين في القضاء على الأغالبة في المغرب خلال القرن العاشر، اعتنق أهلها مذهب الشيعة الذي نشره بينهم أبو عبدالله الشيعي.

٢ ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، طبعة دار صادر (بيروت،١٩٨٢) ٩: ١١٨ ـ ١١٩.

نصرانيًا كان يعمل مساعدًا لأرجوان اسمه "فهد بن ابراهيم"، وجعل "الحسين بن جوهر" مكان أرجوان ولقّبه بقائد القوّاد وأمره بقتل "الحسن بن عمّار"، ثمّ أمر بقتل الحسين بن جوهر الذي قتل بن عمّار، ولم يزل يقيم الوزير بعد الوزير وهو بعد في الخامسة عشرة من عمره حتّى أمسك بزمام الخلافة. وعندما اختفى الحاكم سنة ١٠٢٠م. وهو في السابعة والثلاثين، كان في غضون اثنتَين وعشرين سنة من الحكم قد أحدث على كامل أراضي الخلافة وفي مختلف مجتمعاتها ما لم يكن في الحسبان.

قسّم دارسو الحاكم شخصيّته إلى أربعة أطوار:

الأول: من سنة ٣٨٦هـ./ ٩٩٦م. إلى سنة ٣٩٠هـ./ ٩٩٩م.، وفي هذه الحقبة لم يكن يملك من السلطان شيئًا.

الثاني: من سنة ٣٩١هـ./ ١٠٠٠م. إلى سنة ٣٩٥هـ./ ١٠٠٤ م.، حيث انتزع لنفسه سلطة كبيرة رغم صغر سنّه، أظهر في خلالها تعصّبًا شديدًا للمذهب الإسماعيليّ.

الثالث: من سنة ٣٩٦هـ./ ١٠٠٥م. إلى سنة ٤٠١هـ./ ١٠١٠م. حيث تخلّى عن سياسة التعصّب واتّبع سياسة التسامح مع جميع الأديان والطوائف.

الرابع: من سنة ٤٠٢هـ./ ١٠١١م. إلى سنة ٤١١هـ./ ١٠٢٠م. حيث تقلّبت شخصيّته في أطوار عدّة، ولكنّه في هذه المرحلة تمكّن من إقرار الأمن وقضى على الفوضى التي كانت سائدة في أوائل عهده[١].

هذا التقسيم، الذي جاءَ نتيجة تصرّفات الخليفة الفاطميّ السادس، من شأنه أن ينطبق على كبرى قراراته. ففي "حقبة التعصّب" انتهى عهد التسامح الذي عاش فيه

---

١ - ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٩: ١٢٠ - ١٢٣.

المسيحيّون واليهود طيلة العهد الفاطميّ الذي سبق الحاكم، إذ أجرى هذا الأخير عليهم التدابير المذلّة التي كان عمر بن عبد العزيز والمتوكّل قد فرضاها عليهم، "ثمّ أضاف إليها فنونًا أخرى من الإذلال، مع أنّ والدته ووزيره كانا مسيحيَّين. فقد زاد سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م. على القيود السابقة المتعلّقة بالملابس تمييزًا للذمّي عن المسلم، فأوجب على النصارى، متى دخلوا الحمّامات العامّة، أن يجعلوا في أعناقهم صلبانًا زنة الواحد منها خمسة أرطال (نحو كيلوغرامَين) على أن يرسلوها متدلّية على صدورهم؛ ورتّب على اليهود، في مثل هذه الحال، أن يجعلوا في أعناقهم إطارًا من الخشب بالوزن نفسه، شُدّت إليه الأجراس المجلجلة"[1]. وفي العام نفسه، أمر بهدم الكنائس. وعمد، تطبيقًا للنصوص القرآنيّة التي حرّمت الخمرة، إلى الأمر باقتلاع الكرمة، وهي في مصر من مزروعات المسيحيّين. أمّا مَن أبى الخضوع لهذه التدابير من أهل الذمّة، فقد خيّره بين اعتناق الإسلام والرحيل إلى بلاد الروم[2]. والظاهر أنّ عدد النصارى في مصر وسورية في عهد الحاكم، بعد النبيّ محمّد بنحو أربعمائة سنة، كان مساويًا لعدد المواطنين من المسلمين إن لم يفُقه. وبعد عشرين سنة، عمد ابن الحاكم وخلفه الملقّب بالظاهر، بموجب معاهدة عقدها مع أمبراطور الروم، إلى إعادة بناء الكنائس التي هُدمت، ومنها كنيسة القيامة في القدس، ومع ذلك فإنّ تهديم هذا الأثر من آثار المسيحيّة قد أسهم في حمل الغرب على تجريد الحملات الصليبيّة على الأرض المقدّسة"[3].

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢٢١ بالاستناد إلى: ابن خلّكان، ٣: ٥؛ سعيد ابن البطريق، ص ١٩٥؛ المقريزي، ٢: ٢٨٨؛ ابن حماد، ص ٥٤.

٢ ـ راجع: الأنطاكي يحيى بن سعيد، ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

٣ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢٢٢؛ راجع: الجزءين التاسع والحادي عشر من هذه الموسوعة.

لم تقتصر تصرّفات الحاكم المتناقضة على معاملة أهل الذمّة والرموز المسيحيّة، فهو أنشأ معهدًا للعلوم العالية في القاهرة، ولم يمضِ ثلاث سنوات حتّى هدمه وبطش بأساتذته. ووضع تشريعًا ضدّ الدعارة، وحظّر حتّى ظهور النساء في شوارع القاهرة. ثمّ إنّه سنّ قوانين منعَ بموجبها المآدب وحفلات الطرب، وحرّم بعض ألوان الطعام، كما حرّم لعب الشطرنج[1].

وكان اليعاقبة، في عهد الحاكم بأمره، قد شرعوا في تجديد كنيسة قديمة في مصر، وتحديدًا في "راشدة"، وبينما كان المؤمنون يجهدون في البناء هاجمهم جمهور من المسلمين وهدموا كلّ ما بُني. وقد سارع الحاكم إلى بناء مسجد على أنقاض الكنيسة. في الوقت نفسه استأنف العوام مهمّاتهم، برضى الحاكم طبعًا، فأقدموا على هدم كنيستَين قريبتَين من المكان نفسه، إحداهما لليعاقبة، والثانية للنساطرة، وبُني، مكانهما أيضًا مسجدان. وكان للملكيّين حارة بالقاهرة يسكنونها، فأمرت السلطات بإخراجهم منها، وهُدم ما كان لهم فيها من المنازل بالإضافة الى كنيستَين، وحُولت الحارة بأجمعها إلى مسجد كبير هو: المسجد الأزهر، وهجر المسيحيّون إلى المكان المعروف بالحمراء[2]. وفي الوقت نفسه كانت الأيادي تعمل، بأمر من الحاكم، في هدم كنيسة القنطرة بمصر، وهي الأخرى للملكيّين. وبعد أن نهبت تلك الأيادي كل ما كان فيها من كنوز ومقدّسات، إنتقلت لتعبث في المقابر المحيطة، مدافن النصارى، ففتحتها ونبشت رفات الموتى، وطرحت عظامهم في الخلاء لتأكل الكلاب لحم من دُفن قبل وقت قصير. وكان بجوار هذه الكنيسة بيعة لليعاقبة على إسم القديس "قوزما" فامتدّت إليها تلك الأيادي ونقضتها[3].

---

١ ـ المرجع السابق.

٢ ـ الأنطاكي يحيى بن سعيد، كتاب الذيل، ص ١٨٦.

٣ ـ المرجع السابق، ص ١٩٤ - ١٩٦.

وإذ لم يرَ الحاكم من قبَل النصارى رغبة في اتّباع المذهب الإسلاميّ الذي أسّسه ودعا إليه، شجّعهم على النزوح إلى حيث كان البيزنطيّون لا يزالون مسيطرين: إلى أنطاكية وشماليّ سورية ولبنان، وقد جاء هدم الكنائس وتشديد التدابير المذلّة للمسيحيّين على ما يبدو، ضمن تلك السياسة[1]. إلاّ أنّ قسمًا كبيرًا من هؤلاء قد أصرّ على الصمود في دياره، ما جعل الحاكم يصعّد في تلك التدابير، فأمر بمعاقبة كلّ من يصنع أيّ مقدار من النبيذ في محاولة لمنع ممارسة سرّ الأفخارستيّا. فداهم الجنود بيوت النصارى وحطّموا ما كان عندهم من خوابٍ وكؤوس، وحذّروا النصارى من تقديم النبيذ في قرابينهم، فراح هؤلاء يقرّبون، عوضًا عن النبيذ، ماء نُقع فيه عود الكرمة أو الزبيب[2].

في هذه الأثناء انقطعت الصلات بين كنيسة مصر وكنائس الشرق والغرب، إلاّ أنّ اليونانيّة بقيت تحتلّ مرتبة مرموقة في الكنيسة القبطيّة في مصر، رغم أنّ اللّغة القبطيّة كانت قد بدأت تحلّ محلّ اليونانية فيها، منذ القرن الخامس، والعربيّة منذ عهد حديث[3]، ولكن لن يمضي وقت طويل حتّى لا يعود من قبط مصر مَن يعرف القبطيّة أو الروميّة، ولتحلّ العربيّة مكانهما في كلّ مجال.

رغم تلك الظروف الصعبة وجد المسيحيّون في مصر وقتًا ومناسبة للاختلاف في ما بينهم، وكان موضوع الخلاف سنة ١٠٠٤ حساب عيد الفصح، فجعله البعض في يوم فصح اليهود يوم السبت في الخامس من نيسان (إبريل)، وقال آخرون إنّه يوافق

---

١ ـ راجع: رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، مرجع سابق، ٢: ٢٠٨.

٢ ـ الأنطاكي يحيى بن سعيد، مرجع سابق، ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

٣ ـ سير البطاركة، مخطوط باريس رقم ٢٠٠ – ٢٠١ ص ٣٠٢.

يوم الأحد في السادس من الشهر نفسه[1]. فكتب "أرسانيُس" بطريرك الإسكندريّة إلى أهل أورشليم بما صحّ عنده جاعلاً فصح النصارى يوم الأحد في السادس من نيسان (إبريل)، فكتب أهل الشام إلى مصر يتعارفون منهم ما اتّفقوا عليه، فلمّا وصلت كتب أرسانيُس عيّد جميع النصارى في يوم الأحد في السادس من نيسان (إبريل) باستثناء قوم من اليعاقبة المصريّين من أهل الصعيد، فإنّهم أصرّوا على أن يفصحوا يوم الأحد الذي يليه[2].

قبل أن يموت الحاكم، أو يختفي، بأربع سنوات ظهر في القاهرة في الثلاثين من أيّار (مايو) سنة ١٠١٧ "حمزة بن عليّ بن أحمد الزوزنّي"، وكان فارسيًّا أبصر النور في زوزن ثمّ هاجر إلى مصر والتحق بخدمة الحاكم وراح يدعو إلى التوحيد. وجاءت دعوة حمزة مختلفة عن دعوة الحاكم بأنّها لم تكن تكليفًا بل كانت تخييرًا[3]. وقد تمكّن حمزة، بما كان له من تأثير وسلطة على الحاكم، من إبطال التدابير التي كان هذا الأخير قد أصدرها ضدّ المسيحيّين واليهود، فرُفعت القيود التي فُرضت عليهم، وأُطلقت لهم الحريّة في إعادة بناء الكنائس وعودة مَن أسلم منهم إكراهًا إلى المسيحيّة، حتّى إنّ الحاكم قد أصدر المناشير بهذا الخصوص الى البطاركة[4]. وسوف يتعزّز وضع المسيحيّة، بعض الشيء، بعد انتقال الخلافة الفاطميّة إلى الظاهر بن الحاكم (١٠٢١ ـ ١٠٣٦) الذي عادت معه سلطة السيّدة "ست المُلك[5]" إلى سابق عزّها. وما

١ ـ الإنجيل المقدس، مخطوط أوكسفورد هانت، ١١٨.

٢ ـ الأنطاكي يحيى بن سعيد، مرجع سابق، ص١٩٢ ـ ١٩٣.

٣ ـ رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، مرجع سابق، ٢: ٢٠٨، بالاستناد الى: عمدة العارفين، ص٤٤ – ٤٧.

٤ ـ للاطّلاع على نصوص تلك المناشير: الأنطاكي يحيى بن سعيد، مرجع سابق، ص٢٣٠ ـ ٢٣١.

٥ ـ ستّ المُلك (ت ٤١٥ هـ/ ١٠٢٤م.): أخت الحاكم، أصبحت بعد اختفائه وصيّة على ابنه للظاهر أربع سنوات، اتّهمها البعض بتدبير اغتيال الحاكم، توفّيت بمصر.

أنّ تسنّم الظاهر، إبن الحاكم، كرسيّ الخلافة بعد موت أبيه، حتّى سارعت ستّ الملك إلى إيفاد "نيقوفُس"، بطريرك أورشليم، الى القسطنطينيّة، ليبلّغ الأمبراطور باسيليُس الثاني (٩٧٦ -١٠٢٥) بعودة الكنائس وتجديد كنيسة القيامة المقدّسة وسائر البيَع في جميع بلاد مصر والشام، ورجوع أوقافها إليها. واستقامت أمور النصارى[١]. إلاّ أنّ موت الحاكم لم ينه الممارسات تمامًا ضد المسيحيّين. ففي عهد خليفته الأول: الظاهر (١٠٢١ ـ ١٠٣٦) وهو الخليفة الفاطميّ السابع، تقرّر بناء سور لمدينة القدس "فخرّب المتولّون لعمله كنائس كثيرة في ظاهر المدينة، وأُخذت حجارتها، وعولّوا على نقض كنيسة صهيون وكنائس غيرها ليحملوا حجارتها إلى السور"[٢]. ولم يتمّ إعادة بناء كنيسة القيامة إلاّ في عهد الخليفة الثامن: المستنصر باللّه (١٠٣٦- ١٠٩٤) الذي "هادن ملك الروم فاشترط عليه، هذا الأخير، أن يعمّر بيعة القيامة مقابل إخلاء الروم خمسة آلاف أسير، وقد أرسل ملك الروم مَن عمّرها وصرف عليها مالاً جزيلاً"[٣].

في هذه الاثناء كان أتباع حمزه بن علي يحاولون نشر تعاليم ملّتهم الجديدة. وقد كتب أحد هؤلاء: بهاء الدين المقتني (المتوفّي بعد سنة ١٠٤٢) رسائل لبثّ دعوته حتّى الهند والقسطنطينيّة قبل القرار بإقفال باب الدعوة. وقد جمع بهاء الدين في رسائله إلى المسيحيّين بين شخصيتيّ حمزه والمسيح، "وخاطب المسيحيّين في رسائل أخرى وجّهها إليهم بالقدّيسين، وبمجامع القدّيسين، راجيًا أن يحملهم بذلك على اعتناق تعليمه.

---

١ ـ الأنطاكي يحيى بن سعيد، مرجع سابق، ص٢٤٣ ـ ٢٤٤.

٢ ـ الأنطاكي يحيى بن سعيد، مرجع سابق، ص٢٧٢.

٣ ـ إبن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٩: ص١٥٩.

وكان يضرب من الأمثال ما هو من قبَل الوارِد في العهد الجديد من الكتاب المقدّس. وفي ذلك ما قد يشير إلى سابقِ صلة له بالتعليم المسيحي[1]".

تعريبُ مصْر الثقَافيِّ والفِكريّ

بنهاية العهد الفاطميّ الذي ترافق مع نهاية القرن الأوّل من الألف الثاني، بدت المسيحيّة في الشرق وكأنّها على مشارف المجهول. وقد ذكر باحثون[2] أنّه قد تلا الفتح العربيّ لمصر حركة تعريب دامت حوالى خمسة قرون، وقد اتّخذت الطابع الطوعيّ حيناً والقسريّ أحياناً، وتمثّلت بجملة متغيّرات كبرى أهمّها: الهجرات العربيّة إلى مصر، واستيطان الجماعات العربيّة الدائم فيها؛ إعتناق المصريّين الأقباط للدين الإسلاميّ؛ التحوّل عن اللغة القبطيّة، وتعلّم العربيّة.

بالنسبة للهجرات العربيّة إلى مصر، جاء أنّها بدأت قبل الفتح العربيّ، إذ شهدت البلاد، ومنذ القديم، في عهود الأسر الفرعونيّة، حركات استيطان على نطاق ضيّق من قِبَل جماعات ساميّة قدمت من أطراف شبه الجزيرة العربيّة، سواء عن طريق "أريتريا[3]" أو عن طريق صحراء سيناء. ومع قيام الحكم الفارسيّ، ثمّ اليونانيّ والرومانيّ، نمت علاقات قبطيّة ـ عربيّة، إنْ بفعل توسُّع الأمبرطوريّتَين اليونانيّة

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢١٧ ـ ٢١٨ بالاستناد الى: SYLVESTRE DE SACY, *EXPOSÉ DE LA RELIGION DES DRUZES* (PARIS,1838) VOL. I., P. 83, N.1

٢ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٥٣.

٣ ـ أريتريا: من مقاطعات الحبشة على البحر الأحمر، منطقة زراعيّة يسكنها رعاة من أصول حاميّة، احتلّها البريطانيّون ١٩٤٠، انضمّت إلى الحبشة ١٩٥٢، استقلّت وأصبحت جمهوريّة ١٩٩٣ بعد ثورة استمرّت قرابة ثلاثين سنة.

والرومانيّة في شرق البحر الأبيض المتوسّط، أو بفعل الازدهار التجاريّ للدويلات العربيّة التي قامت في شمال شبه الجزيرة العربيّة، كدولة الأنباط التي تأسّست في القرن السادس، وكمملكة تدمر التي ازدهرت في عهد ملكيها أذينة، ثمّ زنّوبيا في القرن الثالث الميلادي. هذه العلاقات قد سهّلت تمركز بعض القبائل العربيّة في الأطراف الشرقيّة لمصر، وفي منطقة الدلتا. كما أقطع حاكم مصر الرومانيّ بعض مسيحيّي غسّان العرب منطقة في "تنيس"، وبالقرب منهم جماعات أخرى من قبيلتَي جزام ولخم المسيحيّتَين. هذا قبل الفتح العربيّ لمصر، أمّا بعده، فقد شهدت البلاد مرحلة جديدة نشطت فيها هجرات القبائل العربيّة القادمة من شبه الجزيرة العربيّة، بدأت مع الفتح العربيّ في القرن السابع، وتوالت باضطراد حتّى القرن الثالث عشر، إذ بعد هذا التاريخ لم تعد البلاد تُحكم من قِبَل حكومات عربيّة.

تلك الموجات المتتالية يمكن حصرها في موجات رئيسيّة أهمّها: الموجة الأولى: وقد تشكّلت من الجماعات العربيّة التي اشتركت في فتح مصر، واستقرّت فيها؛ الموجة الثانية: جاءت واستوطنت في مصر وفق سياسة خطّط لها خلفاء الدولة الأمويّة لتعزيز واقع العرب في مواجهة ثورات الأقباط، ولصدّ الهجمات البيزنطيّة على المدن المصريّة الساحليّة؛ الموجة الثالثة: تمّت على عهد الخليفة العبّاسيّ المتوكّل (خليفة ٨٤٧ ـ ٨٦١) الذي اتّبع سياسة إفراغ مصر من الأقباط؛ الموجة الرابعة: حصلت خلال حكم الفاطميّين الشيعة لمصر لتدعيم مركزهم إزاء الخلافة السنّيّة؛ الموجة الخامسة: حصلت على شكل مكافآت ـ إقطاعات من أراضي مصر قدّمها صلاح الدين الأيّوبيّ (١١٣٨ ـ ١١٩٣) إلى بعض القبائل والعشائر العربيّة بسبب اشتراكها إلى جانبه في قتال الصليبيّين. وهي سياسة درج عليها الأيّوبيّون، كما حصل عندما كافأوا المعنيّين والشهابيّين في لبنان. ومن ضمن هذه الموجة الجماعات العربيّة والإسلاميّة

التي استقدمها المماليك لردّ الغزوات الصليبيّة عن مصر في القرنَين الرابع عشر والخامس عشر. وهكذا فإنّ الهجرات العربيّة إلى مصر، واستقرار القبائل في البلاد، وارتباطهم بالعمل الزراعيّ، شكّلت أهمّ العوامل العمليّة التي أدّت إلى صبغ البلاد بالصبغة العربيّة ابتداءً من القرن الرابع عشر للميلاد. وهذا الارتباط بالعمل الزراعيّ فرض بدوره نوعًا من التكامل بين الوافدين وبين الأقباط المزارعين، ولم يعد الأخيرون يشعرون بأنّ ثمّة امتيازات وخصائص تميّز العرب عنهم.

أمّا لجهة اعتناق المصريّين الأقباط للدين الإسلاميّ، ففي خلال القرون الخمسة الأولى الهجريّة، اعتنق غالبيّة الأقباط الدين الإسلاميّ تحت تأثير عوامل عديدة متشابكة. فعلى الرغم من صلابة الأقباط في الدفاع عن عقيدتهم المسيحيّة، دخل بعضهم الإسلام طوعًا بسبب ما كان يسود الأمبرطوريّة البيزنطيّة من البلبلة نتيجة الصراعات الحادّة بين المذاهب، غذّتها الكراهية للحكم البيزنطيّ. إنّ هذا الأمر كان يدركه جيّدًا عمرو بن العاص، فحاول استغلاله للتقرّب من الأقباط، فسمح بادئ الأمر لزعماء الكنيسة بإعادة بناء الكثير ممّا تهدّم من الأديرة والكنائس، وحتّى ببناء كنائس جديدة. وأقبل بعض الأقباط على الإسلام ليحقّق المساواة بالمسلمين، وليرفع عنه وطأة التمييز في شتّى المجالات، خاصّة في عهد الخليفة العبّاسيّ المتوكّل (خليفة ٨٤٧ ـ ٨٦١) الذي أجبر المسيحيّين على ارتداء ملابس خاصّة... وقد أمر بهدم كنائسهم وإبعادهم عن الوظائف، ومنع أولادهم من التعلّم في مدارس المسلمين. ومن الأقباط مَن اعتنق الإسلام نتيجة للنظم الضرائبيّة التي طُبّقت عليهم. فمن المعروف أنّ الجزية كانت تؤخَذ من غير المسلمين، وهي ثابتة ومعلومة لكنّها مرتفعة إلى درجة لم يتحمّل دفعها الأقباط الفقراء، فكان من جرّاء ذلك أن اعتنق الكثيرون الدين الإسلاميّ تخلّصًا من دفع الجزية. خاصّة لمّا أمر الوالي عبدالله بن عبد الملك بن مروان أن لا يُدفن

ميت منهم حتّى يقوم أهله بدفع الجزية. وقد كان مَن يدفع الجزية في مصر يوضع حول عنقه ختم من رصاص، دليلاً على أنّه قد دفع ما عليه. وهكذا فإنّ سياسة إسقاط الجزية عمّن أسلموا جذبت إلى الإسلام عددًا كبيرًا من الأقباط. لكن لمّا تشدّد الولاة في جمعها، وأبطلوا هذه السياسة في مصر بسبب الحاجة إلى المال، ثار الأقباط بعنف في الصعيد الأعلى عام ٧٣٩م.، كما سبق وذكرنا، وفي "سمنود" عام ٧٥٠م.، وفي "برشيد" في السنة ذاتها، كما ثار أهالي "البشرود" وغيرهم... أمّا لمّا ثار الأقباط ثورتهم الكبرى في الوجه البحريّ عام ٨٣١م.، أنزل بهم الخليفة العبّاسيّ المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣) هزيمة كبرى كان من نتائجها أن اضطرّ الأقباط إلى اعتناق الدين الإسلاميّ قسرًا بسبب السياسة الماليّة المتشدّدة التي اتّبعها الخليفة على أهل البلاد. ويبقى أكثر أنّ أكبر تحوّل للأقباط إلى الإسلام، بسبب السياسات الظالمة، كان في عهد الحاكم بأمر اللّه، كما ذكرنا، ثمّ في عهد المماليك خاصّة أيّام حكم السلطان بيبرس.

أمّا التحوّل عن اللغة القبطيّة، وتعلّم العربيّة، فتدرّج مع الزمن، ولم ينقضِ على دخول العرب أرض مصر أكثر من خمسة قرون حتّى سادت اللغة العربيّة أوساط السكّان مسلمين ومسيحيّين، دون أن يتخلّى الأقباط عن لغتهم. ويذهب العلماء إلى أنّ اللغة القبطيّة هي اللغة المصريّة القديمة التي كان يتكلّمها عامّة الشعب المصريّ، في حين كانت الهيروغليفيّة تمثّل لغة أهل السياسة والثقافة. وكلا اللهجتَين تنحدران من جذر واحد.. ومع الزمن، أصبحت القبطيّة، كما عُرفت في العصر المسيحيّ لمصر، لغة متميّزة، وذلك بفضل مرونتها والتغيّرات التي طرأت على كتابتها وصرفها ونحوها. وقد تفرّعت إلى أربع لهجات رئيسيّة هي: البحيريّة (مصر السفلى)، والصعيديّة (طيبة)، والفيّوميّة (الفيّوم)، والأخميميّة (أخميم). وأكثر ما تأثّر الأقباط، قبل

العربيّة، باللغـة اليونانيّـة، بحيث أصبحت لغة العلم والمتعلّمين، خاصّة بعد ظهور الحواضر الإغريقيّة الطابع.

وهكذا يمكن اعتبار الإزدواجيّة الثقافيّة وراء تراجع اللغة القبطيّة أمام اللغـة العربيّة، طبعًا إلى جانب حركة أسلمة الأقباط في مصر، وفرض العقوبات القاسية على مَن يستخدم القبطيّة لغة حديث وتخاطب. وأمام الواقع الجديد، بدأت اللغة القبطيّة تنسحب إلى الأديرة حيث عكف الرهبان على دراستها والكتابة بها. لكنّها ظلّت لغة التخاطب في ما بين الجماعات القبطيّة المنغلقة حتّى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر. ولا يزال إلى اليوم أقليّة قبطيّة تعتمدها على نطاق ضيّق في بعض قرى صعيد مصر. وفي هذا المجال، لا يمكن إغفال الدور الذي لعبه أفراد طبقة الموظّفين الأقباط، بعد تعريب الدواوين، وانكبابهم على تعلّم اللغة العربيّة، وتعليمها لأولادهم حفاظًا على مراكزهم، وفتحًا للمجال أمام بنيهم.

خلاصة القول، إنّ مكوّن العنف لا يكفي وحده لأن تفرض الدولة الغالبة لغتها على المغلوبين، وإنّما يتطلّب أن تكون هذه الدولة صاحبة حضارة، وهو ما توفّر للدولة العربيّة الناشئة. إلى جانب أنّ العربيّة قد أصبحت لغة العلم والثقافة قبل أن تصبح لغة التخاطب، وهي اللغة المرنة التي فتحت صدرها لألفاظ من اللغات الأخرى، واستغلّتها في المصطلحات العلميّة وفي لغة الكلام. وكان من الطبيعيّ، على أثر تحوّل الأقباط إلى اللغة العربيّة، أن ازدهرت الدراسات اللغويّة، ونشطت حركة الترجمة من التراث القبطيّ العريق إلى العربيّة، كترجمة سِيَر الآباء والقدّيسين وبعض كتب التاريخ. ثمّ لم يلبث الأقباط أن وضعوا نتاجهم الفكريّ والثقافيّ باللغة العربيّة، فرفدوا بذلك الحضارة العربيّة. وهكذا أدّت حركة تعريب المجتمع المصريّ إلى مزيد من التفاعل الحضاريّ بين ثقافة العرب الفاتحين وثقافة الأقباط أهل البلاد. هذا التفاعل

ساهم، ولا شكّ، في خلق مجتمع مصريّ قوامه المسلمون والأقباط، وهو مجتمع ظلّ يتميّز بدرجة عالية من التماسك حتّى شابه بعض الشوائب على أيدي الجماعات الإسلاميّة المتطرّفة في الآونة الأخيرة[1].

صُمُود القُبط
في مَسيحيَّتِهم

رغم ما تعرّض له الأقباط في مصر بعد الفتح العربيّ، خاصّة في عهد الفاطميّين، ورغم تحوّل غالبيّتهم القسريّ أو الطوعيّ إلى الإسلاميّة، بقيت المسيحيّة متجذّرة في البلاد على نحوٍ كاف. ولعلّ من أسباب صمود المسيحيّة هي قدرة الأقباط على تأسيس كنيسة وطنيّة مستقلّة، ارتكزت على دعائم ثقافيّة وحضاريّة تعود إلى أقدم العصور. وعلى عكس ذلك، زالت المسيحيّة نهائيًّا من شمال أفريقية خلال القرن الثاني عشر، رغم انتشارها الواسع منذ أواخر القرن الثاني للميلاد لدرجة أنّه في العام ٤١١م. قد انعقد مجمع مقدّس في قرطاجة. وقد يكون مردّ زوال المسيحيّة من أفريقيا عائدًا إلى الأوضاع الثقافيّة والقوميّة والاجتماعيّة التي كانت تسود أوساط البربر من أهل البلاد. ويبقى السبب الأقرب إلى الواقع، هو عدم استقلاليّة الكنيسة الأفريقيّة وتقهقرها على الصعيدَين الثقافيّ والفكريّ. فمسيحيّو شمال أفريقيا البربر قد اضطرّوا إلى مواجهة المدّ الإسلاميّ ولا ثقافة لهم تدافع عن بقائهم، على عكس النساطرة واليعاقبة والغساسنة والأقباط... فلقد وقف مسيحيّو أفريقيا بين أيدي المنتصرين عليهم صفر الأيدي، لا يلمّون بشيء، ولا يستطيعون تقديم الخدمات للدولة الجديدة، فكان عليهم،

---

١ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٥٣ ـ ٥٨.

والحالة هذه، أن يعتنقوا الإسلام، يحثّهم على ذلك بغضهم التقليديّ للسلطة البيزنطيّة الحاكمة. ولعلّ من أسباب أفول نجم الكنيسة الأفريقيّة أيضًا هو عدم قدرة البربر على تأسيس كنيسة وطنيّة على غرار الكنيسة القبطيّة في مصر. لكنّ محاولة كهذه ظهرت في أفريقيا وهي "الدوناتيّة"[1]. إنّ هذه الحركة كانت دينيّة في جوهرها، لكنّها سياسيّة أيضًا تناهض السلطة، واجتماعيّة تطالب بحقوق المستضعفين المحرومين. ولم تكن الدوناتيّة بدعة بقدر ما كانت انشقاقًا، فهي لم تكن مشكلة عقيدة بل قضيّة شخص[2].

ففي مطلع القرن الرابع الميلاديّ، تمرّد مسيحيّو "توميديا[3]" على أسقف قرطاجة المعيّن، تحت زعامة أحد الأساقفة المدعو "دوناتُس". ولمّا وقف الأمبراطور قسطنطين، بعد عام ٣١٣م. (براءة ميلان) بجانب الأسقف المعيّن، ظهر للعيّان تضامن السلطة المدنيّة والكنيسة الرسميّة، ما أعطى "الدونانيّة" زخمًا كبيرًا، واستحالت الكنيسة الرسميّة إلى كنيسة مضطهدة. وقد رافق نشوء "الدوناتيّة" قيام ثورة اجتماعيّة في "توميديا" استهدفت كبار ملاّكي الأراضي المستبدّين بالفلاّحين الضعفاء. وما لبث أن اتّحد التيّاران، وشملت نقمتهما الكنيسة الرسميّة والسلطة الملكيّة وكبار الملاّكين، فتضامن هؤلاء بدورهم لمكافحة الانتفاضة. وكانت النتائج أن انتصرت الكنيسة الرسميّة، وتلاشت احتمالات قيام كنيسة وطنيّة قريبة من الشعب، مستقلّة عن الملك ولا ترتهن له، بخلاف الكنيسة الوطنيّة التي أسّسها الأقباط لهم في الإسكندريّة بمصر.

---

١ ـ الدوناتيّة: حركة وطنيّة سعت إلى إقامة كنيسة مقدّسة في مواجهة كنيسة فاسدة خاطئة.

٢ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط مرجع سابق، ص ٧٩ ـ ٨٠.

٣ ـ نوميديا NMIDIE: بلاد في أفريقيا الشماليّة بين قرطاجة والمغرب (الجزائر) جعلها الرومان منطقة عسكريّة ومقاطعة لأمبراطوريّة ٢٥ ق.م.، قسّمها ديوقليتيانُس إلى نوميديا الشماليّة ونوميديا الجنوبيّة، احتلّها الواندال ٤٢٩.

ولكن هل يمكن الاستنتاج فعلاً أنّه لو انتصرت الدوناتيّة لاستطاعت أن تصمد في وجه الفتح الإسلاميّ على غرار شقيقاتها في المشرق؟ من الصعب جدًّا الإجابة على هذا السؤال، لكنّ الأمر غير مستبعَد. أو أنّه على الأقلّ لَما كانت المسيحيّة في أفريقيا قد انهارت بسرعة، أو تلاشت كليًّا، بل لعلّها كانت صمدت على غرار الكنيسة القبطيّة في مصر[1].

---

١ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط مرجع سابق، ص ٨٠ ـ ٨١.

الفَصلُ الرَّابِع

في عَهد المَماليك

ظُهورُ صَلاح الدِّين؛

المَماليك؛

معانَاة الأَقبَاط فِي ظلّ المَماليك.

ظُهورُ صَلاحِ الدِّين

تستمدُّ الأسرة الأيّوبيّة اسمها من نجم الدين أيّوب، والد صلاح الدين يوسف، المتحدّر من أسرة كرديّة عريقة، نزح من مسقط رأسه في منطقة أرمينية، إلى العراق. وفي سنة ١١٣٧ عيّنه الأتابك التركيّ عماد الدين زنكي، أتابك الموصل، قائد حامية القلعة في حصن تكريت في العراق، حيث وُلد صلاح الدين سنة ١١٣٨. وإثر استيلاء عماد الدين زنكي على بعلبك التي انتزعها من البوريّين، عُيّن أيوب حاكمًا على بعلبك، وقائدًا للحامية في قلعتها. ثمّ أصبح واليًا على دمشق سنة ١١٥٤ بعد استيلاء أتابك الموصل نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي وخلفه عليها، وصار أخو أيّوب: أبو الحارث أسد الدين شيركوه، قائدًا للجند. وفي دمشق، ترعرع صلاح الدين بن أيوب، قبل أن تنتقل إليه شارة الوزارة في الخلافة الفاطميّة الشيعيّة في مصر[1].

كان صلاح الدين، في ما يبدو، أكثر نزوعًا إلى العلوم الدينيّة منه إلى الشؤون العسكريّة. لذلك لم يرافق عمّه في حملته على مصر سنة ١١٦٤، إلاّ بعد تردّد وتمنّع[2]. ولكن يبدو أنّ تلك الروح الرامية إلى التعمّق في الدين، هي التي جعلت صلاح الدين في ما بعد، يقرر الانتقال إلى مصر.

١ ـ بولس جواد، التحوّلات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام، دار عودة (بيروت) ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨.

أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، المجلّد الأوّل (القاهرة، ١٢٨٧هـ) ١: ١٥٥؛ أبو الفداء (القسطنطينيّة، ١٢٨٦هـ) ٣: ٤٧؛ ابن الأثير، مرجع سابق، ١١: ٢٢٣.

دمشق، ويؤسّس سلالته المالكة، بعد أن وضع يده على كنوز مصر، فوزّع بعضها على قوّاده، وباع بعضها الآخر، مودِعًا أثمانها في بيت المال. وهكذا ذكّر صلاح الدين بأوائل الخلفاء الراشدين، خاصّة وأنّه لم يلمس من ذلك المال شيئًا.

عندما توفّي نور الدين، سنة ١١٧٤ في دمشق، كان قد أصبح من السهل على صلاح الدين أن ينتزع الشام من ابن نور الدين: إسماعيل، وهو بعد في الحادية عشرة من عمره، دون أن يكلّفه ذلك أكثر من مناوشات صغيرة.

وهكذا، وبظرف سنتَين، حقّق صلاح الدين، هدفَين كبيرَين، وراح يتهيّأ للثالث: مقاتلة الإفرنج.

إنضمّت القيروان والحجاز فورًا إلى صلاح الدين، وغدتا جزءًا من الدولة الناشئة. ثمّ ألحق توران شاه، أخو صلاح الدين الأكبر، النوبة واليمن بهذه الدولة. وبعد سنة واحدة أو أقلّ (١١٧٥) أسند الخليفة العبّاسيّ إلى صلاح الدين، بناء على طلبه، السلطة على جميع هذه المناطق، بما فيها العراق الأعلى باستثناء الموصل، ممّا أمّن التكامل الجغرافيّ لهذه السلطنة[١]، وكان صلاح الدين قد أخضع حلب، وانتزع المناطق التي كان يسيطر عليها الحشّاشون. وبعد أن استتبّ له الأمر لهذه السلطنة المتكاملة الأطراف، راح صلاح الدّين يهيّىء قواه ضدّ الإفرنج.

وبين معركة حطّين، قرب طبريّة، التي جرت بين جيش صلاح الدين والإفرنج سنة ١١٨٧، وهي أكبر معركة نشبت في جميع الحروب الصليبيّة، ووفاة صلاح الدين سنة ١١٩٣، حقّق هذا القائد الفذّ، ذو الأصلِ الكرديّ، انتصارات للإسلام، ليس على الصعيد العسكريّ وحسب، بل أيضًا على الصعيدَين المعنويّ والدينيّ، لم يذكر التاريخ

---

١ ـ أنظر: ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ١١: ٢٧٤ ـ ٢٧٥، ٣١٩ ـ ٣٢١.

رجلاً حقّق مثيلاتها من غير الخلفاء الراشدين. ومثله مثل باقي القادة المسلمين المتديّنين غير المتعصّبين، كان صلاح الدين متساهلاً ومتسامحًا مع رعاياه المسيحيّين، فلم يدّعِ الظلم أحد منهم في عهده، رغم أنّ حروبه كانت ضدّ... الصليبيّين.

وقد يكون لِما قاله صلاح الدين، لقوّاده، رافضًا السماح لهم بدكّ قبر المسيح، وأوضح بيان على تمسّكه العميق بسنّة الرسول وخلفائه الأوّلين. فهو قال:

لماذا نهدمه (القبر المقدس) خصوصًا أنّ موضوع احترام المسيحيّين هو مكان الصليب والقبر لا البنيان الخارجيّ؟! فلنقتدِ بالفاتحين المسلمين الأول، الذين احترموا الكنائس[1].

وإذا كان صلاح الدين الأيّوبيّ، قد برع في رسالته الإسلاميّة والإنسانيّة إلى حدّ السطوع، فإنّ السلالة الأيّوبيّة التي أنشأها، لم تكن على قدر المسؤوليّة. ذلك أنّه بين وفاة صلاح الدين سنة ١١٩٣، وبين هلاك آخر أمير من سلالة الأيّوبيّين: طوران شاه، على يد المماليك، لم يكن من أمراء هذه الأسرة سوى سجلّ من الصراع في ما بينهم. وقد اتّفق السوريّون منهم على عدم الاعتراف بسلطة مصر، فنقضوا بذلك الهدف الثاني من أهداف صلاح الدين. وانتقلت المعارك إلى ما بينهم، فيما غدت معاركهم مع الصليبيّين قليلة وثانويّة[2]، وبهذا نقضوا الهدف الثالث من أهداف صلاح الدين. حتّى أنّ بعض هؤلاء الأمراء كان يستدعي الإفرنج لمساعدته ضدّ بعضهم الآخر. وبذلك انتهز الإفرنج الفرصة، وحصّلوا المغانم والمكاسب، فاستعادوا العديد من المناطق، ومنها القدس سنة ١٢٢٩ وسنة ١٢٤٣.

---

١ ـ راجع: بولس، التحوّلات، مرجع سابق، ص٢٨٠.

٢ ـ WIET G., *L'EGYPTE ARABE*, P.236- 237.

بيدَ أنّ كلّ هذا، لا يبدّل في تعريف عهد السلاطين والأمـراء الأيّوبيّيـن، بأنّـه كـان عهدًا إسلاميًا سنيًا في مصر والمدن السوريّة. فإنّ دولة السلطان صلاح الديـن يوسـف بـن أيّـوب، وعاصمتهـا القـاهرة، دولـة كرديّـة إسـلاميّة سنيّة، صـلاح للدين والطبقـة الحاكمة فيها من أصل كرديّ: ضبّاط جيشه وقادته أكراد وأتراك؛ وقـد أنهـى السـلطان صلاح الدين الخلافة الفاطميّـة والمذهـب الفـاطميّ الشـيعيّ، وأعـاد العقيـدة السـنيّة فـي مصر. وكان صلاح الدين أبرز من اهتمّ ببناء المدارس الإسـلاميّة قديمًـا، فنقـل نظـام المدرسة المسجد إلى مصـر، بهـدف محاربـة تعـاليم الشـيعة، إضافـة إلـى مـا بنـاه مـن مدارس في بلاد الشام وفلسطين، وإلى إدخاله تكيّة الدراويـش إلـى جميـع البـلاد[1]. أمّـا ورثة السلطان صلاح الدين وخلفاؤه الأيّوبيّون، سلاطين مصر وأمراء المدن السوريّة، فمسلمون سنيّون، من أصل كرديّ، غير أنّهم قد أنفقوا أوقاتهم وجهودهم فـي الدسـائس والصراعات بعضهم ضدّ بعض، وقد تحالف بعضهم أحيانًا مع الصليبيّين ضدّ البعـض الآخر[2].

---

١ ـ راجع: السيوطيّ، ٢: ١٥٦ ـ ١٥٨؛ ابن خلكان، ٣: ٥١٦، ٥٢١؛ المقريزي، كتاب السلوك لمعرفـة الملـوك، نشـر مصطفى زيادة (القاهرة،١٩٣٤) ٢: ٣٦٣، ٤١٥.

٢ ـ بولس، التحوّلات، مرجع سابق، ص٢٦٥.

المَماليك

في العربيّة، المملوك (جمعها مماليك) تعني: العبد. ومعنى المماليك: العبيد. والعبد هنا، لا تعني الزنجيّ، ولكنّها تعني الإنسان الذي تملّكه سيّد بشرائه، فملَكه، وأصبح مملوكه. فالمملوك، توضيحًا، هو الرقيق، والمماليك، هم الأرقّاءُ.

والمماليك، هم فعلاً أرقّاء أتراك وجراكسة ومغول. استعان بهم الأيّوبيّون للخدمة العسكريّة، فتمكّن بعض زعمائهم من الوصول إلى الحكم، وأسّسوا في مصر سلالَتي المماليك البحريّة والبرجيّة، اللّتين حكمتا دولة سنّيّة، تركيّة ـ جركسيّة، بين ١٢٥٠ و١٥١٧.

في العام ١٢٤٩، توفّي الأيّوبيّ: الصالح نجم الدين أيّوب، سلطان مصر. فتمكّنت زوجته: شجر الدرّ، من كتم أمر موت السلطان، مدّة ثلاثة أشهر، حتّى عاد إلى مصر ابنه طوران شاه من رحلة كان يقوم بها إلى بلاد ما بين النهرَين[١].

كانت شجر الدرّ جارية من أصل تركيّ أو أرمنيّ في حريم آخر الخلفاء العبّاسيّين: المستعصم (١٢٤٢ ـ ١٢٥٨)، في بغداد. وبعد أن ولدت له صبيًّا، أعتقها، قبل أن يتزوّجها الصالح نجم الدين أيّوب. وإذ تسنّم طوران شاه سدّة الحكم، أساء معاملة زوجة أبيه، ومماليكه، فتآمر هؤلاء جميعًا عليه وقتلوه. ولأوّل مرّة في تاريخ الإسلام، غدا السلطان امرأة، وأصبح اسم شجر الدرّ موضوع الدعاء في صلاة الجمعة في المسجد. هذا ما جعل الخليفة العبّاسيّ، الذي أعتقها، وكان لا يزال سيّد الخلافة،

---

١ ـ راجع: ابو الفداء، مرجع سابق، ٣: ١٩٠.

يبعث برسالة إلى أمراء مصر جاء فيها: "إن كان ما بقي عندكم رجل تولّونه فقولوا لنا نرسل إليكم رجلاً"[1]. وكانت شجر الدرّ قد حكمت ثمانين يومًا.

كانت رسالة الخليفة العبّاسيّ، جارحة لرجولة مماليك الصالح نجم الدين أيّوب، الذين غدوا "مماليك السيّدة" بَل "السلطانة" شجر الدرّ. فقرّروا أن ينصّبوا كبيرهم، قائد جيش السلطانة: عزّ الدين أيبك، سلطانًا. وسرعان ما تزوّجت السلطانة السلطان الجديد، الذي راح يسحق الحزب الأيّوبيّ المطالب بالسيادة في الشام، إذ كان أعضاؤه يعتبرون أنفسهم ورثة أنسبائهم المصريّين. وإذ كانت شجر الدرّ قد عيّنت ابن زوجها الأيّوبيّ، الطفل ذا السنوات الست، ليكون مشاركًا لها في الحكم، خلع السلطان المملوكيّ الأوّل هذا الطفل الذي كان اسمه: الأشرف. غير أنّ شجر الدرّ، علمت أنّ مَن كانت وراء تنصيبه سلطانًا، قد عزم على الزواج من امرأة ثانية، فأرسلت إليه مَنْ قتله في الحمّام. وإذ كانت شجر الدرّ على هذه الدرجة من العدائيّة، جاء مَن يقتلها: وكان قاتلها امرأة، جارية للزوجة الأولى لزوجها السابق، إنقضّت على شجر الدرّ بالقبقاب وانهالت عليها ضربًا حتّى قضت، وكانت نهايتها بأن أُلقيت جثّتها من برج في قلعة القاهرة المعروفة بقلعة الجبل[2].

كان أيبك، الذي سلطنته شجر الدرّ، بالتعاون مع سائر مماليك الأيّوبيّين، أوّل السلاطين (١٢٥٠ ـ ١٢٥٧) من سلسلة مماليك سيطروا أكثر من قرنَين ونصف من الزمن. وكان أوّل من استقدم هؤلاء الأرقّاء، آخر السلاطين الأيّوبيّين في مصر: الملك الصالح أيّوب (١٢٤٠ ـ ١٢٥٠) الذي كانت شجر الدرّ زوجته، متّبعًا في ذلك خطّة

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢٦٧، ومرجعه: السيوطي، حسن المحاضرة، ٢: ٣٩.

٢ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ١٠: ٦٠ وما بعدها.

الخلفاء العبّاسيّين الذين أدخلوا الأرقّاء الغرباء في الجيش والحرس. فقد ابتاع السلطان الأيّوبيّ جماعة من مختلف الأجناس والعناصر البشريّة الغريبة، جاؤوا، أو جيء بهم، فتيانًا من شمال البحر الأسود والقوقاز، كان معظمهم من الآسيويّين من أتراك وجركس، مسلمين سنّيّين اعتنقوا الإسلام في سنّ مبكّرة، وجعلهم بمثابة حرسه الشخصيّ. وسرعان ما أصبح هؤلاء بعد حقبة وجيزة، كما زملاؤهم عند العبّاسيّين في بغداد، أمراء الجيش وقادته. وها هم، كما زملاؤهم أيضًا، يصبحون سلاطين البلاد[١].

خلف السلطانَ المملوكيَّ الأوّل: أيبك، سلسلةٌ من السلاطين والحكّام، جرى العرف على تقسيمهم إلى سلالتَين: المماليك البحريّة (١٢٥٠ ـ ١٣٩٠) وذلك نسبة إلى النّيل، الذي يُدعى عندهم بالبحر، إذ كانت ثكناتهم تقوم على إحدى جزره الصغيرة، وكانوا في أكثرهم من الترك والمغول؛ والمماليك البرجيّة (١٣٨٢ ـ ١٥١٧) وكانوا في الغالب من الجراكسة[٢]. وكانت السلطنة تُنقل من واحد إلى آخر بشكل غريب. فغالبًا، لم تكن السلطنة المملوكيّة وراثيّة، بل كانت تنتقل من السلطان إلى أحد عبيده أو بعض المرتزقة من أتباعه، ممّن تميّزوا بعمل مهمّ، أو أحرزوا شهرة كبيرة. وهكذا فإنّ العبد بالأمس، كثيرًا ما كان يصبح قائد جيش في الحاضر، ليغدو في المستقبل: السلطان[٣].

هؤلاء المماليك، الذين كانوا عمومًا، سفّاكين وبعيدين عن الثقافة، شاءَت الأقدار أن يؤدّوا للإسلام خدمات جُلّى، ليس أقلّها أنّهم حرّروا بلاد الشام ومصر من بقايا الصليبيّين، وأنّهم أوقفوا الزحف المخيف الذي قامت به قبائل المغول والتتر بقيادة

---

١ ـ بولس، التحوّلات، مرجع سابق، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨؛ راجع ابن خلدون، ٥: ٣٧٣؛ أبو الفداء، ٣: ١٨٨.

٢ ـ راجع: ابن خلدون، ٥: ٣٦٩.

٣ ـ أنظر: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢٦٥ ـ ٢٦٨.

هولاكو وتيمورلنك. ويعتبر بعض البحّاثين في تاريخ الشرق الأدنى، أنّه لولا وقوف المماليك بوجه المغول والتتر "لجاز أن يكون سبيل الحضارة والتاريخ، في غربيّ آسيا ومصر، برمّته، غيره اليوم[1]".

فما أن سيطر المماليك على السلطنة في مصر سنة ١٢٥٠، حتّى بدأت جيوش المغول تجتاح أراضي الأمبراطوريّة الإسلاميّة، زاحفة من مجاهل آسيا الوسطى. وفي ١٢٥٨ استولت هذه الجيوش على بغداد، فقتلت الخليفة العبّاسيّ المستعصم بالله، الذي به انتهت هذه الخلافة، وظلّت العاصمة العبّاسيّة: بغداد، زمنًا غير قصير، متروكة للنهب والحريق، بعد أن قُتل أكثر من مائة ألف من سكّانها. وخضع العاهل الأيّوبيّ في الموصل للمغول بلا مقاومة. وفي السنة التالية، اجتاح المغول حلب، ونهبوها، واستسلمت دمشق بلا مقاومة. وهجرها أميرها الأيّوبيّ نحو الجنوب، حيث اندفع الفاتحون نحو غزّة سنة ١٢٥٩. إلاّ أنّ المماليك، في مصر، إتّخذوا المبادرة، وسارعوا إلى ملاقاة العدوّ الآسيويّ الجديد في فلسطين، حيث دحروه بعد معركتَين، إلى ما وراء الفرات سنة ١٢٦٠، فدخل المملوكيّ السلطان قطز (١٢٥٩ ـ ١٢٦٠) إلى دمشق دخول المحرّرين. ولكنّ القائد المملوكيّ الذي دحر المغول، لم يكن السلطان قطز، إنّما كان "بيبرس"، أحد قوّاده. وهو في الأصل رقيق تركمانيّ، نشأ في حضن الدولة الأيّوبيّة. وفي أثناء رجوعه إلى مصر، منتصرًا ظافرًا، قتل مولاه السلطان قطز، واغتصب الحكم لنفسه. وقد غدا: الملك الظاهر ركن الدين بيبرس (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧) أعظم سلاطين المماليك. وليعطي لحكمه شكلاً من مظاهر الشرعيّة، استقدم إلى القاهرة أحد العبّاسيّين الذين نجوا من اجتياح المغول، وأقامه خليفة. وبذلك غدا مركز

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢٦٨.

الخلافة مقامًا دينيًا إسميًا فحسب. وصارت القاهرة مركز هذا المقام، الذي بقي على حاله حتّى سقوط المماليك واحتلال مصر والشرق الأدنى من قِبَل الأتراك العثمانيّين سنة ١٥١٧، إذ جعل هؤلاء لقب "خليفة رسولِ اللّه لسلطانهم في القسطنطينيّة[١]".

إستمرّت غزوات المغول لبلاد الشام حتّى العام ١٣٠٣. وبعد أن تمكّن هؤلاء من تحقيق عدّة انتصارات ومن تسديد ضربات قاسية للماليك، استعاد المماليك المبادرة سنة ١٣٠٣ في معركة مرج الصفّر جنوبيّ دمشق، وقضوا على آخر غزوة مغوليّة، وتمكّن المماليك من قهر أخطر وأشدّ عدوّ واجهته مصر منذ ظهور الإسلام.

وبعد حروب متقطّعة، تمكّن المماليك من القضاء نهائيًا على الإفرنج. ففي ١٢٨٩ استولوا بقيادة السلطان قلاوون (١٢٧٩ ـ ١٢٩١) على طرابلس بعد شهر من الحصار؛ وعلى عكّة بعد حصار دام ٤٥ يومًا. وفي السنة نفسها، استسلمت سائر المدن التي كانت واقعة تحت سيطرة الإفرنج: حيفة، صور، صيدا، بيروت، طرطوس، وغيرها. وعلى يد المماليك، انتهت المغامرة الإفرنجيّة، أو الصليبيّة، في الشرق، بعد حوالى مائتَي سنة من بدئها.

لم يكن عهد المماليك من العهود المشرّفة في تاريخ الإسلام، رغم ما نجح به هؤلاء في الشؤون الحربيّة، التي مكّنتهم من تحرير مصر وبلاد الشام من المغول والتتر وبقايا الصليبيّين. ذلك أنّ المماليك، قد حكموا في جوٍّ من الفساد والدسّ والاغتيال والشغب، "فكان عدد من هؤلاء السلاطين عاجزين وخونة؛ وكان بعضهم فاسدين بل ساقطين؛ وكان أكثرهم غير مثقّفين. وقد ادّعى واحد منهم فقط، هو برقوق (١٣٨٢ ـ ١٣٨٩) بأنّه تحدّر من والد مسلم. أمّا برسباي (١٤٢٢ ـ ١٤٣٨) فلم يكن

---

١ ـ بولس، التحوّلات، مرجع سابق، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

يحسن العربيّة؛ وإينال (١٤٥٣ ـ ١٤٦٠) لم يكن يحسن توقيع اسمه على الوثائق الرسميّة إلاّ إذا رسمه فوق كتابة أمين سرّه. ولم يكن السلاطين وحدهم فاسدين، بل إنّ الأمراء أيضًا، وسائر مَن في الحكم، كانوا على جانب من الفساد... ولم يستطع أقدر الموظفين أن يستمرّوا في وظائفهم أكثر من ثلاث سنوات، إلاّ في ما قلّ وندر. وقد عُيّن أحد القضاة وعُزل عشر مرّات"[1]. وإنّنا نحجم عن ذكر بعض تفاصيل ما تثبّته المدوّنات عن قذارة هؤلاء السلاطين، على الصعد الخلقيّة، لياقة[2]. أمّا نهاية هذه الدولة التركيّة الجركسيّة الإسلاميّة السنيّة، في سياستها، والتي كانت في واقع سلاطينها، بعيدة عن مفهوم السنّة والإسلام، فكانت على يد الأتراك العثمانيّين، بعد أن تلقّت ضربة قاسية من تيمورلنك في نهاية القرن الرابع عشر.

معانَــاة الأقبَــاط
فِي ظلّ المَماليك

حقد المماليك على مسيحيّي الرها وأنطاكية بسبب التأييد الذي أبداه هؤلاء للصليبيّين، فعمدوا إلى ابتزاز جميع أموال مسيحيّي القدس وسلعهم، وعملوا على تشريدهم مستثنين العاجزين والمرضى والنساء والاطفال. WILLIAM OF TYRE, I: 334. وفي العام ١٢٩٩ أصدر السلطان المملوكيّ قلاوون (١٢٧٩ ـ ١٢٩٠) مراسيم تُحرّم على "النصارى" من رعاياه تولّي الوظائف الحكوميّة في سائر أنحاء السلطنة. وعمد خليفته السلطان الناصر محمد بن قلاوون (١٢٩٣ ـ ١٢٩٤) إلى تطبيق التدابير القديمة

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

٢ ـ انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر جوينبول (ليدن،١٨٥٥) ٧: ٥٥٩؛ الإسحاقي، أخبار الأول في من تصرّف في مصر من الدول (القاهرة،١٢٩٦) ص ٢١٠.

التي أوجبت على أهل الذمّة، من مسيحيّين ويهود، أن يرتدوا ملابس خاصّة يُعرفون بها، وأن يمتنعوا عن ركوب الخيل والبغال. كذلك فعل الناصر الثاني الحسن ابن الناصر محمّد (١٣٤٧ ـ ١٣٥١) الذي زايد على جدوده فأمر بإلغاء عيد قوميّ من أعياد القبط، وأقفل الكثير من كنائس المسيحيّين في مصر[١].

لم تقتصر مدّة اضطهاد المماليك للمسيحيّين على حقبة ردّ فعل قصيرة، بل هي امتدّت على زمن حكم المماليك. وقد عانى مسيحيّو مصر الأمرّين، في تلك الحقبة، سواء كانوا من الملكيّين أو من الأقباط المونوفيزيّين. ومن المدوّنات أنّه في سنة ١٣٦٤ "ورد الخبر بمنازلة الإفرنج مدينة الإسكندرية، فلوحق النصارى، وأُحضر البطريق. وأُلزموا بحمل أموالهم لفكاك أسر المسلمين. وكُتب بذلك إلى البلاد الشامية[٢]". وفي ١٤٤٢ "ختم على كنائس النصارى الملكيّين في مصر لأنّه وجد داخلها أعمدة من الحجارة المنحوتة... وحصل على جميع أهل الطوائف من أهل الذمّة من الإهانة والتغريم ما لا مزيد عليه[٣]". وفي سنة ١٤٤٥ أمر الملك الظاهر سيف الدين جقمق (١٤٣٨ ـ ١٤٥٣) بهدم جدار كنيسة الملكيّين في القاهرة "لأنّ جدارها عالٍ على مسجد يجاورها وأنّه يجب هدمه[٤]". وبعد سنتَين أمر السلطان بهدم تلك الكنيسة، وهي الواقعة بقصر الشمع، وأمر ببيع أنقاضها، ليُبنى بثمنها مسجد في مكانها[٥]. و"عندما توفّي السيد أحمد بن حسن بن علي الشافعي الشهير بن النعماني سنة ١٤٤٨، كان قد

---

١ ـ المقريزي، كتاب السلوك في معرفة دول الملوك، ترجمة كاترمير (باريس،١٨٥٤)، ١: ٦٩.

٢ ـ المقريزي، السلوك، مرجع سابق، ص٤٦ ـ ٤٧.

٣ ـ ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر بأنباء العمر، (طبعة باريس) ص٢٦١.

٤ ـ المرجع السابق ص٢٦١ ـ ٢٥٧.

٥ ـ السخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، ص١٨٠ ـ ١٨٢.

أسلم على يده ثمانون كافرًا، أي مسيحيًا. ولم يبقَ في قصر الشمع ولا دموة (الجيزة) ولا في المدينة كنيس لليهود ولا كنيسة للنصارى إلاّ وقد شملها من السيّد إمّا هدم، وإمّا بعض هدم، وإمّا إزالة منبر، أو أيقونة أو حجاب أو هيكل[1]".

أما بالنسبة لأقباط مصر فقد اعتبر مؤرّخوهم أنّ عهد السلاطين المماليك كان كارثة على النصرانيّة، وذكروا أنّ هؤلاء المماليك قد رتّبوا مصير الأقباط حسب هواهم، وكان بإمكانهم ابتزاز أموال الأقليّة بسهولة دون أن يخشوا من قيامها بأيّة حركة[2]. وعلى العموم، لم ينته عهد المماليك في مصر سنة ١٥١٧، إلاّ وكانوا قد تمكّنوا من عدم إبقاء كنيسة واحدة في مصر لم يُلحقوا بها الضرر[3].

وقد أوجز باحثون محدثون[4] معاناة أقباط مصر في الحقبة المملوكيّة كالتالي:

مع المماليك أصبحت مصر في ظلّ دولة إسلاميّة لا تحكمها سلالة عربيّة. وقد تميّز هذا العهد بالتحوّل نحو نمط الدولة الإقطاعيّة العسكريّة، ما أدّى إلى دمار المشتركات القرويّة الزراعيّة، وهرب المزارعين وهلاك معظمهم، إنْ بفعل هذا النظام الإقطاعيّ الجديد، أو بفعل المجاعات المتعاقبة وانتشار الأمراض كالطاعون وغيره. وعلى مستوى الحكّام وأركان الحكم، شكّل المماليك طبقة مميّزة منغلقة على نفسها، وقامت بينها وبين المصريّين، مسلميهم وأقباطهم، حواجز عميقة من اللغة والعرق والثقافة والتقاليد.

---

١ ـ المرجع السابق، ص٢٢٧ ـ ٢٢٨.

٢ ـ تاجر جاك: أقباط ومسلمون منذ الفتح العربيّ إلى عام ١٩٢٢، القاهرة ١٩٥١، (JERSEY, 1948)، ص١٧٢ وما يليها.

٣ ـ السنحاوي، التبر، مرجع سابق، ص٣٦.

٤ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٦٠ ـ ٦٢.

في ظلّ هذه الدولة المملوكيّة، عاشت غالبيّة الأقباط حياة بائسة، وهي التي تنتمي إلى الفلاّحين وإلى الفئات الفقيرة. ولكن برزت فئة من أقباط الدواوين، وكبار الموظّفين، لعبت دورًا مهمًّا في الإدارة الماليّة للبلاد. وقد تمكّن أفرادها، بحكم مواقعهم هذه، من جمع الثروات الطائلة، وصار لبعضهم مكانة تعلو مكانة كبار المسلمين في مصر. ومع ازدياد عدد المتعلّمين من المسلمين، بفضل الأزهر والكتاتيب، تطلّع هؤلاء إلى أن يكون لهم نصيب في أجهزة الدولة، وأن يحلّوا محلّ الأقباط المسيحيّين؛ ومن أجل تحقيق هذه الغاية، راحوا يثيرون النقمة الإسلاميّة على الأقباط عامّة. وهكذا كان كلّما تفجّر السخط على شكل انتفاضات، غالبًا ما تقترن باعتداءات على الأقباط دون تمييز. وكان بعض السلاطين المماليك يتغاضى عن هذه الأعمال، وأحيانًا يشجّعها، وذلك خوفًا من ارتداد السخط الشعبيّ عليهم.

وأخطر حادثة حصلت في ذلك العهد، هي تلك الفتنة الطائفيّة، في أيّام حكم السلطان محمّد بن قلاوون عام ١٣٢٢م. حين بدأت الفتنة بهدم كنيسة الزهريّة بمصر القديمة، وتطوّرت إلى هدم أربع وخمسين كنيسة في جميع أنحاء البلاد. واشتعلت النيران في عدد من أحياء القاهرة، وحصلت مجازر رهيبة كان ضحيّتها عشرات الرهبان الأقباط ومئات المسيحيّين. وكان من نتائج هذه الأحداث أن أجبر السلطان وولاته جماعات كثيرة من الأقباط على اعتناق الديانة الإسلاميّة.

بالإضافة إلى هذه المؤثّرات الداخليّة، لعبت الحروب الصليبيّة وعلاقات مصر الخارجيّة دورًا في العلاقات الداخليّة بين المسلمين والأقباط. فالحروب الصليبيّة التي دامت حوالى القرنَين من الزمن (١٠٩٦ ـ ١٢٩١) والتي تواصلت متقطّعة بعد هذا التاريخ، على شكل حملات طاولت مدن مصر الساحليّة، قد أيقظت روح الجهاد المقدّس في نفوس المسلمين. وهكذا ازداد التعصّب الدينيّ ضدّ الأقباط في مصر، إذ لم

يسلموا لا من الدولة الأيّوبيّة، ولا من دولة المماليك بعدها، ولا حتّى من المسيحيّين الغربيّين. فلمّا وقعت مدينة بمياط، مثلاً، بيد الملك لويس التاسع ملك فرنسا عام ١٢٤٩، عيّن عليها كاهنًا كاثوليكيًا، متحدّيًا بذلك الكنيسة القبطيّة الوطنيّة. وأكثر من ذلك، فقد أجرى لأولاد هذه المدينة الأقباط "التعميد" أو "التنصير" مرّة ثانية وفق العقيدة الكاثوليكيّة.

كما شكّلت العلاقات المصريّة - الحبشيّة، والمصريّة - النوبيّة المتوتّرة، عوامل ضغط شديد على الكنيسة القبطيّة، خاصّة كلّما كان ملوك الحبشة يذكّرون المماليك بأنّ النيل ينبع من بلادهم، وأنّ باستطاعتهم حجب مياهه عن أرض مصر، أو كلّما ذكّروا الحاكم المصريّ بأن يعامل الأقباط بمثل ما يعامَل به المسلمون في الحبشة.

ولمّا أحسّ الأقباط، وسط هذه الأجواء المضطربة، أنّ الحروب الصليبيّة قد أثارت عليهم غضب المسلمين، ونتيجة ليأسهم من حياة مسالمة آمنة، تحوّل بعضهم إلى الديانة الإسلاميّة، كما آثر البعض مغادرة مصر إلى فرنسا أو إلى الدوقيّات الإيطاليّة.

الفَصلُ الخَامِس

في عَهدَي العثمَانيّين ومحمَّد عَليّ

في ظلّ الحُكم العثمَانيّ؛ محَاولات "هروب" إلى الكاثوليكيَّة؛

تَرحيبُ الأقبَاط بالحملَة الفَرَنسيَّة؛

في عَهد محمَّد عليّ والأسرَة الخديويَّة؛ مع مصطفَى كَامل ثمَّ سعد زغلُول.

في ظلّ الحُكم العثمانيّ

عندما دخل السلطان العثمانيّ سليم الأول مصر فاتحًا سنة ١٥١٧، كان مسيحيّو مصر، وجلّهم من الأقباط "قد وصلوا إلى انحلال كبير" بسبب المعاناة الرهيبة التي تحمّلوها طوال مدة حكم المماليك الذين جعلوهم "في وضع ذليل ملؤه الخزي والإهانة والتغريم لحدّ يفوق الوصف[١]". وكان جلّ كنائسهم قد هُدم، ولم يبقَ، قبيل الفتح العثماني، كنيسة واحدة في مصر لم يلحق بها ضرر[٢]. وإنّ المراجع التي تصف دخول السلطان العثمانيّ إلى أرض النيل وصفًا شائقًا ومفصّلاً[٣]، لا تذكر الأقباط إلاّ مرّة واحدة في مجرى الحديث عن: "انتقال بعض الصنّاع الذين انتقاهم السلطان للسفر إلى الآستانة". وما جاء عن الأقباط لم يأتِ أكثر منه عن سائر الطوائف المسيحيّة في مصر.

من شأن هذا أن يدلّ على أنّ الأقباط والمسيحيّين عامّة في مصر، كانوا قد أُقصوا عن تعاطي السياسة والشؤون العامّة في البلاد، بعد أن أدّت التدابير المذلّة إلى اعتناق بعضهم الإسلام هربًا من هذا الإذلال. فانتقلوا من جحيمه إلى نعيم الإجلال والإكرام... وقد بلغ اليأس ببعضهم الآخر أن افتعلوا الاستشهاد افتعالاً. من تلك الحوادث أنّ

---

١ ـ السنحاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك (طبقة بولاق) ص ٣٦.

٢ ـ تاجر، أقباط ومسلمون، مرجع سابق، (نيوجرسي، ١٩٨٤) ص ١٩.

٣ ـ ابن أياس، تاريخ مصر، (طبعة بولاق، ١٣١١هـ) ٣: ١٤٩.

مسيحيًّا من مواليد مدينة "الطور [1]"، كان كاتبًا في أحد الدواوين، قصد القاهرة ووقف يخطب جهرًا ضد الإسلام. فلمّا أُرسل إلى القاضي مكبّلاً، قال المسيحيّ: "إنّ هدفي الحصول على شرف الإستشهاد". وكذلك قدم القاهرة جماعة من الرجال والنساء وأعلنوا على الملأ خروجهم عن الاسلام وعزمهم على العودة الى حظيرة المسيحيّة، وقالوا: "لقد جئنا لكي نغتفر الخطايا التي اقترفناها، فنقدّم حياتنا على مذبح التضحية لننال نعم سيّدنا المسيح"، فقُطعت رؤوسهم جميعًا. وقد قام أربعة من الرهبان وتحدّوا علانية فقهاء الإسلام، وتكلّموا بأسلوب ملؤه الإحتقار، فحُكم عليهم بالحرق أحياء [2].

***

نعود لنشير إلى أنّه في سنة ١٥١٦، انتصر الأتراك العثمانيّون على المماليك في معركة مرج دابق قرب حماه ودخلوا سوريا. وفي العام التالي، ١٥١٧، احتلّوا مصر، وحوّلوها إلى ولاية تابعة للأمبرطوريّة العثمانيّة، يحكمها والٍ يعيّنه الباب العالي بموجب فرمان. وتذكر المدوّنات عن أحداث جرت بعد الفتح العثمانيّ مباشرة، تدلّ على أنّ الأمور لم تتغيّر كثيرًا، بالنسبة إلى المسيحيّين، رغم أنّ هؤلاء قد رأوا في ذلك الفتح ما يمكن أن يكون إنقاذًا لهم من ظلم المماليك. فإثر الفتح مباشرة قبض جنود الإنكشاريّة على بعض المسيحيّين بتهمة أنّهم قد شربوا الخمرة وأفحشوا في السباب. وقام هؤلاء الجنود بتقطيع أجساد هؤلاء المسيحيّين بالفؤوس، ثمّ اجتمع السواد الأعظم من العوام "وأخذوا رمم النصارى وأطلقوا فيها النار وأخذوا السقائف التي تقع على

---

١ - الطور: مدينة في سيناء، جنوب غربي جبل موسى على خليج السويس، تمرّ بها القوافل إلى دير القدّيسة كاترينا.

٢ - QUATREMERE E., *MÉMOIRES GÉOGRAPHIQUES ET HISTORIQUES SUR L'EGYPTE ET SUR QUELQUES CONTRÉES VOISINES* (PARIS, 1811), II, PP. 251-257.

الدكاكين ووضعوها عليهم وأشعلوها بالنار، فإحترقوا وصاروا كالرماد[1]". وقد جرت أحداث مماثلة بعد أربع سنوات من الفتح (١٥٢١)، فاضطر بعض المحكومين إلى أن يعتنقوا الإسلام لينجوا من الموت[2].

يرى باحثون محدثون[3] أنّه في هذه المرحلة، لم يُعرف أيّ دور إداريّ أو ماليّ يُذكر للأقباط. فلمّا طبّقت الدولة العثمانيّة في مصر، كما في سائر أنحاء البلاد، "نظام الملّة"، تراجع الأقباط، بمقتضاه، كطائفة دينيّة أو "ملّة" أمام تطوّر وتوسّع طوائف أخرى أو "ملل" كاليهوديّة والكاثوليكيّة التي تعاملت مع مفهوم "الملّة" على أنّها أقليّة، بشكل يخدم أهداف التوسّع الأوروبّيّ في السلطنة العثمانيّة، وذلك منذ أواخر القرن السابع عشر، ومع ما يُعرف بالمسألة الشرقيّة. ذلك أنّ الأقباط لم يتعاملوا مع نظام الملّة بهذَين المفهوم والمدلول السياسيَّين. كما لم ينجح المرسَلون الفرنسيسكان، الذين دخلوا مصر مبشّرين عام ١٦٨٤، في استمالة الأقباط المونوفيزيّين إلاّ بأعداد قليلة. وأيضًا لم تنجح المساعي المتكرّرة، في منتصف القرن الثامن عشر، التي سعت إليها روما من أجل استمالة البطريرك القبطيّ مقابل حماية الأقباط في مصر.

محَاولات "هروب" إلى الكاثوليكيَّة

أمّا الحدث التاريخيّ البارز في تاريخ الأقباط إبّان العصر العثمانيّ فهو محاولة المونوفيزيّين الأقباط اعتناق المذهب الكاثوليكيّ. وكانت قد جرت محاولة من قِبَل

---

١ ـ ابن اياس، مرجع سابق، ٣: ٢٦٨ ـ ٢٦٩.

٢ ـ المرجع السابق، ص ٣١٥.

٣ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٦٢ ـ ٦٣.

الكنيسة الكاثوليكيّة لمصالحة الأقباط المونوفيزيّين والكاثوليك في العصر الأيّوبيّ، بعهد البطريرك القبطي كيريلُس الثالث، ولكنّها باءت بالفشل. وفي عام ١٤٣٩ كانت الكنيسة القبطية قد تمثّلت في مجمع فلورنسا الذي دعت إليه روما والذي أُعلن في خلاله عن اتّحاد الكنيسة الجامعة، بيدَ أنّ ذلك لم يؤدّ عمليًّا إلى اتّحاد الكنيسة القبطيّة مع الكنيسة الجامعة.

سنة ١٥٦٠ زار روما قسّيسان قبطيّان يحملان عريضة تشهد برغبة رؤساء الأقباط وشعبهم بأسره في العودة إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكيّة والخضوع لسلطة البابا نائب المسيح.

لقد وجد الأقباط أنفسهم مهمَلين متروكين مستفرَدين في بداية العهد العثمانيّ. ذلك أنّ العثمانيين قد جعلوا البطريرك القسطنطينيّ مرجعيّة مسيحيّة أولى في الشرق. ثمّ إنّ علاقات العثمانيّين الدوليّة فرضت عليهم مسايرة روما التي كانت تحافظ على مصالح الكنائس الكاثوليكيّة في الشرق. وكان الأقباط خارج المرجعيّتَين. وبالنظر للخصومات المتأصّلة بينهم وبين كنيسة بيزنطية، وإلى أنّ بعضهم قد اعتنق الكثلكة منذ زمن بعيد، فقد رأوا أنّ من شأن الالتحاق بالكنيسة الكاثوليكيّة أن يخلّصهم من ذلك الاستفراد، إذ أملوا بدعم روما وسائر دول الغرب التي تتأثر بها، لتحسين أوضاعهم وللتخفيف من معاناتهم ومن جور الحكم العثمانيّ.

عندما قصد القسّيسان القبطيّان روما، كان على السدّة الباباويّة بيّوس الرابع (١٥٥٩-١٥٦٥)، الذي استجاب لطلب الأقباط، وسارع إلى إرسال راهبَين يسوعيّين إلى مصر ليحادثا البطريرك القبطيّ في الموضوع، وليتأكّدا من صدق نواياه. فسافر اليسوعيّان "وجرت محادثات بينهما وبين عضوَين من الكنيسة القبطيّة عيّنهما البطريرك جبرائيل للقيام بهذه المهمّة. ولكن اليسوعيّين لم يتوصّلا إلى ما كانا

يتوخّيان، إذ اعترف محدثاهما القبطيّان بأنّ الأقباط لقّبوا البابا، في الكتاب المرسَل إليه، بلقب: "أب الآباء" و "راعي الرعاة" و "رئيس جميع الكنائس"، إلاّ أنّ هذه الألقاب لم يقصد منها سوى الإكرام، وقد جرت العادة أن تحرّر الخطابات إلى الأصدقاء بهذا الأسلوب. غير أنّهما اعتبرا أن كلّ بطريرك له السلطة التامّة على كنيسته، وذلك منذ مجمع خلقدونية الذي عيّن عدة بطاركة مستقلّين عن بعضهم بعضًا[1]".

وبعد مضيّ عشرين سنة على تلك المحاولة الفاشلة، علود اليعاقبة مسعاهم، لدى الكرسيّ الرسوليّ سنة ١٥٨٢، وطلبوا أن يزور الأب "جان باتيست إليانو" مصر، وكان يومها في سورية، ليتحقّق بنفسه من صدق نيّاتهم، وليعطوه البرهان الملموس على إيمانهم وخضوعهم. فاستجاب هذه المرّة أيضًا بابا روما إلى طلبهم، وكان على كرسيّ الفاتيكان يومذاك البابا غريغوريُس الثالث عشر (١٥٧٢ ـ ١٥٨٥) الذي طلب من الأب إليانو أن ينتقل إلى القاهرة ويجتمع بأركان الكنيسة القبطيّة بحضور البطريرك. وكاد أن يتمّ الاتّفاق لو لم يتوفَّ البطريرك فجأة. ويزعم الكاثوليك أنّه مات مسمومًا. على أيّ حال فإنّ المجلس انفضّ بعد وفاة البطريرك وأُلقي القبض على مندوب البابا باعتباره جاسوسًا أجنبيًا. وقد اضطرّ البابا إلى دفع فدية قدرها خمسة آلاف دينار لإطلاق سراح ممثّله وتمكينه من العودة إلى بلاده.

ومرّ سبع عشرة سنة، فأوفد البطريرك القبطيّ جبرائيل الثامن هذه المرّة مبعوثَين إلى روما يحملان إقرارًا بالإيمان عليه توقيعه. وقد ذكر في هذا الإقرار المؤرّخ في سنة ١٨٩٧ أنّه "يؤمن إيمانًا ثابتًا بقوانين مجمع نيقية وبقانون مجمع القسطنطينيّة، ويعترف بأنّ أحدًا من الذين خارج الكنيسة الكاثوليكيّة لن يستطع أن ينال الحياة

---

١ ـ راجع: تاجر جاك، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربيّ إلى عام ١٩٢٢، مرجع سابق، ص١٩٧ ـ ١٩٨.

الأبديّة". ولم يأتِ هذا التصريح على قرارات مجمع خلقيدونيـة. وبينمـا كـان المندوبـان القبطيّان في روما، بعث إليهما البطريرك القبطيّ رسالة تقول:

> لا تدعوا أحدًا يخدمكم من المترجمين إلاّ من كتّاب جبل لبنان الموارنـة. فـإنّهم مـن أقاربنا ويعرفون بلساننا. ثم إنكم تُقبّلوا لنا أيادي السـيّد البابـا وتسـألوا مـن تفضّلاتـه وإحسانه بأن ينعم علينا ويتصدّق في كلّ سنة بترتيب جامكية (عطيّة) فإنّنا في غاية الضيق والشدّة. وما تحتاجه كنائسنا وأديرتنا والفقراء والمساكين والأرامـل والأيتـام الذين بالسجون والحديد لسبب الجوالـي وغيرهم... وأنتـم يـا أولادي تعرفـون ذلـك أكثر منّي، ومن عملكم (أن) تعرّفوا السيّد البابا عن ذلك. فإنّ السـيّد المسيح أعطـاه السلطة على سائر المسيحيّين، وهو أبوهم وأبونا نحن أيضًا، وحيـث مـا هـو أبونـا، فيساعدنا في ضيقنا الذي نحن فيه.

وقد أرسل البابا اكليماندوس الثامن (١٥٩٢ ـ ١٦٠٥) بعض المساعدات إليهم[١].

لا شكّ في أنّ هذه الرسالة التي بعـث بهـا بطريـرك الأقبـاط إلـى رومـا فـي نهايـة القرن السادس عشر، تكشـف عـن أنّ وضـع الأقبـاط فـي مصـر كـان فـي تلـك الحقبـة صعبًا للغاية. ولا عجب في أن يحاول المسؤول الأوّل عـن الأمّـة القبطيّـة أن يسـتنجد بروما من أجل حاجات أبناء كنيسته، وإن كان ثمن ذلك الرضـوخَ لسلطة البابـا. علـى أيّ حال، فإنّ روما قد اسـتجابت لذلـك الطلـب، واعتبـرت الأقبـاط كاثوليكًـا، كمـا بقـي الأقباط في حال اتّحاد مـع رومـا زهـاء قـرن ونصـف. علـى أنّـه مثلمـا دعـت الحاجـة الأقباط إلى الاتّحاد بروما، فاتّحدوا، فهم سوف ينفصلون عنها متّى دعتهم الحاجـة إلـى اكتساب تأييد الباشوات الأتراك، وهذا ما حصل فعلاً[٢].

---

١ ـ رباط الأب أنطون، البابا اكليماندوس الثامن وبطريرك الأقباط جبرائيل، مجموعة مجلّة المشرق (١٩٠٧ ـ ١٩١٤).

٢ ـ RENAUDOT ABBÉ E., *HISTORIA PATRIARCHARUM JACOBITARUM* (PARIS,1713) PP. 601-602

إذا كان الإنسان المعاصر يعتبر أنّ مثل ذلك التقلّب في الولاء وفي الانتماء مُشين لصاحبه، فيكون من الظلم وصم الأقباط بمثل هذه الصفة، بالنظر إلى واقع حالهم في ذلك العصر من الزمان. بيدَ أنّ أبناء هذه الكنيسة المنسيّة من قِبَل عمالقة القيادة المسيحيّة في العالم، قد عانوا معاناة فيها من الظلم والاضطهاد، ومن غياب إمكانيّة الصمود والدفاع، ما أجبر شعوبًا على الهجرة أو على التنازل عن الدين. إلاّ أنّ أبناء هذه الطائفة الذين تمسّكوا بأرضهم ودينهم، بعد أن تنازل بعضهم عن دينه أو عن أرضه، لا يُلامون إذا استنجدوا تارة بروما وطورًا بباشوات الأتراك. وللدلالة على بعض ما عانته تلك الكنيسة في نصف الألف العثمانيّ، لا بدّ من الاستشهاد ببعض ما سجّلته المدوّنات.

سنة ١٧٨٥ قدم إلى مصر القبطان التركيّ حسن باشا ليؤكّد سيادة الباب العالي عليها. وقد استفاد هذا القبطان من المناسبة، فقرّر أن يملأ جعبته الخاصّة قبل أن يغادر أرض النيل. ومن إجراءاته التعسّفية التي قام بها ضدّ المسيحيّين بهدف تحقيق غايته، أنّه:

أمر بالمناداة على طائفة النصارى بأن لا يركبوا الدواب ولا يستخدموا المسلمين ولا يشتروا الجواري والعبيد، ومن كان عنده شيء من ذلك باعه أو أعتقه، وأن يلزموا زيّهم الأصلي من شدّ الزنّار والزنوط. وأرسل حسن باشا إلى القاضي ليأمره بالكشف عن جميع ما أُوقف على الديور والكنائس من أطيان ورزق وأملاك... وبالمناداة أيضًا على النصارى واليهود بأن يغيِّروا أسماءهم التي على أسماء الأنبياء كإبراهيم وموسى وعيسى ويوسف وإسحق، وأن يُحضروا جميع ما عندهم من الجواري والعبيد، وإن لم يفعلوا، وقع التفتيش على ذلك في دورهم وأماكنهم. فصالحوا على ذلك بمال، فحصل العفو وأذنوا لهم في أن يبيعوا ما عندهم من الجواري والعبيد، ويقبضوا أثمانها لأنفسهم ولا يستخدموا المسلمين، فأخرجوا ما عندهم وباعوا بعضه وأودعوه عند معارفهم من المسلمين.

وبعد يومين نودي على النصارى بإحضار ما عندهم من الجواري والعبيد ساعة تاريخه، ثم نزلت العساكر وهجمت على بيوت النصارى لإحضار ما فيها، فكان شيئًا كثيرًا، وأحضروهم إلى القبطان، فأخرجوهم إلى المزاد وباعوهم، واشترى غالبهم العسكر وصاروا يبيعونهم على الناس بالمرابحة. وقرَّر على بيوت النصارى الذين خرجوا بصحبة الأمراء المصريّة مبلغ دراهم مجموع متفرّقها خمسة وسبعون ألف ريال. وأمر أيضًا بإحصاء بيوت جميع النصارى ودورهم وما هو في ملكهم، وأن يُكتب جميع ذلك في قوائم، وقرّر عليها أجرة مثلها في العام، وأن يكشف في السجلّ على ما هو جار في أملاكهم. ثمّ قرّر أيضًا خمسمائة كيس، فوزّعوها على أفرادهم، فحصل لفقرائهم الضرر الزائد. وقرّر أيضًا على كلّ شخص دينارًا جزية، العال كالدُّون (دون استثناء) وذلك خارج عن الجزية الديوانيّة المقرّرة. وقبض قبطان باشا أيضًا على راهب من رهبان النصارى واستخلص منه صندوقًا من ودائع النصارى. وقبض القبطان على المعلّم واصف وحبسه وضربه وطالبه بالأموال، وواصف هذا أحد الكتّاب المبشّرين المشهورين، ويعرف الإيراد والمصاريف وعنده نسخ من دفاتر الروزنامة ويحفظ الكليّات والجزئيّات، ولا يخفى عن ذهنه شيء من ذلك... وقبض على بعض نساء المعلّم ابراهيم الجوهري من بيت حسن آغا كتخده علي بك، أمين احتساب سابقًا، فاقرّت على خبايا، أخرجوا منها أمتعة وأواني ذهبًا وفضة وسروجًا وغيرها[1].

لم يتوقّف هذا الظلم[2] بعد رحيل القبطان باشا مالئًا جعبته من أموال مسيحيّي مصر، فقد استذوق المسؤولون الأتراك هذا المال الحرام واستمرأوه، فراحوا يستعملون أساليب ذلك الزائر الطامع، ومنها أنّ "عيدي باشا" أمر بهدم حارة النصارى

١ ـ تاريخ الجبرتي (طبعة بولاق) ٢: ١١٥ ـ ١٢٠.

١ ـ المرجع السابق، ص١٥٤.

في القاهرة وبالمناداة عليهم من ركوب الحمير، "فسعوا في المصالحة وتمّت على خمسة وثلاثين ألف ريال".

عندما يُطالع الإنسان المعاصر عن مثل هذه الأساليب في إفقار الشعوب ظلمًا وعدوانًا، لا يعود بوسعه أن يلوم المظلومين كيفما تصرّفوا. ولم يكن ما ورد سوى عيّنات قليلة من نهج حياة دائم ومستمرّ، عاشه الأقباط دون أن تقطعه بعض الحقبات الضيّقة، ما كاد أن يفنيهم من الوجود. ففي إحصائيّة مسيحيّة جرت عند الفتح الإسلاميّ كان هنالك ستّماية ألف قبطيّ يدفعون رسمًا للبطريرك. وبعد عشرة قرون على ذلك الإحصاء (١٦٧١) نقص هذا العدد إلى عشرة آلاف[١]! و بينما كان عدد الأساقفة في مصر عند الفتح الإسلاميّ سبعين مطرانًا، فقد انخفض عددهم بعد حوالى ألف ومئة عام إلى اثنَي عشر أسقفًا[٢].

لم يقتصر تأثير اضطهاد المسيحيّة في مصر على التقليل من عدد أتباعها، بعد أن مات جلُّهم مذبوحًا أو جائعًا، وأسلم بعضهم هربًا من الموت والمذلّة، وهاجر البعض القليل إلى خارج مصر، بل تعدّى ذلك التأثير العدد إلى النوعيّة. فبعد أن كان أقباط مصر أسياد العلم والتقنية النسبيّة والمعرفة، أضحوا قلّة استبدّ بأبنائها الجهل إلى حدّ كان يصعب معه انتخاب بطريرك من بين قساوستهم، الذين أضحى جميعهم متزوّجين، يهتمّون بحاجاتهم الماديّة أكثر من اهتمامهم بواجباتهم الدينيّة. وعلى ما كانوا عليه من إيمان وتقوى، كانوا يعتقدون أنّ الدين ليس سوى مجرّد تلاوة الصلوات وتعيين تواريخ الأعياد وأيّام الصوم. وكان عدد الرهبان قد أضحى في شيء

---

١ - VANSLEB, NOUVELLE RELATION D'UN VOYAGE FAIT EN EGYPTE EN 1672-1673 (PARIS,1677), PP. 298-299.

٢ - NIEBUHR, *VOYAGE EN ARABIE ET EN D'AUTRES PAYS DE L'ORIENT* (SUISSE,1780)

كبير من الصغر، وقد توزّعوا بين أربعة أو خمسة أديرة كانت قد أصبحت في حالة يُرثى لها[1].

كان الأقباط في عهد المماليك حاجة لا بدّ منها لهؤلاء الآخرين، نظرًا لِما كان يتمتّع به أبناء الطائفة القبطيّة من علم ومعرفة واختصاص في شؤون الإدارة، ذلك الاختصاص الذي حصّلوه بالممارسة الطويلة وتوارثوه. إلاّ أنّهم في الزمن العثمانيّ كانوا قد فقدوا تلك الميزة "ولم يعد من بينهم مَن يستطيع أن يكون موضع احترام الأتراك لعلمه، أو موضع خوفهم لسطوته. فكان الأتراك يعتبرونهم حثالة القوم وأقلّ منزلة من اليهود، فكانوا يسيئون معاملتهم عندما يحلو لهم ذلك، ويغلقون لهم أبواب كنائسهم ومنازلهم حين يروق لهم الأمر ولأتفه الأسباب وأبعدها عن العدل لكي يغتصبوا منهم بعض المال[٢]".

وإذا كان الأقباط الذين عاصروا الأتراك في مدن مصر الرئيسيّة، كالقاهرة والإسكندريّة وأسيوط، قد عانوا المذلّة لتمييزهم عن المسلمين، فإنّهم في المناطق البعيدة قد عاشوا، بمنأى عن ظلم العثمانيّين، متساوين مع المسلمين، ولكنّ المساواة... كانت مساواة في الفقر والعوز. أمّا في المدن، فإنّ القلّة الضئيلة منهم التي تمكّنت من تحصيل بعض العلم، أصبح أفرادها لا يهتمّون إلاّ بتحصيل بعض المال، فعُرفوا بالبخل وببعدهم عن العلوم والفنون، وفقدوا الميل إلى النبوغ[٣]. هذا ما جناه الظلم عليهم.

---

١ - THEVENOT, *RELATION D'UN VOYAGE FAIT AU LEVANT* (PARIS,1665) P. 501.

٢ - VANSLEB, *NOUVELLE RELATION*, OP. CIT., P. 298-299

٣ - *DESCRIPTION DE L'EGYPTE* (PAR LES SAVANTS DE L'EXPÉDITION), 2E EDIT. XIV, P. 299.

تَرحيبُ الأقبَاط
بالحملَة الفَرنَسيَّة

تجاه هذا الواقع المرير، كان من الطبيعيّ أن يرحّب الأقباط المصريّون بالحملة الفرنسيّة على مصر التي قادها نابليون الأوّل سنة ١٧٩٨. فإنّ تلك الحملة كانت أوّل محاولة لغزو وادي النيل قامت بها دولة مسيحيّة منذ الحروب الصليبيّة. وكانت نتيجتها أن حكمت مصر، لأول مرّة منذ الفتح الإسلاميّ، دولة مسيحيّة. ولأوّل مرّة منذ ظهور الإسلام حاول بعض مسيحيّي أوروبّا، عبر الحملة الفرنسيّة، التعاون مع... مسلمي مصر. بيد أنّ باحثين أقباطًا[1] يوضّحون أنّ أقباط مصر، لم يسلموا من المظالم التي مارسها الفرنسيّون أثناء الحملة الفرنسيّة على بلاد النيل. فجيش نابوليون قد اصطدم بالأقباط أثناء زحفه على القاهرة، فما كان من بونابرت إلاّ أن سجنهم في القلعة، وأجبر بعضهم على العودة إلى ارتداء الملابس الخاصّة، كما كان يفعل بهم الفاطميّون.

بالمقابل، ما أن وصل الأسطول الفرنسيّ إلى مياه الإسكندريّة حتّى حاول مسلمو المدن المصريّة الانقضاض على المسيحيّين لإبادتهم، إلاّ أن السلطات قد منعت العامّة من تنفيذ رغبتها خوفًا من ردّة الفعل الفرنسيّة. لكنّ أعمال الدهم والتفتيش طالت بيوت المسيحيّين من أقباط وغير أقباط[2]. وقد بقي الاقباط حذرين للغاية من ردّة فعل المسلمين إذا ما هم تظاهروا بفرحتهم لقدوم الفرنسيّين. وهكذا، فعندما دخلت الجيوش الفرنسيّة الظافرة إلى العاصمة المصريّة لم ترحّب بها أيّة جماعة، ولم تلاقَ بأيّ

---

١ - زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٦٣.

٢ - الجبرتي، مرجع سابق، ٤: ٧.

مظهر من مظاهر التأييد[1]. ولكن عندما أرسل نابوليون في طلب" المعلم جرجس الجوهريّ" رئيس المباشريين[2]، قدّم هذا الأخير إلى الجنرال الفرنسيّ أعيان الأقباط الذين قدّموا فروض الطاعة والولاء للقائد الفرنسيّ. وممّا يحمل الكثير من المعاني أنّ أعيان الأقباط قد قصدوا الفاتح الفرنسيّ وهم "يرتدون الأكسية ذات الأكمام المذهّبة المزدانة بالوريدات الذهبيّة وعلى رؤوسهم عمائم الكشمير[3]". وقد اعتبر مؤرّخو المسلمين أن "الأقباط والسوريّين واليونانيّين واليهود أصبحوا لا يُحتملون لأنّهم يركبون الخيل ويحملون السلاح" وذكروا: "أنّ هؤلاء تطاولوا على المسلمين بالسبّ والضرب ونالوا منهم أغراضهم وأظهروا حقدهم ولم يُبقوا للصلح مكانًا، وصرّحوا بانقضاء ملّة المسلمين وأيّام الموحّدين... وأمر الفرنسيّون بجمع البغال ومنعوا المسلمين من ركوبها[4]".

في الواقع، حاول نابوليون، في سعيه للحصول على تأييد المسلمين، الإستغناء عن خدمات الأقباط في جباية الضرائب، وهي إحدى الوظائف الهامّة التي كانوا يمارسونها في المجتمع المصريّ. فعندما ترك مصر أرسل إلى "الجنرال كليبر[5]" الذي خلفه في مصر كتابًا جاء فيه: "كنت مزمعًا، إن سارت الأمور سيرها الطبيعيّ، أن أضع نظامًا جديدًا للضرائب يجعلنا نستغني عن خدمات الأقباط". وقد صار الأقباط في عهد

---

١ - RICHARDOT, *NOUVEAUX MÉMOIRES SUR L'ARMÉE FRANÇAISE EN EGYPTE ET EN SYRIE*, OU: *LA VÉRITÉ MISE À JOUR* (PARIS,1848) PP. 59-60.

٢ - المباشر: وظيفة حكوميّة يعادلها جابي الضرائب.

٣ - HOMSY G. *LE GÉNÉRAL JACOB ET L'EXPÉDITION DE BONAPARTE EN EGYPTE*, P. 42.

٤ - الجبرتي، مرجع سابق، ٣: ١١٣.

٥ - كليبر KLÉBER (١٧٥٣ - ١٨٠٠): قائد فرنسيّ، تولّى الحكم في مصر بعد بونابرت، اغتيل في القاهرة.

بونابرت من خيبة أمل إلى خيبة أمل أخرى. وكان الفاتح الفرنسيّ يصف الأقباط بأنّهم "لصوص مكروهون في البلاد. غير أنّه يجب مراعاتهم لأنّهم يعرفون الأصول العامّة لإدارة البلاد دون سواهم[1]". وقد كتب نابوليون إلى قادته في مناسبات عدّة يقول: "مهما فعلتم تأكّدوا من أنّ النصارى في صفكم، فلا تتردّدوا إذن في تفضيل المسلمين على النصارى". ولمّا انتصر على القوّات العثمانيّة في "أبو قير[2]" وأراد أن يُطمئن الأعيان والعلماء عن نواياه، صرّح علانية:

> نعم إنّي أكره النصارى. لقد سحقت ديانتهم وحطّمت هياكلهم وقتلت قساوستهم وهشّمت صلبانهم ونكرت إيمانهم. وعلى الرغم من ذلك فإنّي أراهم يفرحون لفرحي ويتألّمون لألمي، فهل من المعقول أن أعتنق من جديد الدين المسيحيّ؟ وما هي الفائدة التي سأجنيها من هذا العمل؟.

وكان نابوليون، عندما اقترب من أسوار الإسكندريّة، تقدّم على أنّه حامي الإسلام بل بطل من أبطاله فقال:

> لسنا كفّار العصور الهمجيّة الذين يأتون إليكم لمحاربة إيمانكم. إنّنا نعترف بأنّ إيمانكم رفيع القدر. وسوف نعتنق دينكم إذا حلّت الساعة التي يصبح فيها الفرنسيّون الراشدون مؤمنين حقيقيّين[3]...

وفي تصريح وجّهه إلى الشعب المصريّ، كان نابوليون أكثر وضوحًا، إذ كشف فيه عن نواياه الحقيقيّة، وعن السياسة التي سوف ينتهجها إزاءهم طوال مدّة إقامته بينهم، فقال:

---

١ ـ تاجر، مرجع سابق، ص٢١٢.

٢ ـ أبو قير أو كانوب: ميناء مصريّ على المتوسّط في محافظة الإسكندريّة وموقع حربيّ، عنده جرت المعركة بين الأسطولَين الإنكليزيّ بقيادة نلسون والفرنسيّ بقيادة بونابرت ١٧٩٨، من آثار كانوب المدينة القديمة أطلال معبد سيرابيس وكتابة منقوشة على الحجر من عهد بطليمُس الثالث بالإغريقيّة والهيروغليفيّة والديموطيقيّة، أمّا بقيّة آثارها فقد غمرتها مياه البحر.

٣ ـ راجع: تاجر، مرجع سابق، ص٢٠٨.

أيها المشايخ والقضاة والأئمّة وأعيان البلاد، قولوا لأمّتكم أنّ الفرنسيّين هم أيضًا مسلمون مخلصون. وإثبات ذلك أنّهم قد نزلوا في روما الكبرى وخرّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائمًا يحثّ النصارى على محاربة الإسلام، ثمّ قصدوا جزيرة مالطا وطردوا منها الفرسان، الذين كانوا يزعمون أنّ الله يطالب منهم مقاتلة المسلمين[1].

ولما احتلّ القائد الفرنسيّ البلاد، لم يتأخّر عن تنفيذ ما وعد به قبل أن ينقضي شهر على نزوله الإسكندريّة، حيث أمر بالاحتفال بذكرى المولد النبويّ الشريف احتفالاً عظيمًا، كان بونابرت يرتدي فيه زيًّا شرقيًّا جميلاً، ويتعمّم بعمامة وينتعل بابوجًا، وقد صحبه جميع ضبّاطه وقوّاده إلى المجلس حيث كان مجتمعًا حوالى المائة شيخ، فجلس بونابرت بينهم على وسادات منثورة على الأرض، ثم شبك ذراعَيه وأخذ يتلو معهم تواشيح تقصّ حياة النبيّ منذ مولده إلى وفاته، ويكوّر مثلهم أعلى جسده ويحرّك رأسه، ممّا لفت أنظار رجال الدين الذين أُعجبوا بتقواه[2].

تعدّدت الآراء حول الدوافع الحقيقيّة لمثل هذه المواقف التي اتّخذها نابوليون من الإسلام. فإنّ الثورة الفرنسيّة التي كانت قد أبعدت الفرنسيّين عن التديّن[3]، جعلت بعضهم يعتبر أنّ القائد الفرنسيّ كان صادقًا في مواقفه تلك، خاصّة وأنّه قد كتب إلى مفتي المسلمين في القاهرة يقول:

أرجو ألاّ يتأخر الوقت الذي أستطيع فيه جمع العناصر الحكيمة والمثقّفة في البلاد، ووضع نظام ثابت يرتكز على مبادىء القرآن الحقّة الوحيدة التي تستطيع إسعاد البشر دون سواها.

---

١ - المرجع السابق.

٢ - RHYME A., *L'EGYPTE FRANÇAISE*, COL. "L'UNIV. PITTORESQUE". P. 64.

٣ - راجع: الجزء العاشر من هذه الموسوعة.

غير أنّ بعضهم الآخر قد رأى في مواقف نابوليون ما أملته عليه الاعتبارات السياسيّة. فلقد غرق الأسطول الفرنسيّ في "أبو قير" ولم يبقَ لدى القائد العامّ سوى بضعة آلاف من الجند. ولمّا قُطع خطّ المواصلات بينه وبين فرنسا، وفقد كلّ أمل في وصول النجدات، لم يستطع، وحوله شعب يكنّ له العداء، إلاّ أن يأمل، وإن كان هذا الأمل ضعيفًا، في قدرته على كسب عطف هذا الشعب الذي تدين غالبيّته بالإسلام. وما يفيد عن إمكانيّة صحّة هذا التصوُّر، محاولة بونابرت القيام بأكبر دعاية ممكنة حول مواقفه الإسلاميّة تلك، منها أنّه كتب إلى أحد جنرالاته في ٢٨ آب (أغسطس) ١٧٩٨ يقول:

> قابل من طرفي الشيخ المسيري وقل له في ما تقوله كيف احتفلنا بالمولد النبويّ، قل له إنّي في القاهرة أجتمع برؤساء القضاء وكبار القوم... وإنّي أكثر الناس اقتناعًا بصفوة الديانة الإسلاميّة وقداستها...

على أنّ الرأي الأقرب إلى المنطق يقول بأنّه: "لمّا كان بونابرت لا يعتنق دينًا، ولا يعترف بوجود الله، فلم يكن من المنتظر أن يُثير اعتناقه الاسلام أيّ قلق في نفسه، إذا كان إسلامه يخدمه في مراميه السياسيّة. ولكنّ قوّاده سخّفوا الفكرة ثمّ اعترضوا عليها صريحًا[1]". والثابت هو أنّ بونابرت "على الرغم من أنّه أراد أن يُظهر ميله إلى الإسلام أمام المسلمين، فإنّه لم يتقاعس عن حماية العقائد المختلفة[2]". وها هو يردّ في كتاب إلى ممثّل الأقباط، الذي كتب يطلب إلغاء القيود التي فرضها المماليك على شعائرهم الدينيّة، فيجيب بخطاب مؤرّخ في ٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٧٩٨:

---

١ ـ تاجر، مرجع سابق، ص ٢١٠ ـ ٢١١.

٢ - THIBAUDEAU A. G., *HISTOIRE DE LA CAMPAGNE D'EGYPTE SOUS LE RÈGNE DE NAPOLÉON LE GRAND*, HUZARD (PARIS, 1839) II, P. 71.

> إستلمت الكتاب الذي أرسلته الأمّة القبطيّة. وإنّه من دواعي سروري حماية هذه الأمّة التي لن تكون من الآن فصاعدًا موضع الاحتقار، وعندما تتيح الظروف، وهذا ما لا أراه بعيدًا، قد أسمح لها بأن تقيم شعائرها الدينيّة علانية كما هي الحال في أوروبّا حيث يتابع كلّ إنسان عقيدته... وسأعاقب بشدّة القرى التي قُتل فيها الأقباط أثناء الثورة التي نشبت. وبوسعك من الآن أن تخبر أبناء ملّتك بأنّي أسمح لهم بأن يحملوا السلاح ويركبوا البغال والخيول ويضعوا العمامات على رؤوسهم ويتزيّنوا بما يشاؤون.

على أيّ حال، فإنّ المستندات الموثوقة والتي لا يزال جلّها محفوظًا، من شأنها أن تدلّ على حقيقة أنّ بونابرت، الذي حاول بأقواله وأعماله كسب عطف المسلمين، لم يذهب، لإرضائهم، إلى حدّ اضطهاد المسيحيّين، وإن لم يبدِ لهؤلاء ما من شأنه أن يدلّ على عطفه نحوهم. ولكنّ بونابرت، بسياسته هذه، لم يوفّق إلى إزالة البغضاء من قلوب المسلمين، ولا إلى الحظوة بولاء الأقباط وسائر المسيحيّين له، ولاء عميقًا ومخلصًا، وإن كان الأخيرون قد انتهزوا وجود الفرنسيّين في مصر ليحاولوا استعادة مكاناتهم الإجتماعيّة والإقتصاديّة والحقوقيّة. ذلك أنّ المسلمين قد شنّوا عليه ثورة أولى في القاهرة دعا إليها أحد المشايخ الصغار. وقد أخذ الثوّار الفرنسيّين على غرّة وهم يطوفون الشوارع بدون أسلحة، وقتلوا جميع الذين تعاونوا مع الفرنسيّين من مسيحيّين ومسلمين. وعندما انتصر نابوليون على العثمانيّين في "أبو قير" وعاد إلى القاهرة، اضطرّ الأعيان والعلماء المسلمون، مرغمين، إلى أن يتوجّهوا نحو داره ليقدّموا له فروض التهاني، ولكنّ الحزن والخيبة كانا باديين على وجوههم، فلامهم بقوله "إنّه يتعجّب من حزنهم لانتصاره، مع أنّه كرّر لهم أنّه مسلم وأنّه مؤمن بأن لا إله إلاّ الله وأنّه أجلّ النبيّ وأحبّ المسلمين".

عند هذا الحدّ، لا بدّ لنابوليون مـن أن يكون قد شعر بفشله في إقناع المسلمين بحسن نواياه. وسوف تبرز مضاعفات هذه القناعة بعد أن تسلّم الحكم في مصر معاونو الفاتح الفرنسيّ. فلمّا طلب ثوّار القاهرة الأمان، لم يرَ القائد الفرنسيّ كليبر * مانعًا من منحهم إيّاه، ولكنّه أثقل الضرائب على البلاد، ثمّ أرسل في طلب العلماء والأعيان وألقى فيهم خطبة ملؤها التهديد والوعيد، وصفهم فيها بالأشرار الجاحدين، وأعلن عن فرض ضريبة استثنائيّة على جميع السكّان، ما عدا النصارى الذميّين[1].

بعد انتصار كليبر في سهول "عين شمس*" وقضائه على الثورة الداخليّة، تشجّع المسيحيّون، وشعروا بأنّ الفرنسيّين قد ثبّتوا أقدامهم في مصر، فراحوا ينتقمون من المسلمين بالسباب والضرب والاعتداء. بيدَ أنّ اغتيال الجنرال كليبر قد أوقف تلك الروح العدائيّة لدى المسيحيّين المستقوين بالفرنسيّين، لأنّ خليفة كليبر، وهو "الجنرال مينو"، كان أقلّ ثقة بالأقباط من سلفه "فصار الفرنسيّون يعاقبون بقسوة المباشرين الأقباط الذين اختلسوا الأموال، ويتربّصون الفرصة للاستغناء عن هؤلاء الموظّفين غير المخلصين، وقد أمر مينو بالقبض على بعض هؤلاء وبمعاقبتهم[2]".

ويروي باحثون أقباط[3] أنّه "في الأيّام الأخيرة من الحملة الفرنسيّة، ونظرًا لمواقف بعض الأقباط المؤيّدة والداعمة للقائد الفرنسيّ "كليبر" تعرّض الأقباط للمذابح عندما دخل الجيش العثمانيّ القاهرة، حين راح يحرّض المسلمين على قتل المسيحيّين وتلف مقتنياتهم". وفي النهاية اتّهم الأقباط الفرنسيّين بأنّهم يريدون التخلّص منهم كي يختلسوا

---

١ ـ مذكّرات نقولا ترك، ص ٨٩ ـ ٩٠.

٢ - RIGAULT G., LE GÉNÉRAL ABDALLAH MENOU ET LA DERNIÈRE PHASE DE L'EXPÉDITION D'EGYPTE 1799-1801 (PARIS,1911) XX, PP. 403.

٣ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص٦٣.

مال الخزينة العامّة. على أنّ هناك نقطة لا تزال غامضة، وهي تعاون الأقباط العسكريّ مع الفرنسيّين من خلال الفرقة القبطيّة التي كان يقودها قبطيّ، مُنح رتبة جنرال في الجيش الفرنسيّ هو "الجنرال يعقوب[1]".

كان يعقوب يشغل وظيفة مباشر قبل أن ينضمّ إلى صفوف "إبراهيم بك" و"مراد بك" في المعركة الكبرى التي دارت بين جيوش المماليك وجيوش "القبطان باشا العثماني"، وقد أغدق البكوان عليه النعم حتّى أصبح وجيهًا ثريًّا بين أبناء قومه. وعندما جاء الفرنسيّون أعلن يعقوب عن ولائه التامّ لهم، والتحق بجيشهم، وبرهن عن مهارة في الفنون الحربيّة بخلال مواجهة الثورات المصريّة، ما جعل الفرنسيّين يستجيبون لطلبه تجنيد فرقة من الأقباط يتولّى قيادتها، وقد بلغ عدد أفرادها ثمانمئة رجل. إلاّ أن تلك الفرقة لم تشترك في أيّ معارك، بل بقيت معسكرة في القاهرة، وقد ركن جندها إلى الفرار أو الاختباء عندما رحل الفرنسيّون ومعهم يعقوب الذي توفّي على ظهر الباخرة، فألقيت جثّته في عرض البحر.

كان لرحيل الفرنسيّين عن مصر ردّة فعل متوقّعة ضد المسيحيّين، رغم أنّ الإتفاقيّة التي وُقِّعت قضت بأن لا يُضطهد الذين يقطنون مصر، مهما كانت ديانتهم، في أشخاصهم أو في ممتلكاتهم بسبب علاقاتهم مع الفرنسيّين أثناء احتلالهم لمصر، على أن يتبع هؤلاء قوانين البلاد. إلاّ أنّ تلك النصوص لم تمنع الشعب المسلم من توجيه غضبه إلى المسيحيّين بعد انسحاب الفرنسيّين. وهكذا فقد عملت الظروف مرّة جديدة لكي يدفع الأقباط، من أرواحهم وأموالهم، ثمنًا لفشل مستعمر، ولسوء اهتمام العالم المسيحيّ بهم من جهة، ولسوء معاملة العالم الإسلاميّ لهم من جهة أخرى.

---

١ ـ راجع: وديان جورج، الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١ (القاهرة،١٩٣٢)

ويرى بعض المفكّرين الأقباط أنّ هؤلاء[1]، وحتّى نهاية القرن الثامن عشر، لم ينهجوا نهج الأقليّات الأخرى التي ارتبطت بالدول الأوروبيّة ومصالحها، وراحت تدعو إلى إقامة أوطان قوميّة على أسس دينيّة، ورغم هذا الموقف الوطنيّ والقوميّ لم ينجُ الأقباط من ظلم وتعسّف المسلمين المدفوعين، هم أيضًا، بسياسة الأتراك القائمة على مبدأ "فرّق تسُد"، وهي سياسة راهنت عليها في المشرق العربيّ أيضًا.

في عَهد محمَّد عليّ
والأسرَة الخديَويَّة

في القرن التاسع عشر، تأثّر المجتمع المصريّ، بثلاثة عوامل رئيسيّة: ظهور محمّد علي باشا ومحاولة بناء الدولة المصريّة الحديثة؛ الإحتلال البريطانيّ لمصر عام ١٨٨٢؛ نموّ الفكر القوميّ وقيام حركة وطنيّة مصريّة مناهضة للاستعمار البريطانيّ[2].

إذا كان نابوليون بونابرت، وعظمته الفرنسيّة، قد فشل في السيطرة على مصر واستعمارها وحكمها، فمن سخرية الأقدار أنّ ضابطًا ألبانيًا كان قد قدم البلاد حديثًا، واشترك ضد الفرنسيّين في معركة أبو قير وأبلى فيها بلاء لافتًا، فعيّنه العثمانيّون واليًا على مصر، سوف يتمكّن، ليس من مجابهة السلطنة العثمانيّة وحسب، بل ومن تأسيس عائلة مالكة لوادي النيل، سوف يرثها أحفاده عن أبنائه بعد أن رضخت له البلاد المصريّة بجميع مللها رضوخ المطيع، دون أيّ محاولة تمرُّد أو تململ.

كافالا KAVALLA، أو قولَه، مرفأ في شمالي شرقيّ اليونان، على بحر إيجه، وُلد فيها محمّد عليّ سنة ١٧٦٩ وعُرف بالألباني. ويلتقي المدوّنون مع هذا الرجل مقاتلاً

---

١ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٦٣.

٢ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٦٥.

إلى جانب العثمانيّين في معركة أبو قير سنة ١٧٩٩. ثمّ عندما عُيِّن والياً على مصر سنة ١٨٠٥، ويصبح منذ ذلك التاريخ ملازمًا للأحداث، فينتصر على الجيوش البريطانيّة بقيادة "فريزر" سنة ١٨٠٧، ويشترك مع الأتراك في مواجهة الوهّابيّين المنطلقين من نجد فينجح في قهرهم، ويدعم الباب العالي في ميدان القتال اليونانيّ حيث ثار الشعب مناضلاً من أجل استقلاله، ويوجّه حملة إلى الجزيرة العربيّة بين ١٨١١ و١٨١٩، ويفتح السودان بين ١٨٢١ و١٨٢٣. وإذ لم يقدّر له الأتراك خدماته ويُلحقوا، سوريا على الأقلّ، بإمارته، بدأ محمّد عليّ سنة ١٨٣١ بغزو فلسطين وسوريا وهدفه الأبعد تركيا بالذات. وقد قاد ابنه ابراهيم باشا[١] تلك الحملة التي استمرّت سنتَين. أتبعها بحملة ثانية (١٨٣٩ ـ ١٨٤٠) بلغ فيها الأناضول، ولم يوقفه إلاّ التدخّل الأوروبيّ من خلال اتّفاقيّة كوتاهية سنة ١٨٣٣ بالنسبة للحملة الأولى، ومعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ بالنسبة للحملة الثانية. وإذا كان محمّد عليّ لم يضع يده على الباب العالي، إنّما هو ضمن لنفسه الحكم الوراثيّ على مصر، فنهض بها ونمّاها وطوّرها علميًّا وثقافيًّا وزراعيًّا. وإنّ ما حقّقه هذا الرجل الفذّ لمصر، كان ينوي تحقيقه لسائر البلاد العربيّة. وقد كان أشدّ الدول حماسًا لتراجعه: بريطانيا، التي كانت تخشى، في حال زوال تركيا كقوّة في الشرق الأدنى، أن تتعرّض طريق الهند إلى المخاطر، وأن يتعرّض مركزها في الهند إلى السوء. وهكذا قُضي على الحلم الذي حلم به محمّد عليّ بإنشاء دولة عربيّة يرئسها. كما أنّ الشعب العربيّ لم يتحمّس للفكرة، ولم تكن نزعة الاستقلال قد اختمرت في العقول بعد[٢]. وقد جاء في تداوين بعض المستشرقين

---

١ ـ راجع: رستم أسد، ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا (القاهرة،١٩٤٨) ص١١٣ ـ ١١٩.

٢ ـ حتّي د. فيليب، لبنان في التاريخ منذ أقدم العصور التاريخيّة إلى عصرنا الحاضر، نشر مؤسّسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر (بيروت ـ نيويورك، ١٩٥٩) ص ٥١٢.

ما يشبه النبوءة إذ قال: "إنّ مصير مصر كان يتوقّف على رجلَين اثنَين: محمّد عليّ وابنه إبراهيم... وأنت إذا قيّض لك أن تزيل الرجلَين عن المسرح فلا يبقى من مصر شيء ولا يبقى من حلم الأمبراطوريّة العربيّة شيء[1]".

يرى باحثون أنّ محمّد علي، مؤسّس مصر الحديثة، في محاولته لتحديث وعصرنة البلاد، أظهر عطفًا على المسيحيّين وتسامحًا معهم، فانتعشوا بعد عصور طويلة قضوها في الذلّ والخمول[2]، فقد استعان محمّد علي باشا بالأقباط في إدارة الشؤون الماليّة، وولّى بعضهم وظائف كبرى في الدولة، كما استعان بالحرفيّين والصنّاع الأقباط لدفع عجلة الاقتصاد إلى الأمام. وهكذا نمت من جديد، في الريف المصريّ، طبقة قبطيّة تملّكت الأراضي الواسعة، وفي المدينة، ظهرت جماعات قبطيّة تعاطت التجارة والصناعة والمقاولات. واستعاد الأقباط بعضًا من مواقعهم، فبرزت عائلات سوف يلعب بعضها، في ما بعد، دورًا سياسيًّا على الصعيد المصريّ منها: غالي، مكرم، سميكة، عبد النّور، ويصا، عبيد، إندراوس، بشارة، بقطر، مقار، والمنقبادي[3]...

في الواقع، أدخل محمّد عليّ على مصر، كما أدخل ابنه ابراهيم باشا، إصلاحات جذريّة: فقد سمح للمسيحيّين بأن يتبوّأوا مراكز حكوميّة عالية، وأن يركبوا الخيل، ويتعمّموا العمامة البيضاء. بمعنى آخر فإنّهما ألغيا التدابير الذميّة. وأخذ المسيحيّون في مصر وسوريا يمارسون طقوسهم الدينيّة بحريّة، فيخرجون في المواكب والزيّاحات.

---

١ - DE LAMARTINE, *VOYAGE EN ORIENT* (PARIS,1859) VOL. I.P. 42.

٢ - يتيم المطران ميشيل والإرشمندريت أغناطيوس ديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة وأهمّ أحداث الكنيسة الغربيّة، منشورات المكتبة البولسيّة، طبعة ٤، (بيروت،١٩٩٩) ص٣٥١.

٣ - زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٦٥.

ولم يفرّق محمّد عليّ في مصر بين القبطيّ والمسلم، بل راح يوقّع التصاريح للأقباط ببناء الكنائس وترميمها[1]. ولأول مرّة منذ أمد بعيد، أوصى محمّد عليّ عمّاله في فلسطين "بالقبط الذين يريدون الحجّ إلى القدس وأن لا يُدع لأحد مجالاً في التدخّل في شؤونهم[2]". وقد تكرّرت هذه التوصيات في الوثائق، خلال الأعوام اللاحقة. وكان محمّد عليّ، وابنه ابراهيم باشا، أول الحكّام المسلمين الذين منحوا الموظّفين الأقباط في مصر، وسائر المسيحيّين في سوريا، رتبة البكويّة، واتّخذوا لهم مستشارين من النصارى[3]. وعندما كان المسيحيّون في مصر يتعرّضون للاعتداءات، كان محمّد عليّ "يمدّهم بالبارود وآلات الحرب دون المسلمين. حتّى إنّهم استأذنوا السلطات في سدّ بعض الحارات النافذة التي يخشون وقوع الضرر منها، فحصل ذلك[4]". وكان يعاقب حكّامه المسلمين الذين كانوا يظلمون الأقباط وسائر المسيحيّين[5]. وقد أبدى محمّد عليّ احترامًا، لا بل إيمانًا بالمسيحيّة، فقد أمر سنة ١٨١٠ بأن تقام الصلوات لترتفع مياه النيل، "فخرج النصارى الأقباط يستسقون أيضًا، واجتمعوا بالروضة، وصحبتهم القساوسة والرهبان، وهم راكبون الخيول والرهوانات والبغال والحمير في تجمّل زائد، وصحبتهم طائفة من أتباع الباشا بالعصي المفضّضة[6]".

---

١ ـ محفوظات عابدين، سجلّ ٧٢٨ "تركيّ"، ديوان الخديويّ، بتاريخ ٧ محرم ١٢٣٥ هـ. (١٨١٩)؛ محفوظات عابدين، أمر عالي بتاريخ ١٨ رمضان ٢١٧١ هـ. (١٨٥٤) سجلّ ١٨٨٢ ص ٤٢٦.

٢ ـ محفوظات عابدين سجلّ ١٩ "معية تركيّ" بتاريخ ١٢ شعبان ١٢٤١ هـ. (١٨٢٥)

٣ ـ رستم، ذكرى الفاتح ابراهيم باشا، مرجع سابق، ص ١١٣ ـ ١١٤.

٤ ـ الجبرتي، مرجع سابق، ٤: ٢٢٦.

٥ ـ PATON ANDREW ARCHIBALD, *A HISTORY OF THE EGYPTIAN REVOLUTION FROM THE PERIOD OF THE MAMELUKES TO THE DEATH OF MOHAMMED ALI* (LONDON,1870), VOL II, PP. 236-237.

٦ ـ الجبرتي، مرجع سابق، ٤: ١٢١ ـ ١٢٢.

قد يبدو من ذلك أن محمّد عليّ لم يكن مسلمًا حقيقيًا، بينما الوقائع تؤكّد على العكس، فهو كان يكافىء الذين يعتنقون الإسلام منحًا نقديّة، ويعيّنهم في الوظائف الحكوميّة[1]، ولم يتردّد في معاقبة المسلمين المرتدّين علانية، وقد حكم بالموت إغراقًا على امرأة ارتدّت عن الإسلام وتزوّجت مسيحيًا[2]. وقد حثّ محمّد عليّ الكولونيل الفرنسيّ "سيف SÈVE" الملقّب بسليمان باشا، على اعتناق الإسلام قبل أن يسلّمه قيادة الجيش حيث لا يجوز لغير المسلم أن يتولاّها. لذلك لا يمكن القول، رغم الفارق بين هذا الحكم والأحكام السابقة، بأنّ المسيحيّين في مصر قد تساووا مع المسلمين في هذا العهد. ولا شكّ في أن محمّد عليّ كان يحسب للرأي حسابًا، فلم يتمكّن من المبالغة في تلك المساواة، وها هو في معرض مديحه لأحد المباشرين النصارى، واسمه عبّود، يقول: "إنّه يحبّه ويثق به ولولا الملامة لقلّده الدفترداريّة[3]".

سار خلفاء محمّد عليّ، من الأسرة الخديويّة المالكة التي أسّسها، على خطاه، فإنّ حفيده عبّاس حلمي الأول، ابن ولده طوسون (١٧٩٣ ـ ١٨١٦) الذي كان يكنّ العداء للأوروبيّين فاستغنى عن عدد كبير من الموظّفين الفرنسيّين، قد عيّن وزيرَين للخارجيّة من أصل أرمنيّ، ولم يفكّر في التخلّص من المباشرين الأقباط، ولم يصدر عنه أيّ أمر عدائيّ ضد الكنائس المسيحيّة[4]. وكان عبّاس خديويًّا على مصر بين ١٨٤٨ و١٨٥٤. خلفه عمّه سعيد باشا (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣) ابن محمّد عليّ الذي منح "فردينان دي

---

١ ـ محفوظات عابدين، سجل ٥٧ "معية سمية تركي" ص ٣٤؛ محفوظات عابدين، سجل ٢١ "معية تركي" ص ٨٤، تاريخ ٧ ذي القعدة.

٢ - LAINE E.W., *AN ACCOUNT OF THE MANNERS AND CUSTOMS OF THE MODERN EGYPTIAN* (LONDON,1871) P. 126.

٣ ـ الجبرتي، مرجع سابق، ٤: ٣٠٣.

٤ ـ تاجر، مرجع سابق، ص٢٣٥.

ليسيبس" الرخصة لفتح ترعة السويس. وقد بُنيت في أيّامه مدينة "بور سعيد" المنسوبة إليه، والقلعة السعيديّة عند القناطر الخيريّة. وإليه يعود الفضل في إدخال المسيحيّين، وخاصة الأقباط، في صلب الأمّة المصريّة، إذ قرّر قبولهم في الجيش وتطبيق قانون الخدمة العسكريّة عليهم[1]. بيد أنّ الأقباط قد خافوا هذا القرار، ووسّطوا البريطانيّين مع الخديوي لإعفائهم من الخدمة العسكريّة، فكانت ردّة فعل سعيد أن أقال عددًا كبيرًا من الموظّفين الأقباط. أمّا بطريركهم، الذي كان قد ضغط على الإرساليّات البروتستانتيّة لتضغط على الوالي كي يعفي الأقباط من الخدمة العسكريّة، فقد مات بعد ذلك بقليل مسمومًا[2]. غير أنّ ذلك لم يمنع من أن ينتظم الأقباط في سلك الجيش في عهد الخديوي إسماعيل، حفيد محمّد عليّ من ابنه ابراهيم، الذي تولّى الحكم سنة ١٨٦٣، فدشّن قناة السويس سنة ١٨٦٩، وأبدل بالمحاكم القنصليّة المحاكم المختلطة. وقام بالمشاريع العمرانيّة وفتح المدارس. لكنّه بالغ في إسراف المال فوقعت مصر في عجز وازداد دين الأجانب عليها، ما أدّى إلى تدخُّل الدول الأجنبيّة، وإلى ثورة عرابي باشا وعزل إسماعيل سنة ١٧٨٩ الذي لجأ إلى الآستانة حيث توفّي سنة ١٨٩٥. وكان هذا الخديوي قد تلقّى علومه في فيينّا ثمّ في باريس، ما أوجد في نفسيّته تلك الروح العلمانيّة. ولأوّل مرة في التاريخ المدوّن نطالع مثل الحادثة التالية:

عند تولّي إسماعيل باشا السلطة، وجّه إليه أحد كبار الموظفين سؤالاً حول موقفه من موضوع أحد الأقباط، ويُدعى خليل عوض الحاوي، الذي يريد اعتناق الاسلام، فأجاب: إنّ خليل عوض الحاوي من أهالي السلميّة ومن طائفة الأقباط، قدّم عرضًا

---

١ ـ محفوظات عابدين، سجل ٥٠٥ "معية سنية تركي" رقم ٢١.

٢ ـ BUTCHER E. L., *THE STORY OF THE CHURCH OF EGYPT* (LONDON,1897); FOWLER M., *CHRISTIAN EGYPT: PAST PRESENT AND FUTUR* (LONDON, 1901), XIV

يطلب فيه الخروج عن الدين المسيحيّ، برغبته وبدون إجبار، واعتناقه الدين الإسلاميّ. فإنّه يجبَ استحضار كَم قسّيسًا من قسس الأقباط، وكَم عمدة من عمد الأقباط، لأجل إقرار خليل عوض الحاوي أمامهم بأنّه راغب اعتناق دين الإسلام، من غير أن يجبره أحد في ذلك، لأجل ألاّ تكون المسألة وسيلة في ما بعد للتشكّي، وبعد إقراره أمامهم يصير التّصديق منهم على الإقرار ويُحفظ بالمديرية[1]".

وعندما أُريدَ تنظيم أحد شوارع مصر الذي فرض التخطيط، لتقويمه، أن يمرّ بكنيسة الأقباط، عرض الخديوي الأمر على الأنبا ديمتريوس البطريرك آنئذ، مقترحًا "أن تبنى له كنيسة أفخر من هذه الكنيسة، وكذا دارًا للبطريركيّة أفخر من دارها الحاليّة، كلّ ذلك على نفقة الحكومة في نظير مرور الشارع معتدلاً. فأجاب البطريرك قائلاً: إنّي أتشاءم من هدم معبد دينيّ ليكون طريقًا. كمّا إنّني لا أرضى للجناب الخديويّ أن يوافق على هذا العمل. ولمّا عُرض الأمر على الخديويّ قال: لتكن إرادة البطريرك وليبقَ المعبد قائمًا كما هو"[2].

أكثر من ذلك، ولأول مرّة في تاريخ مصر، طلب هذا الخديويّ منح المدارس القبطيّة الأرثذوكسيّة إعانات ماليّة. حتّى إنّه وضع مركبًا بخاريًّا تحت إمرة البطريرك القبطيّ ليطوف برعيّته ويحثّها على البقاء في كنف الكنيسة القبطيّة. وأخيرًا قرّر إسماعيل جعل المساواة رسميّة بين الأقباط والمسلمين عندما أفسح في المجال لترشيح الأقباط لانتخابات أعضاء مجلس الشورى، ثمّ لتعيين قضاة ومستشارين من الأقباط، لأول مرّة، في محاكم الاستئناف. وقد نصّ قانون سنة ١٨٦٦ الخاصّ بإنشاء مجلس

---

١ ـ محفوظات عابدين، سجل ٥٣٠ "معية سنية تركي" بتاريخ ٢٠ محرّم ١٢٧٠هـ. (١٨٧٠)

٢ ـ تاجر، مرجع سابق، ص٢٣٩.

الشورى في مادته الثانية، على أنّ "كلّ شخص بلغ من عمره الخامسة والعشرين يمكن ترشيحه شرط أن يكون أمينًا مخلصًا وأن تتأكّد الحكومة من أنّه وُلد في البلاد". وفي عهده أجمع النوّاب بمناسبة مناقشة سياسة الحكومة التعليميّة، على أنّه يجب على المدارس الأميريّة أن تقبل أولاد النصارى والمسلمين بدون تفرقة. وكان إسماعيل أوّل حاكم في مصر المسلمة قد طلب رتبة الباشاوية لمسيحيّ، هو "توبار باشا". وممّا قاله هذا الخديويّ لأحد الغربيّين: "يعيش المسيحيّون في تركيا في جوّ من التسامح المشوب بالاحتقار! وأما في مصر فإنّهم يعيشون في جوّ من التسامح المقرون بالاحترام"[1].

وفي عهد إسماعيل استقرّ عدد كبير من الأقباط في السودان حيث جنوا ثروات طائلة من خلال التجارة، ولكنّ ثورة المهدي سوف تسبّب لهم أضرارًا لن تعوّض. كما أمّ مصر، في عهد محمّد علي وخلفائه، عدد كبير من مسيحيّي سوريا ولبنان خاصّة، أصبح بعضهم العنصر القويّ في نهضة الصحافة المصريّة والأدب العربيّ والإقتصاد القوميّ. وكذلك استوطن مصر عدد كبير من الأوروبيّين من إيطاليّين ويونانيّين ومالطيّين. وقد غادرها القسم الأكبر منهم بعد التطوّرات التي عقبت ثورة تمّوز (يوليو) ١٩٥٢[2].

في الواقع، قد يتطلّب أمر عدم التمييز في البلدان الاسلاميّة بين الأكثريّة المسلمة والأقليّة المسيحيّة زمنًا طويلاً، إلى حدّ أنّ الفكر البشريّ لا يسعه تقديره. وليست عمليّة القضاء على هذا التمييز قضاء نهائيًّا لتحصل بقرار حاكم أو من جرّاء سياسة سياسيّ، بل إنّ مثل هذا التحوّل يتطلّب تبديل المفاهيم الأساسيّة عند الشعوب. ومتى

---

١ - CHARMES G., *CINQ MOIS AU CAIRE ET DANS LA BASSE EGYPTE* (PARIS,1820), P. 162.

٢ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٣٥١.

كان الدين أساس هذه المفاهيم، يصبح من المستحيل تبديلها أو تغييرها جذريًا، وإن كان بالإمكان التخفيف من حدتها وتطرُّفها في وقت من الأوقات، غير أنّها لا تلبث أن تطفو من جديد على سطح الأحداث، خاصّة في حالات المفاصل التاريخيّة، وفي حالات الغليان الشعبيّ بسبب الثورات والانتفاضات. فالبرغم من كلّ ما فعله محمّد عليّ وأحفاده في مصر من أجل التوصُّل إلى صهر المجتمعات المصريّة في مجتمع واحد، وقد أصبح مسيحيّون قبط يصلون بواسطة الانتخاب إلى مراكز العمدة، لا بل رئاسات الوزارات، قبل ثورة عرابي باشا، التي سبقها تضامن وتعاون بين المسلمين والمسيحيّين في مصر، فما أن وقعت الحوادث الدامية في صيف سنة ١٨٨٢، حتّى قام الثوّار المسلمون بمهاجمة الأقليّة المسيحيّة، خاصّة بعد ضرب الإسكندريّة بالمدافع. وهكذا تبيّن أنّ ما وُصف بالوحدة القوميّة في مصر قبل ذلك التاريخ، لم يكن وحدة يُركن اليها نهائيًا.

ومثلما فعل المسلمون عند شعورهم بالتفوّق، كذلك نجد المسيحيّين يتحيّنون الفرص لمعاملة هؤلاء بالمثل. فما أن جاء الاحتلال البريطانيّ في أعقاب ثورة الضبّاط، "واحتلّت دولة مسيحيّة بلدًا اسلاميًا، حتّى اجتمع الأقباط في هيئة مؤتمر في مدينة أسيوط وتقدّموا بمطالب عديدة باسم "الأمّة القبطية" وسرعان ما اجتمع أعيان المسلمين في مؤتمر مضادّ وانكروا على الأقباط مطالبهم[1]". وراح الناس يتحدّثون عن "الخيانة" وعن "محاولة الأقليّة المسيحية استغلال وجود دولة أوروبيّة لمصلحتها"، أمّا المعتدلون "فقد تأسّفوا لعمل الأقباط بأسيوط وقالوا إنّهم وقعوا ضحيّة دسيسة إنكليزيّة كان يُقصد منها بذر التفرقة في البلاد للسيطرة عليها". بينما اعتبر "مبرّرو" الأحداث

١ - تاجر، مرجع سابق، ص٢٤٤.

أنّه لم يكن هنالك أيّ خيانة، ولا أيّ دسيسة من قِبَل الإنكليز، بل إنّ مؤتمر أسيوط القبطيّ لم يكن سوى صدفة![1].

قد يكون من المبالغة في طيبة القلب، أو من المبالغة في استطابة قلوب الآخرين، أن تُردّ أحداث مثل تلك إلى الصدفة. فالواقع أنّ الأقليّة المسيحيّة التي كبتت ما كبتته عبر قرون طويلة من التاريخ، لن يمكنها إلاّ أن تحاول التمسّك بحبال هواء الأحداث، كلّما لاح طيف بدا وكأنّه ذلك المخلّص المنتظَر. ومتى اتّضح لهؤلاء أنّ صاحب ذلك الطيف لم يكن سوى مستعمر، أو محتلّ، أو فاتح آخر، لا يعني انتسابه الدينيّ أيّ سبب لتفضيل فئة من الإثنيّات الواقعة تحت الاحتلال على فئة أخرى، سوى بقدر ما تؤمّنه له تلك الفئات من مصالح، كانوا يعودون ليقولوا بتفضيل المسلم ابن البلد على المسيحيّ الأجنبيّ. ذلك هو قدر الأقليّات المسيحيّة في الشرق، التي طالما وجدت فيها القوى الاستعماريّة المسيحيّة موضوعًا قابلاً للتعاون، أو بالأحرى لخدمة مصالحها. ومثلما حصل ذلك أيّام الفرس فالبيزنطيّين فالصليبيّين فالفرنسيّين، كذلك حصل عندما ركّز البريطانيّون أنظارهم على وادي النيل. وهنالك من الوثائق المحفوظة ما من شأنه أن يسكت كلّ من يحاول أن يقول بعكس هذه المقولة. وها هو المستر "وليم هاملتون"، قائد الاسطول البريطانيّ سنة ١٨٠١ يكتب من مدينة أثينا في تمّوز (يوليو) ١٨٠٢: "يميل الأقباط كثيرًا إلى الإنكليز وهم في هذه الآونة شديدو الاستعداد لإجابة مطالب الحكومة البريطانيّة[2]". ولمّا أهمل البريطانيّون هذه العروض، تحوّل الأقباط إلى الفرنسيّين. وقد كتب "الجنرال سبستياني"، بدوره، في التقرير الذي رفعه إلى بونابرت

---

١ ـ المرجع السابق. ص٢٤٥.

٢ ـ الوثائق الإنكليزيّة التي نشرها المسيو "دلون" في منشورات الجمعيّة الجغرافيّة الملكيّة المصريّة تحت عنوان *L'ANGLETERRE ET L'EGYPTE* ص ٤٠٨.

بتاريخ كانون الثاني (يناير) ١٨٠٣ يقول: "إقترَح المباشر القبطيّ أن يرسلني ليطلعني على الحوادث الهامّة في مصر وسوريا، وعرض خدماته وخدمات أمّته في حالة تطلّعنا إلى الشرق. وتدلّ جميع المظاهر على شدّة إخلاصه لنا، ولكنّي أجبته بأن ليس عندي تعليمات بهذا الشأن[١]". غير أنّ الأقباط مثلما خيّب أملهم الإحتلال البونابرتي في بداية القرن التاسع عشر، ها هو أملهم يخيب من الاحتلال البريطانيّ قبيل نهايته، ويعتبرون أنّ "رجال الاحتلال أباحوا للمسلمين، بل أعدّوهم لدخول جميع الوظائف الكتابيّة والحسابيّة وغيرها ممّا كاد أن يكون قبلاً محتكرًا للأقباط... إنّ الاحتلال البريطانيّ قضى على احتكار الأقباط لبعض الوظائف".

مع مصطفَى كَامل
ثمَّ سعد زغلُول

وسط كلّ هذه العقد الناشئة عن سخرية الأقدار اللاعبة بمصائر الأقليّات، بين الأكثريّات، في المجتمعات البشريّة، يقول قبطيّ مفكر:

> لقد حدث لنا ما يحدث عادة لشعب مظلوم تحسّنت حالته، وفُكّت عنه القيود، فتذمّر بدلاً من أن يُظهر امتنانًا. والواقع أنّنا نشعر، في هذه الحالة، بحدّة الآلام التي ما زالت فينا، وبالنير الذي ما فتئنا نحمله ونحترق شوقًا إلى امتلاك الأشياء التي تذوّقنا جزءًا منها. وكنّا في ما مضى نرضخ، بحكم العادة، لِما لا بدّ منه ولمصيرنا المحتوم. ولكن إذ كانت التجارب تدلّ على استطاعتنا التحرّر من هذه القيود، طلبنا بفارغ الصبر الحريّة التامّة والمستعجلة. وبينما كنّا لا نجرؤ على المطالبة بشيء في الماضي، فإنّ جرأتنا تزداد كلّما تحقّقت مطالبنا، وتزداد رغبتنا في ما نجرؤ على المطالبة به[٢].

---

١ ـ تاجر، مرجع سابق، ص٢٣٠، عن الوثائق الفرنسية: L'EGYPTE DE 1802 A 1804, ص١١.

٢ ـ تاجر، مرجع سابق، ص٢٤٩.

وها هم الأقباط فعلاً يَرفعون بواسطة أعيانهم، في العقد الأوّل من القرن العشرين، إلى سلطات الاحتلال ومعاونيها، عريضة يطالبون فيها بالمساواة الكاملة في ما يختصّ بالتعيين في الوظائف الإداريّة، وبإغلاق المحاكم يوم الأحد، وبتعيين أعضاء إضافيّين في الجمعيّة الاستشاريّة، وبتعليم الدين المسيحيّ للطلبة المسيحيّين في المدارس الرسميّة[1]. وإذ قبلت السلطات المطلبَين الثاني والثالث، وطرحت المطلبَين الآخرين على بساط البحث، استقبلت الصحف القبطيّة هذا التجاوب بالتهاني، بينما استنكرت الصحف الإسلاميّة ما رحّبت به الصحف المسيحيّة، فكانت فاتحة نزال عنيف بين الصحافتَين. فقد ردّ أعيان المسلمين على الأقباط بمؤتمر انعقد في مصر الجديدة بتاريخ ٢٩ نيسان (إبريل) ١٩١١، طغى عليه روح الاستنكار والرفض لِما ورد من مطالب في "المؤتمر القبطيّ[2]". وكانت الأزمة قد استشرت عندما ترك الباشا المسلم "مصطفى فهمي" الوزارة، وحلّ محله الباشا القبطي "بطرس غالي"[3] في شتاء

---

١ ـ يرى باحثون محدثون (زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٦٧) أنّ الانسجام الذي بدا جليًّا بين التيّارَين القبطيّ والإسلاميّ، لم يكن ليرضي الإنكليز والأميركيّين، فحاولوا بذر بذور التفرقة بين الأقباط والمسلمين، سواء بإيحاء ذكريات مظالم المسلمين على المسيحيّين، أو بالعمل التبشيريّ البروتستانتيّ وبناء المدارس لاختراق مجتمع الأقباط الأرثوذكسيّين (المونوفيزيّين)، وإذكاء العداوة داخل الكنيسة القبطيّة. وهكذا، فبعد احتلال البريطانيّين لمصر عام ١٨٨٢، سلكوا مع الأهالي سياستَين متناقضتَين: فمن جهة وقفوا موقفًا عدائيًّا من الأقباط، وأقالوهم من وظائفهم بسبب مساندتهم للثورة العرابيّة، ومن جهة ثانية، ولخنق الحركة الوطنيّة المصريّة، أثاروا روح العداء والضغينة بين الأقباط والمسلمين. وكان من نتائج هذه السياسة أن تخبّطت البلاد في صراعات طائفيّة دامت حوالى السنتَين (١٩٠٨ ـ ١٩١٠)، على أثر حادثة "دنشواي الشهيرة". وعلى أثر الأحداث الدامية، انعقد "المؤتمر القبطيّ" في ٦ آذار (مارس) عام ١٩١١، في مدينة أسيوط طرح خلاله المؤتمرون عدّة مطالب أهمّها: جعل يوم الأحد عطلة رسميّة؛ إعتماد الكفاءة في إسناد الوظائف العامّة، دون تمييز بين عنصر وآخر، أو بين دين وآخر؛ قبول أبناء المصريّين في المدارس (الكتاتيب) دون تمييز في الدين؛ ضمان حقوق الأقباط في المجالس النيابيّة؛ المساواة في الإنفاق على جميع المؤسّسات الدينيّة دون تمييز.

٢ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٦٨.

٣ ـ منذ ١٨٨٣، جرى التقليد على تعيين وزير قبطيّ واحد في كلّ وزارة، ثمّ ارتفع العدد إلى اثنَين عام ١٩٢٤ عندما شكّل سعد زغلول وزارته. وفي العقدَين الأوّل والثاني من القرن العشرين، تولّى اثنان من الأقباط رئاسة الوزارة في مصر، وهما بطرس غالي باشا (١٩٠٨ ـ ١٩١٠) ويوسف وهبه باشا (١٩١٩ ـ ١٩٢٠) ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٦٦.

١٩٠٨، فارتاح الأقباط وكفّوا عن التذمّر، بينما سارع المسلمون إلى اغتيال بطرس. وهنا برز مُصلِح آخر متفائل، هو "مصطفى كامل[١]"، مؤسّس الحزب الوطنيّ، أوّل من جمع تحت لواء الوطنيّة، المسلمين والأقباط، وخطب قائلاً،

> إن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنيّة والعادات والأخلاق وأسباب المعاش، ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد... الأقباط أخوة لنا في الوطن.

إلاّ أنّ مصطفى كامل نفسه قد وضع في برنامج الحزب الوطنيّ نفسه: "أحقّية المسلمين دون سواهم، بحجّة أنّهم يدينون بدين الدولة الرسمي"!. ولكنّ الأقباط قد اشتركوا في الأحزاب السياسيّة المصريّة، فكان منهم اثنان في الهيئة التأسيسيّة لحزب الإصلاح الذي تزعّمه الشيخ علي يوسف، واثنان من أبرز أعضاء قيادة الحزب الوطنيّ الذي أسّسه مصطفى كامل، وستّة عشر عضوًا من أصل مئة وثلاثة عشر عضوًا في حزب الأمّة الذي أُسّس عام ١٩٠٧[٢].

ما أن مات مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ وخلفه "محمّد بك فريد" حتّى ساءت العلاقات بين المسلمين والأقباط من جديد. فلقد امتنع محمّد بك عن التأسّف لاغتيال الزعيم القبطيّ بطرس غالي، حتّى إنّه شنّ أعنف هجوم سياسيّ على الأقباط يومذاك. فكانت ردّة فعل الأقباط أن حرّموا على أبنائهم الإنخراط في الحزب الوطنيّ. وهنا، ومثلما جرت وستجري العادة في أيّ من البلدان العربيّة عندما تحاول أقلّية مسيحيّة أن تحقّق لها بعض المكانة أو الكيان، فقد قام المسلمون من خلال ما عُرف بـ"المؤتمر

---

١ ـ مصطفى باشا كامل (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨): صحافيّ وسياسيّ مصريّ من روّاد النهضة الوطنيّة، وُلد وتوفّي بالقاهرة، تعلّم الحقوق في فرنسا فتشبّع بروح الحريّة وأخذ يسعى إلى تحرير مصر من الأجانب فأنشأ جريدة "اللواء" وأسّس "الحزب الوطنيّ" داعيًا إلى استقلال بلاده، من مؤلّفاته "المسألة الشرقيّة".

٢ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص٦٦.

الإسلامي" الذي عُقد في مصر الجديدة، واتّهموا الأقباط بمحاولة "تقسيم الأمّة المصريّة باعتبارها نظامًا سياسيًّا إلى عنصرَين دينيّين: أكثريّة إسلاميّة وأقلّيّة قبطيّة"[1]. وقد يكون ما جاء في تقرير هيئة تنظيم ذلك المؤتمر، أصدق ما يرسم واقع الحال دونما مواربة أو مسايرة:

> إنّ مثل هذا التقسيم يستتبع الوحدة السياسيّة إلى أجزاء دينيّة، أي تقسيم الشيء إلى أقسام تخالفه في الجوهر... إنّ لكلّ أمّة دينًا رسميًّا وذلك ضروريّ بل مشخّص من مشخّصاتها، ودين كل أمّة هو دين حكومتها أو دين الأكثريّة فيها. ولكن من غير المفهوم بالمرّة أن يكون في الأمّة أكثر من دين رسميّ واحد، وعليه فلا معنى للاعتراف بأقليّات دينيّة تعمل في السياسة بهذه الصفة أو تكسب حقوقًا عامّة أكثر من أن تخلي بينها وبين القيام بواجباتها الدينيّة عملاً بحريّة الاعتقاد... وبعد ذلك كيف يمكن الاعتراف بأنّ أقليّة دينيّة تباشر بهذه الصفة الأعمال العموميّة ويكون لها مطالب خاصّة كأنّما هي أقليّة سياسيّة؟ لا يمكن الاعتراف بذلك إلاّ إذا أمكن أن يكون للأمّة دينان في آن واحد، وأن يكون أساس الأعمال في المصالح العامّة هو الدين... فمن الخطأ أن يكون من الأشياء المسلّم بها اعتبار أنّ الأمّة السياسيّة تتألّف من عناصر دينيّة[2].

وتعود دورة الأمر الواقع لدورانها. ويبرز مُصلِح آخر. وتكمل الأقدار سخريتها. فيعترف مؤتمر الصلح، المنعقد بباريس، بعد الحرب العالميّة الأولى، بحقوق بريطانيا على مصر. فتقوم قيامة المصريّين مسلمين ومسيحيّين. ويبرز "سعد زغلول[3]"، ويلحظ

---

١ - تاجر، مرجع سابق، ص٢٥٢، "أعمال المؤتمر" ص٥.

٢ - المرجع السابق.

٣ - سعد زغلول (١٨٥٧ - ١٩٢٧): حقوقيّ وسياسيّ مصريّ، من كبار المجاهدين في سبيل استقلال مصر، تعلّم في الأزهر حيث اتّصل بجمال الدين الأفغاني ومحمّد عبده، تصدّر الوزارة المصريّة ١٩٢٤ وترأس مجلس النوّاب، أسّس "الحزب السعديّ" أو "الوفد"، له خطب معروفة، ضريحه في القاهرة.

خطر إبعاد الأقباط عن عمل يتوقّف نجاحه على اتّحاد مصر جمعاء. وينضمّ الأقباط إلى حركته بحماس. فكانوا أكثر تحمّسًا للملكيّة من الملك نفسه. وراح القساوسة يحضّون على حبّ الوطن من على المنابر، لا بل كان المشايخ المسلمون يقفون إلى جانبهم، خلف المذابح يخطبون في الكنائس... وظهرت الفولكلوريّة: أعلام عليها صلبان تعانق الهلال...

وهكذا نلاحظ أنّ الأقباط قد أحسّوا بالأمان في عهد الأسرة الخديويّة من سلالة محمّد علي باشا "عزيز مصر"، ففجّروا طاقاتهم المكبوتة تعبيرًا عن هويّتهم الثقافيّة والفكريّة، وأسّسوا الجرائد والمجلاّت الدينيّة والعلميّة المتخصّصة... ومع انتشار أفكار عصر الأنوار الفرنسيّ وشيوعها في مصر، برزت فئة من المثقّفين الأقباط تأثّرت بها إلى حدّ بعيد؛ في المقابل ظهرت مجموعة من روّاد "عصر النهضة" نهلت من ذات المعين، ونادت بالجامعة المصريّة إزاء الجامعة الإسلاميّة التي دعا إليها السلطان عبد الحميد الثاني، ودافعت عن خصوصيّة المجتمع المصريّ الذي ما هو، بنظرها، سوى استمرار لتاريخ الفراعنة[١].

في الواقع، على الرغم من الأحداث الدامية، وما تلاها من مؤتمرات، ومن معارك إعلاميّة على صفحات الجرائد، لم تنمُ نزعة إنفصاليّة في صفوف الأقباط ترتبط بقوى خارجيّة، إنّما نحَتْ حركتهم منحًى ثقافيًا فكريًّا تجلّى في مجالَي التعليم والثقافة. ففي مجال التعليم، أدرك الأقباط أن لا مفرّ من إنشاء مدارس قبطيّة أهليّة وطنيّة، إزاء المدارس الإسلاميّة الحكوميّة، والمدارس الإرساليّة الأجنبيّة. وقد تطوّرت هذه المدارس الأهليّة لتصبح مؤسّسات تعليميّة راقية استوعبت أبناء الأقباط والمسلمين معًا.

---

١ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط مرجع سابق، ص ٦٦ ـ ٦٧.

ولطالما أكّد الأقباط على أنّ إنشاء مدارسهم ما هو سوى جزء أساسيّ للتأكيد على الهويّة القوميّة والوطنيّة، والحفاظ عليها. ولمّا كانت هذه المدارس القبطيّة تخضع لإشراف الدولة، وتلتزم بما تضعه من نظم ومناهج دراسيّة، فقد عُنيت باللغة العربيّة إلى جانب عنايتها باللغة القبطيّة. فنتج عن ذلك أدب قبطيّ استمدّ صوره وأساليبه من الأدب العربيّ، وارتكز على الثقافة العربيّة. إنّ هذا التطوّر الثقافيّ قد أدّى إلى نوع من التكامل بين الأقباط والمسلمين، تجلّى بوضوح خلال الثورة المصريّة عام ١٩١٩، حيث اشترك الأقباط في أحداثها، والتفّوا مخلصين حول حزب الوفد الذي كان يتزعّم الثورة. وقد أصبح أحدهم: مكرم عبيد، سكرتير الحزب العامّ في عهد رئاسة مصطفى النحّاس باشا[١].

إنّ هذا الموقف الوطنيّ للأقباط خلال ثورة عام ١٩١٩، فرض حلولاً مقبولة، كانت من قبل تصطبغ بصبغة طائفيّة، كمسألة تمثيلهم في المجالس النيابيّة[٢] لكن بعد ثورة عام ١٩١٩، ونظرًا لتعاظم شعبيّة حزب الوفد وعلى رأسه سعد زغلول وطروحاته الوطنيّة، راح خصوم الوفد من الأحرار الدستوريّين يعملون على إثارة النعرات الطائفيّة بين الأقباط والمسلمين، فروّجوا في صحافتهم أنّ الأقباط يسيطرون على الوفد، ويعملون على صبغ مصر بالصبغة القبطيّة[٣].

وينتهي، في المحيط، نصف الألف العثمانيّ، وأقباط مصر في مهبّ رياح الزمن الآتي.

---

١ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٦٨ ـ ٦٩.

٢ ـ أصبحت نسبة تمثيل الأقباط تتراوح بين ٨ و ١٠,٥% من مجموع أعضاء مجلس النوّاب.

٣ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٦٩.

الفَصلُ السَّادِس

في الزَّمَن المُعَاصِر

بينَ الثَّورَة والاستقلال؛

أقبَاط مصْر بعد ثورة ١٩٥٢؛

في عَهد السَّادات؛

في الزَّمَنِ المُعاصِر.

بين الثورة والاستقلال

إنتهت ثورة الزعيم سعد زغلول* في مصر بنفيه مع بعض أنصاره، على يد الإنكليز، إلى جزيرة "سيشِل"، وعلى أثر ذلك أعلنت الحكومة الإنكليزيّة في تصريح ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٢٢ إلغاء الحماية على مصر، فأصبحت مملكة مستقلّة ذات سيادة. وصدر الدستور في السنة التالية. وعندما توفّي الملك فؤاد سنة ١٩٣٦، خلفه ابنه فاروق الأوّل، وألّف مجلس الوصاية برئاسة "الأمير محمّد علي" وليّ العهد، ليشرف على أحوال الدولة حتّى يبلغ الملك السنّ القانونيّة. وفي العام نفسه تمّ توقيع المعاهدة المصريّة ـ الإنكليزيّة المعروفة بـ"معاهدة الزعفران"، وهي التي أنهت الاحتلال رسميًّا، وجاء فيها وعد الإنكليز بالجلاء الكامل، وألغت "إتّفاقية مونتريه" ١٩٣٧ الامتيازات الأجنبيّة التي كانت تنتقص من سيادة الدولة، وألغي "صندوق الدين العمومي" سنة ١٩٤٠. وبعد الحرب العالميّة الثانية تطلّع المصريّون إلى جلاء الإنكليز عن منطقة قناة السويس، ولكنّ الإنكليز انتهزوا فرصة فساد الحكومة فعملوا على تدعيم نفوذهم، ومن ناحية أخرى كان فاروق سادرًا في لهوه وأطماعه، فتزعزعت ثقة الشعب في ملكه وحكومته. ودخلت مصر مع العرب حرب فلسطين في أيّار (مايو) ـ شباط (فبراير) ١٩٤٩ لمنع قيام دولة إسرائيل، ولكنّ العرب لم يتمكّنوا من إحراز النصر أمام الصهيونيّة. واشتدّ التململ في مصر، ولم يكن هناك بدّ من قيام الثورة[1].

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ٤: ٢٢٨٢.

في هذه الحقبة، سعى القصر إلى تقليص دور الأقباط والتضييق عليهم فحجب عنهم الوظائف العليا، ووضع شروطاً قاسية لبناء الكنائس سنة ١٩٣٧، ومنع المدرّسين الأقباط من تدريس اللغة العربيّة سنة ١٩٤٠. ورغم ذلك، تميّزت هذه الحقبة بجملة تيّارات فكريّة وسياسيّة، تباينت مفاهيمها وطروحاتها حول تحديد هويّة مصر القوميّة والثقافيّة، وقد أورد باحث مصريّ قبطيّ[1] أهمّ هذه التيّارات على الشكل التالي:

تيّار ذو نزعة فرعونيّة، ينطلق من أنّ القوميّة المصريّة قديمة تعود إلى أيّام الفراعنة، وما العهد القبطيّ إلاّ استمرار للحضارة الفرعونيّة. وقد طالب دعاة هذا الاتّجاه بخلق أدب قوميّ مصريّ خاصّ يحلّ محلّ الأدب العربيّ العام، وكان من أبرز وجوه هذا التيّار: لطفي السيّد، عبد العزيز فهمي وغيرهما...؛ تيّار يدعو أصحابُه إلى حضارة بحر متوسّطيّة، منطلقين من أنّ المصريّين ينتمون إلى السلالة الأوروبيّة، وأنّ ثقافتهم تتّصل بالثقافة الأوروبيّة من عهد مدرسة الإسكندريّة، وكان من أبرز وجوه هذا التيّار: سلامة موسى، طه حسين، حسين مؤنس وغيرهم...؛ تيّار ذو اتّجاه أصوليّ إسلاميّ، يدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلاميّة، وإلى إعادة صياغة المجتمع المصريّ صياغة إسلاميّة كاملة بحسب القرآن والسنّة. وكان من قادة هذا التيّار: جمعيّة الشبّان المسلمين، جماعة الإخوان المسلمين، جماعة شباب محمّد، وغيرها...؛ تيّار الفكر العروبيّ، ومنطلقه الانتماء إلى الأمّة العربيّة الواسعة والاهتمام بقضاياها القوميّة والدفاع عنها. وكان للّبنانيّين والسوريّين الذي أمّوا مصر وأنشأوا فيها الصحف والمجلاّت والجمعيّات، الدور الكبير في بروز هذا التيّار. ومن أبرز المنادين به: جمعيّة الاتّحاد العربيّ، عبد الرحمن عزّام، مكرم عبيد، توفيق دوس وغيرهم...

---

١ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط مرجع سابق، ص ٦٩ ـ ٧٠.

وعلى الرغم من انضواء غالبيّة المثقّفين الأقباط في التيّار الأخير، وانفتاحهم على الحركة الوطنيّة المصريّة، فإنّهم ما لبثوا أن عادوا إلى الانطواء، بعض الشيء، نتيجة اعتداءات جماعة الإخوان المسلمين، وقيامهم بحرق كنيسة السويس، والاعتداء على المدارس القبطيّة، وحرق أقباط في الأماكن العامّة، والقيام بأعمال إرهابيّة أخرى. وما كان أمامهم، من أجل ترسيخ هويّتهم الثقافيّة والوطنيّة في آن، إلاّ عرض جملة مطالب، وفي مناسبات شتّى وأهمّها: فصل الدين عن الدولة؛ تمثيلهم في المجالس النيابيّة بما يتناسب وعددهم؛ رفع القيود عن بناء الكنائس؛ السماح لهم بالتعليم الدينيّ أسوة بغيرهم؛ المساواة والكفاءة في تولّي الوظائف وفي الترقيات؛ إعتماد قانون مدنيّ في أحوالهم الشخصيّة؛ مكافحة الحكومة لكلّ شكل من أشكال التمييز والتفرقة[1].

وفي خلال النصف الأوّل من القرن العشرين، واجهت الكنيسة القبطيّة، من جهتها، حركات احتجاج، إمّا إصلاحيّة في جوهرها، وهي من داخل الكنيسة، أو سياسيّة من خارجها. وقد ركّزت الأولى على ضرورة ترقية المستوى العلميّ والثقافيّ لرجال الدين. ومن أجل تحقيق هذا الغرض أسّست "جامعة المحبّة" و"المدارس الأحديّة". وأخذت هذه الأخيرة على عاتقها استقطاب الشباب الأقباط الأرثذوكسيّين، ثمّ اتّسع نشاطها ليشمل أنشطة اجتماعيّة متنوّعة. وقد استطاعت حركات الإصلاح الكنسيّة هذه تحقيق نهضة قويّة للرهبانيّة، فبرز في صفوفها، من خرّيجي المعاهد، بطريرك الأقباط الأرثذوكس "الأنبا شنوده الثالث[2]"، ومكاري السوريانيّ الذي أصبح

١ ـ زخور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٦٩ ـ ٧٠.

٢ ـ البابا شنوده الثالث: بطريرك الأقباط الأرثذوكس الـ١١٧، إسمه العلمانيّ نظير جيد، لقبه البطريركي "بابا الإسكندريّة وبطريرك الكرازة المرقسيّة"، وُلد في مركز أنبوب بأسيوط ١٩٢٣، حصّل الإجازة في الآداب ١٩٤٧ ثمّ بكالوريوس في اللاهوت وتخرّج من الكليّة الإكليريكيّة ١٩٤٩ ثمّ درّس فيها، ترهّب في دير السريان ١٩٥٤ ورسم قسًّا ثمّ قمصًا ١٩٥٦، أسقف التعليم الكنسي ١٩٦٢، انتُخب بطريركًا بالقرعة الهيكليّة خلفًا للبابا كيرلّس السادس ١٩٧١، له مؤلّفات روحيّة عديدة ولاهوتيّة عميقة.

أسقفًا باسم "الأنبا صموئيل"، و"الأنبا غريغوريُس"، و"الأب متّى المسكين"، وغيرهم... وكان الأنبا شنوده يرى أنّ الكنيسة مؤسّسة شاملة مكلّفة بأن تقدّم حلولاً لكلّ المشاكل، وأجوبة لكلّ الأسئلة المتّصلة بالدين والدنيا. أمّا في ما يتعلّق بالحركات السياسيّة، فقد برز "الحزب الديمقراطيّ المسيحيّ"، و"جماعة الأمّة القبطيّة". وكانت هذه الأخيرة، بأساليب عملها وشعاراتها، تشبه إلى حدّ بعيد نظيرتها "جماعة الإخوان المسلمين"... وإذا جاز التعبير، يمكن القول إنّ الأقباط بين ثورتَي ١٩١٩ و١٩٥٢، قد انسحبوا نسبيًّا من ساحة النشاط السياسيّ، ولكنّهم استمرّوا مرتبطين بأهداف النضال الوطنيّ العامّ، ولم يقبلوا مرّة أن يشكّلوا جزءًا من الأقليّات الدينيّة أو العرقيّة التي تطلب الحماية الأجنبيّة، كما انخرطوا في صفوف المدافعين عن عروبة فلسطين عام النكبة ١٩٤٨، كما سيتصدّون لـ"العدوان الثلاثيّ" على بلادهم سنة ١٩٥٦[1].

أقبــاط مصـــر
بعد ثورة ١٩٥٢

سبق وذكرنا أنّه في أواسط القرن العشرين، وبسبب فساد الحكومة وتلهّي الملك فاروق في شؤون خاصّة، اشتدّ التململ في مصر، ولم يكن هناك بدّ من قيام الثورة.

تحقّقت ثورة ٢٣ تمّوز (يوليو) ١٩٥٢ بقيادة الضابط المصريّ جمال عبد الناصر. فقضت على النظام الملكي، وأعلنت النظام الجمهوريّ في ١٨ حزيران (يونيو) ١٩٥٣. وعقدت إتّفاقيّة الجلاء مع بريطانيا في ١٩ تشرين الأول (أكتوبر) أعلنت مصر تأميم قناة السويس في ٢٦ تمّوز (يوليو) ١٩٥٦. ما أدّى إلى "العدوان

---

١ - زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط مرجع سابق، ٧١ - ٧٢.

١٩٥٤، وتمّ الجلاء الإنكليزيّ من منطقة القنال في ١٨ حزيران (يونيو) ١٩٥٦. ثمّ "العدوان الثلاثيّ" من قِبَل إنكلترا وفرنسا وإسرائيل على مصر في ٢٩ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٥٦. وما لبثت القوّات المعتدية أن خرجت من الأراضي المصريّة في كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧. وفي شباط (فبراير) ١٩٥٨، اتّحدت مصر مع سوريا وقامت "الجمهوريّة العربيّة المتّحدة"، وأصبح جمال عبد الناصر رئيسًا لها. ثمّ حدثت حركة انفصاليّة في سوريا بتاريخ ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٦١، فانفصلت الوحدة واحتفظت مصر باسم الجمهوريّة العربيّة المتّحدة. وفي ٢١ أيّار (مايو) ١٩٦٢ قدّم جمال عبد الناصر الميثاق الوطنيّ إلى الأمّة، وهو الميثاق الذي تضمّن برنامجه في التطبيق الإشتراكي. وفي ٢٧ كانون الأوّل (ديسمبر) صدر قانون الإتّحاد الإشتراكيّ العربيّ. وأبرمت إتّفاقيّة بين مصر وسوريا والعراق في ١٧ نيسان (إبريل) ١٩٦٣، تقرّر بمقتضاها قيام دولة إتّحاديّة من الدول الثلاث، غير أنّ هذه الاتّفاقيّة لم تخرج إلى حيّز التنفيذ. وانتُخب جمال عبد الناصر لولاية أخرى لمدّة ستّ سنوات تبدأ في ٢٧ آذار (مارس) ١٩٦٥، وتمّ توقيع اتّفاق الدفاع المشترك بين مصر وسوريا والأردن. إلاّ أنّه في حرب ١٩٦٧، تمكّنت إسرائيل من احتلال سيناء في مصر، ومرتفعات الجولان السوريّة، والضفّة الغربيّة لنهر الأردن. وانعقد مؤتمر القمّة العربيّ بالخرطوم في أيلول (سبتمبر) ١٩٦٧، وقرّر العمل على إزالة آثار العدوان، والدعم الماليّ لمصر والأردنّ من جانب السعوديّة والكويت وليبيا. وانعقدت الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٧، وأصدرت القرار رقم ٢٤٢ الذي يقضي بانسحاب جميع القوّات الإسرائيليّة من الأراضي العربيّة التي احتلّتها بعد ٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٧. وتوفّي جمال عبد الناصر في ٢٨ كانون الأوّل (سبتمبر) ١٩٧٠، فانتُخب محمّد أنور السادات للرئاسة في أيّار (مايو) ١٩٧١، فقام بحركة التصحيح، وتغيّر إسم

الدولة إلى "جمهوريّة مصر العربيّة". وأصدر السادات الدستور الدائم الذي نصّ على مبدأ سيادة القانون في أيلول (سبتمبر) ١٩٧١[1].

ويروي باحثون معاصرون[2] أنّه لمّا قامت ثورة سنة ١٩٥٢ بقيادة مجموعة الضبّاط الأحرار وعلى رأسهم ـ الناصر، وقف منها الأقباط موقفًا حذرًا، يتأرجح بين المعارضة وبين الميل إلى ا طعة السياسيّة، خاصّة وأنّ مجلس قيادة الثورة، وهو أعلى مستويات السلطة، لـم يكن فيه ضابط قبطيّ واحد، في حين تمثّلت فيه جماعة الإخوان المسلمين بأكثر من ضابط. وشهدت هذه المرحلة من تاريخ مصر هجرة متزايدة في صفوف الشباب القبطيّ من أصحاب الكفاءات العلميّة والمهارات. كما بدأت أسر قبطيّة غنيّة هجرة إلى البلدان الأوروبيّة والأميركيّة، حاملة معها جزءًا من ثرواتها. لكنّ الأقباط، في ما بعد، اطمأنّوا بعض الشيء، خاصّة بعد سلسلة تشريعات تخصّ حقوق المواطنين وواجباتهم ومساواتهم، وبعد أن قاوم عبد الناصر استخدام الدين كغطاء لأهداف "الحلف الإسلاميّ" الذي تزعّمته آنذاك المملكة العربيّة السعوديّة بمساندة الولايات المتّحدة الأميركيّة للوقوف في وجه المدّ الناصريّ عربيًّا وإسلاميًّا. أمّا الكنيسة القبطيّة، من جهتها، وكمظهر من مظاهر التكامل الوطنيّ، فقد عبّرت، وعلى رأسها "الأنبا كيرلّس السادس"، عن موقفها المعادي للكيان الصهيونيّ في فلسطين، ونددت بالاعتداءات المتكرّرة لهذا الكيان على الأراضي العربيّة، وذلك عن طريق المحاضرات والبيانات. وذهبت الكنيسة القبطيّة إلى أبعد من ذلك بإعلانها مشروعيّة الكفاح المسلّح ضدّ الإسرائيليّين باعتباره واجبًا مسيحيًّا. على أنّ التحفّظ القبطيّ على النظام قد بقي قائمًا، لأنّ الاتّحاد الاشتراكيّ في مصر، لم يأت بحلّ لمسألة

---

١ - الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ٤: ٢٢٨٢ - ٢٢٨٣.

٢ - زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص٧٤.

التمثيل القبطيّ فيه، فلجأ عبد الناصر إلى تعيين عشرة أعضاء بقرار منه، كان معظمهم من الأقباط. لكنّ هذا الحلّ لم يرضِ زعماء الأقباط في حينه، وقاطعوا العمل السياسيّ. وغابت الزعامات السياسيّة القبطيّة القويّة عن الساحة، لأنّ ملء المراكز بالتعيين كان يأتي بسياسيّين أقباط ضعفاء، غالبًا من غلاة الموالين. لذلك وجدت الكنيسة القبطيّة نفسها، وعلى رأسها الأنبا شنوده، وحدها في الساحة المصريّة، وعليها أن تملأ الفراغ السياسيّ، وتؤثّر على الجماهير القبطيّة. وكان للكنيسة القبطيّة، في هذه الحقبة، فروع ناشطة في المهجر، خاصّة في الولايات المتّحدة الأميركيّة وكندا. وكان الأنبا شنوده يتمتّع بكلّ مقوّمات الزعامة، فهو متعلّم وكاتب وخطيب متمكّن، إلى جانب جَلَده ومثابرته وذكائه[1].

أقبــــاط مِصـــــــر
في عَهد السَّـــادات

في أيلول (سبتمبر) ١٩٧١، أعلن الرئيس المصريّ الجديد محمّد أنور السادات قيام اتّحاد الجمهوريّات العربيّة. وأنهى مهمّة الخبراء السوفيات بمصر في ١٨ تمّوز (يوليو) ١٩٧٢. وبقي يبذل جهودًا مكثّفة على جميع المستويات للعمل على حلّ قضيّة الشرق الأوسط. وفي ٦ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٧٣، عبرت القوّات المصريّة قناة السويس واقتحمت "خطّ بارليف" الحصين وتوغّلت في سيناء حيث دارت حرب طاحنة بينها وبين الجيش الإسرائيليّ على جبهة القناة، ودارت، في الوقت نفسه، معارك ضارية على جبهة الجولان السوريّة بين القوّات السوريّة والإسرائيليّة. أمّا في مصر، فقد حقّقت القوّات الوطنيّة انتصارات باهرة في تلك الحرب. وتقدّم السادات بمبادرة

---

١ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٧٤ ـ ٧٥.

جديدة إلى "ريتشارد نيكسن" رئيس الولايات المتحدة الأميركيّة لحلّ قضيّة الشرق الأوسط بإجراء مفاوضات دوليّة في جنيف، على أن يسبقها فصل القوّات على الجبهتَين المصريّة والسوريّة، وتمّ توقيع اتّفاقيتَي فصل القوّات على الجبهة المصريّة، الأولى في ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٤، والثانية في ٢٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٥، نتيجة الجهود التي بذلها "هنري كيسنجر" وزير الخارجيّة الأميركيّة. كما أُعيدت العلاقات الدبلوماسيّة بين مصر والولايات المتّحدة الأميركيّة. وفي ٥ حزيران (يونيو) ١٩٧٥، أُعيد فتح قناة السويس للملاحة الدوليّة. ثمّ أُعيد انتخاب السادات رئيسًا للجمهوريّة سنة ١٩٧٦، وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧، قام السادات بزيارته الشهيرة إلى القدس التي فتحت باب المفاوضات المباشرة مع إسرائيل باشتراك الولايات المتّحدة الأميركيّة لإيجاد الحلّ الشامل لقضيّة الشرق الأوسط. ونجحت تلك المفاوضات في الوصول إلى اتفاقيتَي "كمب ديفيد" في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٨، ومعاهدة السلام المصريّة الإسرائيليّة في آذار (مارس) ١٩٧٩ كنتيجة لكمب ديفيد، بينما كانت تجري مفاوضات الحكم الذاتيّ للفلسطينيّين لتحقيق النتيجة الثانية. وعلى الصعيد الداخليّ، انتهجت مصر سياسة الانفتاح الاقتصاديّ وأُعيدت الحياة الحزبيّة إلى البلاد وتمّ التخلّي عن نظام الحزب الواحد. وفي ٦ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٨١، اغتيل السادات وانتُخب خلفًا له محمّد حسني مبارك[1].

كان قد تزامن انتخاب الرئيس محمّد أنور السادات رئيسًا لمصر سنة ١٩٧١، مع انتخاب شنوده بابا للإسكندريّة وبطريرك الكرازة المرقسيّة. ولم يكن قد مضى سوى ستّة أشهر على انتخاب البطريرك حين وقع الصدام الأوّل بينه وبين الرئيس أنور

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ٤: ٢٢٨٣.

السادات، وذلك بسبب بناء كنيسة في إحدى ضواحي القاهرة، ومنع الشرطة للأساقفة والرهبان من ممارسة الصلاةِ فيها بحجّة أنّها غير مرخّصة. وانتهت الأزمة بزيارة الرئيس السادات للأزهر واجتماعه بكبار العلماء، تلتها زيارة مماثلة للمقرّ البابويّ القبطيّ، حيث التقى بأعضاء المجمع المقدّس وعلى رأسهم البابا شنوده. وخرج البابا المصريّ الرجل الأقوى، سيّما وأنّ الرئيس السادات كان بحاجة إلى علاقات الأول الواسعة. فالبابا شنوده وسّع علاقات كنيسته القبطيّة ببقيّة كنائس العالم، خاصّة مع بابا روما، وأبدى رغبة بتحقيق الوحدة بين الكنائس. وانطلاقًا من مصلحة مصر ورئيسها، تحرّك البابا شنوده صوب الولايات المتّحدة الأميركيّة، فزارها في أيّار (مايو) ١٩٧٧، وقابل الرئيس الأميركيّ "جيمي كارتر"، برفقة السفير المصريّ في واشنطن "الدكتور أشرف غربال". لذلك ارتبطت الزيارة بتوجّهات الرئيس السادات المنضوية تحت شعار الانفتاح الاقتصاديّ والسياسيّ، وتوثيق العلاقات بالدول الغربيّة الرأسماليّة، وعلى رأسها الولايات المتّحدة الأميركيّة. وعلى الصعيد الداخليّ، سعى النظام المصريّ إلى طرح شعارات ذات توجّهات دينيّة، وجسّدها في الدستور، بحيث أضاف إلى المادّة الثانية من "الإسلام دين الدولة" عبارة "والشريعة الإسلاميّة مصدر رئيسيّ من مصادر التشريع". وابتداء من عام ١٩٧٢، تصالح هذا النظام مع جماعات الإخوان المسلمين، وسمح لهم بإنشاء تنظيماتهم وممارسة نشاطاتهم، فراحوا يضغطون على الحكومة لتبنّي جملة مشاريع قوانين[١]، حملت بذور تصدّع المجتمع المصريّ. وساعد الموقف الرسميّ الذي وقفته السلطة المصريّة، إلى حدّ بعيد، الجماعات الإسلاميّة على بسط نفوذها، فتحكّمت في كثير من أوجه النشاط الاجتماعيّ والثقافيّ في البلاد، مستخدمة، لتحقيق ذلك، شتّى وسائل الترهيب والترغيب. ولمّا استفحل أمر هذه الجماعات،

---

١ ـ من تلك المشاريع: عدم جواز شهادة غير المسلم، فرض واجبات ماليّة على غير المسلمين كالجزية والخراج والعشور...

وطُرحت قضيّة تجاوزاتهم على مجلس الشعب؛ استفحلت اعتداءاتهم على الأقباط والمسلمين من أهل السلطة على حدّ سواء، كعناصر الشرطة والقادة السياسيّين وكبار الموظّفين، إلى أن اغتالوا رئيس الجمهوريّة أنور السادات. وعلى امتداد سبعينات القرن العشرين، ركّز الأقباط، إكليروسًا وعلمانيّين، على تطبيق مبدأ المساواة وتكافؤ الفرص، وعلى حماية الأسرة المسيحيّة من قوانين الشريعة الإسلاميّة، وعلى حماية المسيحيّين من تصرّفات الجماعات الإسلاميّة المتطرّفة قولاً وعملاً[1]. وعلى أثر الاضطرابات الطائفيّة التي عكّرت أجواء مصر عامَي ١٩٨٠ و١٩٨١، أصدر الرئيس أنور السادات في ٥ أيلول (سبتمبر) قرارًا يسحب الاعتراف بالبطريرك شنوده كرئيس أعلى للأقباط. فانزوى البطريرك في أحد أديرة الصحراء. وخفّف الرئيس حسني مبارك من وطأة العزلة المفروضة على البطريرك، إلى أن سمح له بالعودة إلى القاهرة وممارسة مهامه، وذلك في آخر عام ١٩٨٥[2].

أقبـــاط مِصــــــر
في الزّمَنِ المُعاصِر

بعد انتخابه رئيسًا للجمهوريّة المصريّة خلفًا للرئيس السادات، تمكّن الرئيس محمّد حسني مبارك في خلال أقلّ من سبعة أشهر من استرداد سيناء في ٢٥ نيسان (إبريل) ١٩٨٢. وقد عمل مبارك على إعادة إحياء العلاقات المصريّة ـ العربيّة التي كانت قد تعرّضت للقطيعة بعد إبرام مصر معاهدة السلام مع إسرائيل. ونجح مبارك في ذلك. وفي عهده تمكّنت مصر من استعادة "طابا" سنة ١٩٨٩ بعد أن أُحيلت هذه القضيّة إلى

---

١ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط مرجع سابق، ص ٧٤ ـ ٧٦.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٣٥٢.

التحكيم الدوليّ. وقامت مصر بدور فعّال في عمليّة السلام بين العرب وإسرائيل على كافّة المسارات. وأدّى الأخذ باقتصاد السوق الحرّة ومشاركة القطاع الخاصّ في التنمية وتقليص دور القطاع العام إلى تحسّن الوضع الاقتصاديّ[1].

على الصعيد القبطيّ، منذ بداية ثمانينات القرن العشرين، اتّجهت حالة التوتّر في مصر منحًى خطيرًا، بحيث أنّ بعض الجماعات الإسلاميّة المتطرّفة قد أعلنت الجهاد، فواجهته الكنيسة القبطيّة بأنّها على استعداد للدخول في عصر جديد من الاستشهاد على غرار العصر الذي شهدته في القرنَين الثاني والثالث للميلاد، أيّام الأمبرطوريّة الرومانيّة. وهكذا، ولأوّل مرّة منذ بداية ما يُعرف بـ"المسألة الشرقيّة"، برز في مصر مصطلح "الأقليّة" للإشارة إلى الأقباط الذين هم أنفسهم رفضوا هذه التسمية عندما طُرحت أثناء صياغة الدستور المصريّ الأوّل عام ١٩٢٣[2].

للإلمام بحقيقة هذا الواقع، لا بدّ من عودة إلى الوراء، وإن تطلّب ذلك بعض التكرار.

عندما تكوّنت البنية السياسيّة لمصر الحديثة في بداية القرن العشرين، كانت مصر واقعة تحت الاحتلال البريطانيّ، ويمكن اعتبار أنّ البريطانيّين هم الذين وضعوا تلك البنية السياسيّة لمصر الحديثة. وقد رأى "اللورد أفلين بارينغ كرومر" مندوب انكلترا في مصر (١٨٨٣ ـ ١٩٠٧) "أنّ مصر، كمجتمع، لا تمثّل وحدة سياسيّة ذات نمط واحد، إنّما تتكوّن من كيانات تتمثّل في المسلمين المصريّين، والمسلمين العرب، والمسيحيّين الأقباط، والمسيحيّين الأوروبيّين وغيرهم. وأنّ الحكم الذاتيّ، الذي يرعى

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ٤: ٢٢٨٣.

٢ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٧٧.

هذه المصالح المتباينة، قد يحتاج إلى سنين وأجيال، إلاّ إذا قام على أساس انصهار القاطنين في مصر كلّهم في كيان رسميّ واحد. وقد عبّر عن ذلك في إشارته إلى تلك البلاد على أنّها "مصر الدوليّة[١]".

وبالفعل، فقد أنشئت جمعيّة تشريعيّة سنة ١٩١٣ شبيهة بنظام لبنان الأساسيّ، إذ قرّرت مبدأ التمثيل الطائفيّ، فكانت أول مؤسّسة للدولة في مصر الحديثة، يتقرّر في تكوينها هذا المبدأ. ولم تجرَ أيّة تعديلات على ذلك المبدأ عندما أجري مشروع الإصلاح الدستوريّ في تشربن الثاني (نوفمبر) ١٩١٨. وقد كان ذلك من الأسباب الهامّة التي عجلت باشتعال الثورة المصريّة سنة ١٩١٩. وهكذا فعندما صدرت التوكيلات الأولى في ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨ لأعضاء "الوفد"، لم يكن بينهم أحد من الأقباط، وكان ذلك مثار جدل بين وجهاء الأقباط الذين اتّصلوا بسعد زغلول، رئيس الوفد آنذاك، ورشّحوا واصف بطرس غالي، ثاني أبناء بطرس غالي لعضويّة الوفد[٢]. وكان قبول سعد زغلول بعضويّة غالي في الوفد كافيًا لاشتراك الأقباط في شكل فعّال في الثورة المصريّة. والغريب في الأمر أنّ التركيبة التعدديّة السياسيّة التي ثار المسلمون ضدّها على أساس أنّها استعماريّة تقسيميّة، صارت متّبعة في الثورة ذاتها التي وُصفت بأنّها "علمانيّة"، "كما ظهرت الصفة العلمانيّة للوفد في تكوين أيّ لجنة أو اجتماع أو مؤتمر أو مظاهرة وفي كل صحيفة[٣]"، ويحرص بعض الباحثين الأقباط، في التاريخ الحديث لمصر، على أنّ "القبط لم يكونوا بمعزل عن قيادة الحركة

---

١ - Kromer, *The Earl of Modern Egypt*, Vol. II, pp. 598-599.

٢ - راجع: مذكّرات عبد الرحمن فهمي، م١، دار الوثائق التاريخيّة القوميّة بالقلعة، ١: ١١، ١٦؛ بحر د. سميرة، الأقباط في الحياة السياسيّة المصريّة، مكتبة الأنجلو - المصرية (القاهرة،١٩٧٩). ص ٧٩.

٣ - بحر، الأقباط في الحياة السياسيّة المصريّة، مرجع سابق، ص٨٥.

الوطنيّة، ولا عن أيّ من تشكيلات الوفد الدائمة أو الموقّتة في أيّ ظروف، وأنّهم لم يكونوا يمثّلون فيه طائفة معيّنة، ولا كان اختيار أحدهم أو غيرهم يتمّ على أساس الانتماء الطائفيّ، ولا كانوا يشغلون نسبة معينة من عدد أعضاء أيّ تشكيل، إذ لم يكن من أساس للاختيار سوى الإيمان بمبادىء الوفد، ومدى الفاعليّة في النشاط وأداء العمل المطلوب[1]".

على أيّ حال، فقد كان لاشتراك القبط في الثورة المصريّة سنة ١٩١٩، التأثير الفعّال لجهة مواجهة المقولة البريطانيّة، التي وَصفت الثورة المصريّة، يومذاك، بأنّها دينيّة. هذا الاشتراك هو الذي مكّن سعد زغلول من تضمين كلمته التي ألقاها أمام الصحافيّين الإنكليز والأميركيّين في لندن قوله: "إدّعوا أنّ الحركة دينيّة، ولكنّهم رأوا رأي العيّان أنّ مسيحيّي مصر ومسلميها متّحدون اتّحادًا متين القوى، وأنّ المسيحيّين كانوا في مقدّمة القائمين بالمظاهرات، وكان منهم مَن راح بين أوائل الشهداء برصاص الجنود البريطانيّين. وإنّكم لترون بين أعضاء الوفد المصريّ الذين يتشرّفون باستقبالكم اليوم في ضيافتهم، خمسة من المسيحيّين. وقد كان قسوس الأقباط يقومون بالدعوة الوطنيّة في جميع جوامع القاهرة وعواصم الأقاليم، وشيوخ المسلمين يفعلون ذلك في الكنائس[2].

في الواقع، أدّت أجواء الثورة الاستقلاليّة المصريّة ضدّ الإحتلال البريطانيّ، إلى تعاون متماسك بين المسلمين والأقباط في مصر خلال تلك الحقبة التاريخيّة، وعندما حاول البريطانيّون تفكيك عرى ذلك الالتحام الوطنيّ بتعيين قبطيٍّ، هو "يوسف وهبة"، رئيسًا للوزراء، كان الأقباط أوّل من ثار ضد "وهبة"، وكان أحدهم وهو قريب له، أوّل

---

١ - البشرى طارق، مصر الحديثة بين أحمد والمسيح (١٩٧٠) ص١٢٧.

٢ - أبو الفتح محمد، مع الوفد المصري (القاهرة، ١٩٢٠) ص٥٢.

من حاول اغتياله بحجّة أنّه متعاون مع الاحتلال. وغنيّ عن القول إنّ المسلمين كانوا بدورهم رافضين يوسف وهبة وحكومته. وقد أدّى تماسك المسلمين والأقباط في مصر، إبّان تلك الثورة، إلى "مساواة" هؤلاء في موجة الاضطهاد والاعتقال التي تعرّض لها القادة المصريّون عندما قام "اللّورد الأمبي" بإصدار أوامره بهذا الخصوص. هذه المساواة زادت في عرى التماسك، فأجمع زعماء الأقباط والمسلمين على موقف واحد اتّخذوه سنة ١٩٢١ من خلال بيان مشترك أعلنوا فيه أنّهم "أجمعوا كلمتهم ووحّدوا جهودهم ليسلكوا سبيل العمل الذي بدأوا به منذ سنوات". ودعوا الشعب "إلى العمل لاستقلال البلاد استقلالاً خالصًا من شوائب التفرقة والتخاذل، ولأن تعتصم بالاتّحاد الذي هو السبيل لبلوغ غايتها[١]". وكان من أبرز رجال الإنتفاضة المصريّة آنذاك، "وليم مكرم عبيد" القبطيّ، الذي يُعرف بمكرم عبيد، كما سبق وذكرنا، وكان زميلاً لسعد زغلول في الجهاد والنفي والتشريد من أجل مصر، وقد قام بدور فعّال في تلك الثورة، وتجلّت مواهبه في العاصمة البريطانيّة حيث بثّ الدعاية ضدّ الاحتلال البريطانيّ. وكانت اتّصالاته على مستوى سفراء الدول، التي كان لها الأثر الكبير في مجرى الأحداث، سواء بالنسبة للقضيّة الدستوريّة أو القضيّة الوطنيّة. وكان عبيد من دعاة الوحدة العربيّة[٢].

رغم ذلك التلاحم الذي شهدته حقبة الثورة المصريّة إثر الحرب العالميّة الأولى وإبّان الاحتلال البريطانيّ، ما إن بدأت لجنة دستور ١٩٢٣ تناقش مشروع الدستور الذي جاء في أحد بنوده "وجوب تمثيل الأقليّات في المؤسّسات الدستوريّة"، حتّى برزت معارضة مسلمة قاطعة لهذه المسألة التي انتهى نقاشها الطويل إلى تقرير الأغلبيّة عدم

---

١ ـ بحر، الأقباط في الحياة السياسيّة المصريّة، مرجع سابق، ص١٠٥.

٢ ـ راجع: مكرم عبيد، المصريّون عرب، الهلال (إبريل،١٩٣٩) ص ٣٢ ـ ٣٣.

تمثيل الأقليّات. إلاّ أنّ المواد ١ و٢ و١٢ و٢٠ من دستور المملكة المصريّة، الذي صدر به الأمر الملكيّ رقم ٤٢ لسنة ١٩٢٣، قد أوجب "مساواة جميع المصريّين أمام القانون". ولم يتضمّن هذا الدستور، كما لن تتضمّن الدساتير التي ستليه، أي نصّ بشأن تمثيل الأقليّات. بيدَ أن الأقباط بقوا ممثّلين في الحكم حتّى جاءت ثورة تمّوز (يوليو) ١٩٥٢، التي قضت على العهد الملكيّ على يد الضبّاط الأحرار. ولم يكن بين أعضاء قيادة الثورة قبطيّ واحد. وقد سارعت تلك الثورة إلى إلغاء الأحزاب السياسيّة، وكان الأقباط يمارسون من خلال الأحزاب، وخاصّة حزب الوفد، نشاطهم السياسيّ. وإذ شكّلت الثورة "الاتّحاد الاشتراكيّ" بدلاً من الأحزاب، وتولّى الاتّحاد تسمية المرشّحين لمقاعد المجلس التشريعيّ، سقطت عمليًّا المعادلة السابقة التي كانت تقوم على أساس المراعاة المسبقة للمشاركة القبطيّة. ولمّا نفّذت الثورة قوانين التأميم وحدّدت الملكيّة، ورغم أنّ تلك القرارات كانت عامّة وشاملة، فإنّها أصابت بالضرر البورجوازيّة المصريّة وعلى رأسها الأقباط. زاد، إلى كلّ ذلك، في مخاوف الأقباط، أنّ عبد الناصر قد نادى بالقوميّة العربيّة، وأدخل مصر في مشاريع وحدويّة عديدة. وإذ انعدم التمييز في عهده بين العروبة والإسلام، وجد الأقباط أنفسهم مهدّدين بذوبان شخصيتهم الدينيّة. وقد حاول جمال عبد الناصر معالجة هذه المشكلة مستعملاً حقّه، كرئيس للجمهورية، بتعيين عشرة أعضاء في مجلس الشعب بقرار منه، كما سبق أن ذكرنا. فكان يعيّن الأعضاء العشرة من الأقباط. كما كان يعيّن في الحكومة وزراء أقباط من التكنوقراط. على أنّ هذه المعالجة بدت وكأنّها استرضائيّة وليست حقًّا وطنيًّا من حقوق الأقباط. وكان عبد الناصر قد ورث عن العهد الملكيّ مشكلة مطالبة الأقباط ببناء المزيد من الكنائس. فحاول التخفيف من نقمة الأقباط المكبوتة بأن سمح لبطريرك الأقباط كيريلّس، ببناء ٢٥ كنيسة في عهده، بعد أن كان بناء أيّ كنيسة يُعتبر عملاً

غير شرعيّ ويؤدّي إلى اصطدام بالسلطات المحليّة وبالجمعيّات الإسلاميّة. وإذ كان الإخوان المسلمون قد تعاونوا مع الضبّاط الأحرار في ثورة ١٩٥٢، كان لا بدّ لقادة تلك الثورة من أن يبقوا متأثّرين، ولو إلى حين، بالمبادىء الاسلاميّة المتطرفّة لهؤلاء. غير أنّ هذه الثورة قد لجأت، بعد سنتين، إلى تصفية حركة الإخوان المسلمين على يد القضاء بعد أن حاول هؤلاء فرض الوصاية على الحركة الناشئة، وقد بلغ عدد الذين حكمت عليهم محكمة الشعب ٨٦٧ شخصًا، تمّ إعدام ستّة منهم. كلّ هذا لم يمنع من أن تخرج إلى العلن سنة ١٩٥٤ دعوة سريّة كانت قد بدأت تحت الأرض في العهد الملكيّ، تدعو إلى حقّ الأمّة القبطيّة في الاستقلال الذاتيّ. وقد تلقّت هذه الدعوة دعمًا قويًّا من مجلس الكنائس العالميّ، كما تلقّته من المغتربين الأقباط في أوروبّا والولايات المتحدة. "وكان الجسر بين الكنيسة الوطنيّة ومجلس الكنائس العالميّ والمغتربين الأقباط، الأسقف صموئيل الذي قُتل في حادث المنصّة مع خليفة عبد الناصر أنور السادات في خريف ١٩٨٠. وقد ظهر أنّ هناك حسابًا باسمه في أحد البنوك السويسريّة مقداره ١١ مليون جنيه استرليني، وكانت هناك، في الوقت نفسه، وصيّة من الأب صموئيل تحدّد أنّ هذه الأموال أموال الكنيسة، ولا حقّ فيها لأحد غيرها. وبالفعل فقد كانت كلّها تبرعات واعتمادات وُضعت تحت تصرّفه بوصفه أسقفًا للخدمات مسؤولاً عن العلاقات الدولية للكنيسة[١]".

من مراجعة تطورات الأحداث السياسيّة في مصر عبر تاريخها الاسلاميّ يتّضح أمر أكيد، وهو أنّ القاعدة الإسلاميّة المتطرّفة هي التي كانت تشكّل دومًا الخطر على الوجود القبطيّ بشكل عامّ، وعلى المشاركة القبطيّة في الشؤون العامّة بشكل خاصّ،

---

١ ـ هيكل محمد حسنين، خريف الغضب، ص ٣٤٧؛ راجع: السمّاك محمّد، الأقليّات بين العروبة والإسلام، دار العلم للملايين (بيروت، ١٩٩٠) ص٩٨.

حتّى إنّ هذه القاعدة كانت على الدوام عقبة أمام الحكّام المعتدلين، الذين كانوا يحاولون استقطاب الرأي العام القبطيّ، عن طريق إشراك الأقباط في الحكم. وطالما تراجع حكّام عن سياسة تساهل ما، كانوا قد اتّبعوها تجاه الأقباط، بسبب الضغط الذي قام به الإسلاميّون المتطرّفون. وعندما استعاد الإخوان المسلمون نشاطهم العلنيّ في منتصف سبعينات القرن العشرين في ظلّ الحكم الجديد، تخوّف الأقباط من سوء المصير، خاصّة بعد أن كانت المحاكمات التي جرت لهؤلاء الإخوان سنة ١٩٤٨ قد كشفت أوراقًا سريّة تفصح عن أنّ هذه الحركة كانت تعمل "للتحرّر من العدوّ" معتبرة ذلك جهادًا في سبيل الله، وأنّ "العدوّ هو جميع اليهود والنصارى[١]".

في مواجهة هذا التطوُّر شهدت فكرة إحياء القومية القبطيّة رواجًا، وقد بلغ عدد الأعضاء المنتسبين إلى الجمعيّة التي نادت بهذا المبدأ، حوالى مئة ألف عضو. وإذ كان بطريرك الأقباط "الأنبا يوساب الثاني" يتّبع سياسة معتدلة، أقدمت هذه الجماعة القبطية المتطرّفة على خطفه وإجباره على التنازل عن منصبه الدينيّ في تمّوز (يوليو) ١٩٥٤. وعندما برزت في مصر دعوات إسلاميّة علنيّة من رجال رسميّين وإعلاميّين معروفين، زادت ردّة الفعل السلبيّة عند الأقباط، ما أوحى بالعودة، في واقع العلاقات الاسلاميّة في مصر، إلى السلبيّة التي كانت مستشريةً قبل الثورة. من تلك الدعوات ما حمل شعار "الأمّة الاسلاميّة" و "قوميّة مبنيّة على أسس الدين، تربطها فقط شعائر الدين الاسلاميّ مع تجاهل وجود الأديان الأخرى في مصر[٢]". حتّى إنّ نائب رئيس الجمهوريّة في ذلك الوقت، "حسين الشافعي"، راح يتحدّث عن وسائل تدعيم أمّة الإسلام، وذكر: "أنّ الفرعونيّة ما هي إلاّ لفظ علميّ للتاريخ ينبغي ألاّ يكون له موضع

---

١ ـ راجع: بحر، الأقباط في الحياة السياسيّة المصريّة، مرجع سابق، ص١٤٥.

٢ ـ كامل د. عبد العزيز، نائب رئيس الوزراء يومذاك، مجلة الهلال (أيلول ـ سبتمبر ١٩٧٣)

في التطبيق السياسيّ ولا داعي للدعوة إليه[1]". وفي افتتاحيّة لرئيس تحرير مجلّة "المصوّر": "صالح جودت"، وكانت تلك المجلّة شبه رسميّة ورئيس تحريرها يمثّل وجهة نظر الدولة، جاءت دعوة للكفّ عن العمل من أجل الوحدة العربيّة، وللعمل من أجل وحدة إسلاميّة. وقارن "كيفيّة عيش المسلم مطمئنًا في فرنسا وايطاليا وإنكلترا، وهي دول مسيحيّة، فماذا يضير المسيحيّ لو عاش في الوحدة الاسلامية؟[2]".

أخذت تلك الأحاديث الصحافيّة مسار حربٍ إعلاميّة، إذ قام فريق من الأقباط بالردّ على تلك الدعوة، مذكّرًا أصحابها بأنّ "الدول التي ذكرها لم تقم على أساس دينيّ من ناحية، وأنّ الكاتب من ناحية أخرى، قد تجاهل أنّ المسلمين الذين يعيشون في أوروبا إنّما هم أجانب مقيمون موقّتًا... بينما أقباط مصر يعيشون فيها منذ أكثر من خمسين قرنًا، وأنّه ليس في نيّتهم أن يتحوّلوا إلى جاليات أجنبيّة داخل بلادهم[3]".

وفي أواخر سنة ١٩٦١ كان جمال عبد الناصر قد أعلن عن اتّجاهه نحو الاشتراكيّة. وقد لاقى هذا الاتجاه قبولاً بين الأقباط. على أنّ تلك الدعوة الاشتراكيّة قد كلّفت الأقباط غاليًا جدًّا، لأنّ التأميم الذي جرى باسم الاشتراكيّة قد قضى على عدد كبير من الأعمال التي كان يملكها الأقباط الذين كانت خسارتهم في قطاع النقل، داخل القاهرة وبين الأقاليم، بنسبة ٧٥ ٪ من مجموع التأميم في هذا القطاع؛ كذلك الأمر بالنسبة للقطاع الصناعيّ والقطاع المصرفيّ والقطاع الزراعيّ، حيث نُزعت ملكيّة آلاف الأفدنة من الأسر القبطيّة، بينما لم تتأثّر العائلات المسلمة بقوانين الاصلاح تلك. هذا فضلاً عن نزع ملكيّة أراضي أوقاف البطريركيّة والأديرة القبطيّة. وقد وُزّعت

---

١ ـ مجلة الإذاعة والتلفزيون، (أيلول ـ سبتمبر،١٩٧٣)

٢ ـ مجلّة المصوّر المصريّة (١٠آب ـ أغسطس، ١٩٧٣)

٣ ـ مجلّة الأقباط التي تصدرها الهيئة القبطيّة الاميركيّة في نيوجرسي، عدد كانون الثاني (يناير) ـ شباط (فبراير) ١٩٧٤.

تلك الأراضي على الفلاّحين المعدمين المسلمين بنسبة ماية في المايـة. وهكذا فقد بدا واضحًا للأقباط أنّ اشتراكيّة عبد الناصر لم تكن اشتراكيّة ماركسيّة أو لينينيّة، إنّما هي كانت اشتراكيّة قرآنية. خاصّة وأنّ تدابير الحكم، آنذاك، قد طـالت جميع القطاعـات الرسميّة في الدولة، حيث ضُيّق علـى الأقبـاط مـن سياسيّين وموظّفيـن. ومُنـع طـلاّب الأقباط من الالتحـاق بالكلّيـات التابعـة للجامعـة الأزهريّـة. كمـا مُنعـوا مـن تأسـيس أيّ جامعة أو كليّة. وقد تدنّى عدد أساتذة كليّة طبّ الأقباط من ٤٠ بالمئـة إلـى أقلّ مـن ٤ بالمئة. كما مُنع الأقباط من أن يشغلوا وظائف معيّنة رئيسيّة، مثل المحافظين، ورؤساء الجامعـات ووكلائهـا، ومديـري الأمـن، ورؤسـاء مجـالس المـدن، ورؤسـاء وأعضـاء المجـالس العليـا التابعـة لرئاسـة الجمهوريّـة أو رئاسـة الـوزراء كالمجـالس القوميـة المتخصّصة، والمجلس الأعلى للرياضة، وأكاديميّة البحث العلميّ، ورئيس ومستشاري محكمة النقض... هذا طبعًا إضافة إلى نوّاب رئيـس الجمهوريّـة. أمّـا فـي الانتخابـات التشريعيّة، فقد رُتّب قانون الانتخاب بشكل منع وصـول الأقبـاط إلـى مجلـس الأمّـة أو مجلس الشعب أو التنظيمات السياسية[1].

ظاهرة جديدة لبّدت أفق المستقبل القبطيّ في مصـر بـالغيوم السـوداء، هـي بـروز أكثر المنظمات الاسلامية تطرّفًا في منطقة الصعيد، حيث كـان الأقبـاط يشكّلون نسـبة عالية من السكّان. ولا يعتبر قادة الأقباط أنّ مكافحة الدولة لهؤلاء المتطرّفيـن سـتكون قمينة بأن ترفع عنهم كابوس الدعوة الاسلاميّة المتطرّفة. ولا يزال هذا الشعب متمسّكًا بأرضه كما كان. وبما أنّ الكلام المُنزل غير قـابل للتحويـر أو التغييـر، فـإنّ معطيـات المشكلة لا تزال على حالها، إلاّ إذا عاد ربّك وشاء بأن يكون الناس كلّهم أمّة واحدة.

---

١ ـ راجع: بحر، الأقباط في الحياة السياسيّة المصريّة، مرجع سابق، ص ١٤٥ ـ ١٧٧.

الفَصلُ السَّابع

التعدُّدِيَّة القُبطِيَّة

الأقبَاط والكَنيسَة الكاثوليكيَّة؛ نشوء البطريركيّة القبطيّة الكاثوليكيّة؛

مؤتمرات ومَجالِس؛

في الحركة المسْكونيَّة؛

الكنيسَة القبطيّة والبروتستانت.

الأقباط والكنيسة الكاثوليكيّة

على مرّ العصور، بذل الكرسيّ الرسوليّ جهدًا كبيرًا في سبيل الاتّحاد مع الكنيسة القبطيّة الأرثذوكسيّة، بواسطة المرسلين. ففي بداية القرن الثالث عشر، أصدر الكرسيّ الرسوليّ أمره إلى الآباء الفرنسيسكان كي يزوروا أقباط مصر ويبنوا علاقات طيّبة معهم ويعملوا على تقريب وجهات النظر. وكان الآباء الفرنسيسكان يأتون إلى مصر بين الحين والآخر لتقديم الخدمات الروحيّة لأبناء القنصليّات التجاريّة المختلفة الموجودة بمصر، وكان أهمّ مركز لهم في مصر القديمة، وقد أُنشئ دير الآباء الفرنسيسكان عام ١٣٢٥ بإمدادات من رئاسة مشيخة البندقيّة. وتمكّن الآباء الفرنسيسكان بأعمالهم الرسوليّة من إيجاد نواة تكوّنت منها الكنيسة القبطيّة المتّحدة مع روما. وفي عام ١٣٢٧ أظهر البطريرك القبطي كيرلّس السادس الميل إلى الاتّحاد بروما، ولكن لم تسفر عن ذلك نتائج كثيرة. وفي عام ١٦٦٦ أُسّس دير الآباء الفرنسيسكان في أخميم، ثمّ بُنيت خمس كنائس كاثوليكيّة. وتوغّل الآباء الفرنسيسكان في المسير جنوبًا فوصلوا إلى أثيوبيا التي بدأت فيها مفاوضتهم مع أمبراطورها سنة ١٦٧١[1]، ولكنّهم لم يوفّقوا فيها[2]. أمّا أوّل المساعي الرسميّة التي قام بها الأحبار الرومانيّون لتحقيق هذه الوحدة المنشودة، فكانت بمناسبة المجمع الفلورنتينيّ[3]، وهو

---

١ ـ راجع: الكنيسة الأثيوبيّة في الفصل التالي من هذا الكتاب.

٢ ـ موسوعة الأديان في العالم، الكنائس الشرقيّة ٢، مرجع سابق، ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

٣ ـ راجع: الجزء العاشر من هذه الموسوعة.

المجمع المسكونيّ السابع (١٤٣٨ ـ ١٤٤٥) الذي عُقد أولاً بمدينة "فرفرة" ثمّ بمدينة "فلورنسا" في عهد البابا الرومانيّ أوجينيوس الرابع (١٤٣١ ـ ١٤٤٧). وكان من الأهداف الرئيسيّة لذلك المجمع، السعي في الاتّحاد الوثيق بين الكنيسة الكاثوليكيّة والكنائس الشرقيّة الأرثذوكسيّة. وقد أرسلت الكنيسة القبطيّة الأرثذوكسيّة وفدًا إلى روما برئاسة "القمّص أندراوس" ليعلن عن رغبة البابا والشعب القبطيّ في الاتّحاد بروما. وأعلن البابا أوجينيوس الرابع في مراسيم دينيّة بهيجة اتّحاد الأقباط بروما في اليوم الرابع من شهر شباط (فبراير) ١٤٤٢ في كنيسة السيّدة العذراء بفلورنسا. إلاّ أنّه، لأسباب كنسيّة وسياسيّة عدّة، لم يُعمل بهذه الوثيقة في مصر ولم تُحقّق الوحدة بين الكنيستَين.

وبعد انقضاء قرن من الزمن على المحاولة التي جرت في مجمع فلورنسا سنة ١٤٤٢، وفي خلال المجمع التريدنتينيّ[١]، ذهب إلى روما سنة ١٥٦٠ قسّيسان قبطيّان، أحدهما أبرام السريانيّ، يحملان رسالة إلى البابا تعبّر عن رغبة رؤسائهما ورغبة الشعب كلّه في الاتّحاد. فأرسل البابا بيّوس الرابع (١٥٥٩ ـ ١٥٦٥) وفدًا للتفاوض مع البطريرك القبطيّ لتحقيق الاتّحاد ودعا البطريرك إلى الاشتراك في المجمع التريدنتينيّ سنة ١٥٦١. وكاد الاتّفاق أن يتحقّق إلاّ أنّ البطريرك توفّي فجأة، ويزعم الكاثوليك أنّه مات مسمومًا[٢].

إستأنف البابا غريغوريُس الثالث عشر (١٥٧٢ ـ ١٥٨٥) مفاوضات الوحدة الكنسيّة التي كان قد باشرها سلفه، مع بطريرك الكنيسة القبطيّة الأنبا يوأنس الرابع

---

١ ـ المجمع التريدنتينيّ: عُقد في تورانتو إيطاليا ١٥٤٥ ـ ١٥٦٣، حرّم البروتستانت، قرّر إصلاحات كاثوليكيّة.

٢ ـ راجع: تاجر جاك، أقباط ومسلمون، مرجع سابق، ص١٩٧ ـ ١٩٨؛ راجع: الفصل الخامس من هذا الكتاب.

عشر، الملقّب بالمنفلوطيّ، إذ أرسل وفدًا إلى البطريرك. وبدأت مباحثات معه ومعاونيه من أساقفة وكهنة ووجهاء الشعب، وأخذت المفاوضات تسير سيرًا حسنًا أدّى إلى أن عقد البطريرك، بتاريخ ١ شباط (فبراير) ١٥٨٤، في دار قنصل فرنسا، مجمعًا عامًّا. وأدّى البحث مع وفد البابا إلى اتّفاق عام على وضع صيغة رسميّة لإعلان الإيمان. ولكن لم يمضِ أسبوع على هذا الاجتماع التاريخيّ حتّى انقلبت الأحوال، فرفض الجميع، التوقيع على الاتّفاق. ولكن لم ييأس الوفد فعاود الكرّة مرّة أخرى بتوجيهات الكرسيّ الرسوليّ. فأخذوا يحثّون البطريرك على إتمام ما بدأ به وعلى تنفيذ وعده. وبعد التروّي في الأمر، وعدهم البطريرك وعدًا صادقًا بأنّه سيوقّع الإقرار المشار إليه بعد عودته من الإسكندريّة، إلاّ أنّ البطريرك، لسوء الطالع، قد وافته المنيّة فجأة، وكان ذلك في ٥ أيلول (سبتمبر) ١٥٨٤[١].

وفي ٢٠ نيسان (أبريل) ١٥٩٠، كتب البابا سكستُس الخامس (١٥٨٥ ـ ١٥٩٠) إلى البطريرك القبطيّ جبرائيل الثامن يدعوه إلى الاتّحاد الذي كان قد شرع فيه سلفه، كما وجّه البابا رسالة أخرى في اليوم نفسه إلى القمّص يوحنّا، وكيل البطريرك بالإسكندريّة، والذي كان قد تلقّى دروسه العليا في جامعات إيطاليا، وكان يسعى في اتّحاد الأقباط بروما. فكتب إليه البابا طالبًا أن يعمل بجدّ لدى البطريرك لتحقيق هذه الرغبة. وما إن ارتقى البابا اكليمنضس الثامن (١٥٩٢ ـ ١٦٠٥) السدّة البطرسيّة حتّى واصل محاولات البابا سكستّس الخامس لدى البطريرك جبرائيل الثامن، فكتب البطريرك إقرارًا بالاتّحاد بالكنيسة الكاثوليكيّة. وقد كتب البطريرك هذا الإقرار في كانون الثاني (يناير) ١٥٩٧ بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن الإكليروس والشعب

١ ـ موسوعة الأديان في العالم، الكنائس الشرقيّة ٢، ص ١٠٧؛ راجع: الفصل الخامس من هذا الكتاب.

القبطيّ. ووقّعه بإمضائه وخاتمه، ووقّعه أيضًا، من الأساقفة، أسقف الفيّوم والبهنسة وأسقف إسنا وعدد كبير من القمامصة والكهنة والشعب. ولمّا وصل وفد الأقباط إلى روما، دُرست المسألة جيّدًا، وأُعدّت وثيقة الاتّحاد. وكتب البابا اكليمنضس إلى البطريرك جبرائيل الثامن وأعلن كذلك عن قبوله في إنشاء مدرسة قبطيّة في روما. وخُصّص دير القدّيس إسطفانُس داخل أسوار الفاتيكان ليكون مقرًّا لهذه المدرسة وهبة دائمة للأقباط. وفي ٢٥ شباط (فبراير) ١٦٨٤، أرسل البطريرك يوحنّا السادس عشر رسالة إلى البابا الرومانيّ إينوقطيوس الحادي عشر (١٦٤٤ ـ ١٦٥٥) يعلن فيها رغبته الصادقة في الاتّحاد بالكرسيّ الرومانيّ. ولكنّ بعض أعضاء كنيسته تهدّدوه، فنكص على عقبه وقال لسفير البابا: "إنّي لم أشكّ قطّ في استقامة الأمانة الكاثوليكيّة، ولكنّي أخاف القيود والسجون". وبالرغم من كلّ ذلك، ظلّ البطريرك يوحنّا السادس عشر، إلى وفاته سنة ١٧١٨ مشجّعًا أعمال المرسَلين الكاثوليك، ينفّذ، بقدر استطاعته، مشاريعهم النافعة للأقباط، مع الوعظ والخدمة في الكنائس وتأسيس المدارس في القرى والاهتمام بطبع الكتب الطقسيّة. وأخذ في عهده المرسَلون الفرنسيسكان يستوطنون الصعيد[1]. ولمّا انتشرت في مطلع القرن الثامن عشر بين الأقباط فكرة الاتّحاد بالكنيسة الرومانيّة، وانضمّ إليها عدد لا بأس به، أراد الحبر الأعظم اكليمنضوس الثاني عشر أن يشجّع هذه الحركة، ويظهر عطفه عليها، فمنح رهبان مار أنطونيوس (الأقباط) سنة ١٧٣١ دير القدّيس إسطفانوس في روما. وكان البابا لاون الكبير قد وضعه في القرن الخامس تحت تصرّف المصريّين المنفيّين الذين لجأوا إلى روما أثناء الاضطرابات

---

١ ـ ذكر يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٣٥٣. أنّه بعدما جرت في غضون القرن السادس عشر والسابع عشر محادثات وديّة بين بطاركة الأقباط وكنيسة روما، لم تسفر عن نتائج عمليّة، ولمّا كان عدد الكاثوليك ضئيلاً في القرن السابع عشر، فقد عهد البابا إينوسنت الحادي عشر سنة ١٦٨٧ أمر العناية بهم إلى الرهبان الفرنسيسكان في الصعيد، كما أوعز إلى اليسوعيّين بأن يقيموا في القاهرة.

التي اجتاحت مصر عقب المجمع الخلقيدونيّ. وكتب اكليمنضوس الثاني عشر سنة ١٧٣٥ إلى البطريرك يوحنّا السابع عشر رسالة يحرّضه فيها على الاتّحاد، ويذكّره بما حدث في عهد سلفه البطريرك جبرائيل الثامن الذي أوفد إلى روما من قِبَله رسلاً ليوقّعوا صكّ الاتّحاد بالكنيسة الرومانيّة[1].

وإذ أخذ أبناء كنيسة الروم الكاثوليك يؤمّون مصر منذ القرن الثامن عشر، أرسل إليهم البطاركة الأنطاكيّون كهنة من كنائسهم ليهتمّوا بشؤونهم الدينيّة. ونصّب البطريرك الكاثوليكيّ مكسيموس مظلوم أسقفًا عليهم في القاهرة بصفة نائب بطريركيّ سنة ١٨٣٧، كما أقام اللاتين نائبًا رسوليًا سنة ١٨٣٩[2]. وفيما توالت اللقاءات على مرّ العصور والأجيال دون الوصول إلى تحقيق الاتّحاد بين الكنيستَين الكاثوليكيّة والأرثذوكسيّة حتّى انعقاد المجمع المسكونيّ الفاتيكانيّ الثاني (١٩٦٢ - ١٩٦٥) الذي أصدر وثيقتَين في غاية الأهميّة: الأولى "في الحوار المسكونيّ" والثانية "في الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة" وعلاقتها بشقيقتها الأرثذوكسيّة. وقد دعا هذا المجمع بعض ممثّلي الكنيسة القبطيّة الأرثذوكسيّة لحضور جلساته كمراقبين. وقد قام الأحبار الرومانيّون، لا سيّما البابا بولس السادس والبابا يوحنّا بولس الثاني، بمساع متواصلة للحوار الدائم والبنّاء مع الكنيسة القبطيّة الأرثذوكسيّة[3].

---

١ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٣٥٣.

٢ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٣٥٣.

٣ - موسوعة الأديان في العالم، الكنائس الشرقيّة ٢، مرجع سابق، ص ١٠٩.

نشـوء البطريركيّة القبطيّة الكاثوليكيّة

لمّا ازداد عدد الأقباط الكاثوليك فـي مصـر، وضعهم البابا بندكتس الرابـع عشـر (١٧٤٠ ـ ١٧٥٨) تحت سلطة المطران الكاثوليكيّ أثناسيوس أسـقف القـدس القبطـيّ. وبقي المطران أثناسيوس في القدس، وأوكل أمر الأقباط الكاثوليك في مصر إلـى نائبـه العامّ. وخلفه بعد موته يوحنّا فرارجي، ثمّ متّـى ريغـا، وأخـذ كـلّ منهمـا لقـب "النـائب الرسوليّ على الأمّة القبطيّة"، ولـم يقبـلا الرسـامة الأسـقفيّة لعـدم وجـود أسـقف قبطـيّ كـاثوليكيّ يمنحهمـا هـذه الدرجـة المقدّسـة. ولمّـا توفّـي متّـى ريغـا سـنة ١٨٢٢ سـعى باسيليوس بك، أحد وجهاء الأقباط الكـاثوليك لـدى البابـا لاون الثـاني عشـر (١٨٢٣ ـ ١٨٢٩)، في أمر تأسيس بطريركيّة قبطيّة كاثوليكيّة. وقد تدخّل محمّـد علـي نفسـه فـي هذه القضيّة. وكان المرشّح للمنصب البطريركيّ مكسيموس جويّد. لكنّ هـذا المشـروع لم يتحقّق. وتوفّي مكسيموس جويّد سنة ١٨٣١ فخلفه ثاودور أبو كريم الذي توفّي سـنة ١٨٥٤. وأقيم علـى الأقبـاط أسـقفان، همـا أثناسـيوس خـزام الـذي توفّـي سـنة ١٨٦٤، وأغابيوس بيشاي الذي كان رجلاً عالمًا وتوفّي سنة ١٨٨٧[١].

إستمرّ الرهبان الفرنسيسكان والكهنـة الأقبـاط يهتمّـون معًـا بالطائفـة الناشـئة، ويصلّون في الكنائس نفسها. فعقد الطرفان اتّفاقيّة سنة ١٨٩٣ منح الآباء الفرنسيسـكان بموجبها كهنة الأقباط عشر كنائس أكثرها في الصعيد، وأسّس البابا لاون الثالث عشـر (١٨٧٨ ـ ١٩٠٣) سـنة ١٨٩٥ للأقبـاط الكـاثوليك ثـلاث أبرشـيّات فـي الإسـكندريّة وطهطـا والمنيـا، وأقـام المطـران كيرلّس مقـار، مـن تلامـذة الرهبـان اليسـوعيّين فــي

١ ـ بتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

بيروت، نائبًا بطريركيًا في الإسكندريّة. وفي سنة ١٨٩٩ رفعه الحبر الأعظم إلى مقام البطريركيّة. فكان أوّل بطريرك للطائفة القبطيّة الكاثوليكيّة. لكنّه استقال من منصبه سنة ١٩٠٨ وتوفّي سنة ١٩٢٢. ودبّر الطائفة بعده المطران يوسف صدفاوي، فخلفه بعد وفاته سنة ١٩٢٥ المطران مرقس خزام، أسقف طهطا، وأصبح سنة ١٩٤٧ بطريركًا على الكنيسة القبطيّة الكاثوليكيّة واتّخذ اسم الأنبا مرقس الثاني. وتوفّي البطريرك خزام سنة ١٩٥٨ فخلفه البطريرك استفانوس سيداروس الذي اشترك بالمجمع الفاتيكانيّ الثاني. وعلى أثر تقدّمه في السنّ، عيّن الكرسيّ الرسوليّ المطران أندراوس غطّاس مدبّرًا للكنيسة القبطيّة. ثمّ استقال البطريرك سيداروس، فالتأم سينودوس الكنيسة القبطيّة الكاثوليكيّة في ٩ حزيران (يونيو) ١٩٨٦، وانتخب المدبّر الرسوليّ بطريركًا أصيلاً على الإسكندريّة، فاتّخذ اسم استفانوس الثاني غطّاس[١].

للكنيسة القبطيّة الكاثوليكيّة في مصر خمس أبرشيّات، علاوة على الإسكندريّة، وهي أسيوط والأقصى وسوحاق والمنيا وطنطا. ولها سبعون كنيسة، ومدرسة إكليريكيّة، ورهبانيّة نسائيّة للقلب الأقدس أُسّست سنة ١٩١١، ورهبانيّة جديدة للرجال أُسّست سنة ١٩٦٠؛ ويبلغ عدد الأقباط الكاثوليك زهاء ١٠٠ ألف نسمة[٢].

مؤتَمرَات
ومَجالِس

في هذه الأثناء كانت الكنيسة القبطيّة الأرثوذكسيّة قد عرفت نهضة جديدة مع البطريرك كيرلّس السادس (١٩٥٩ ـ ١٩٧١) عقب زمن طويل من الاضطهادات.

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٣٥٤.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٣٥٥.

وانتعشت الحياة الرهبانيّة والحياة النسكيّة في مختلف المجالات. وزار البطريرك كيرلّس إثيوبيا، وسوّى الخلافات التي كانت قائمة بين الكنيستَين القبطيّة والإثيوبيّة. ورأس عام ١٩٦٥ مؤتمر أديس أبابا الذي جمع لأول مرّة رؤساء الكنائس الرافضة للمجمع الخلقيدونيّ. وفتح كنيسته على الحركة المسكونيّة، وأوفد مراقبين للمجمع الفاتيكانيّ الثاني في روما. وفي ٢٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٨ دشّن الكاتدرائيّة المرقسيّة الكبرى، بحضور الرئيس جمال عبد الناصر، والأمبراطور الإثيوبيّ هيلاسيلاسي، وحضر الاحتفال وفد رسميّ من الكنيسة الكاثوليكيّة برئاسة الكاردينال دوفال، رئيس أساقفة الجزائر، الذي أعاد بهذه المناسبة إلى مصر، ذخائر القدّيس مرقس الرسول، مؤسّس كنيسة الإسكندريّة، وكان لهذه المبادرة تأثير كبير على تحسين العلاقات بين الكنيسة الكاثوليكيّة والكنيسة القبطيّة بعد قطيعة طويلة[1].

توفّي البطريرك كيرلّس السادس في ٩ آذار (مارس) ١٩٧١، وانتُخب خلفه الأنبا شنودة في ٣١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧١. وتابع البطريرك شنودا نهضة كنيسته وانفتاحها. فزار اسطنبول ودمشق، وأفريقيا الاستوائيّة وأميركا، وهو أول بطريرك قبطيّ يخرج هكذا من مصر[2]. وقد لبّى البابا شنودة الثالث بطريرك الإسكندريّة على الأقباط الأرثذوكس دعوة الحبر الرومانيّ البابا بولس السادس للذهاب إلى روما، فقدم إلى حاضرة الفاتيكان على رأس وفد من الأساقفة والكهنة ووجهاء العلمانيّين من كنيسته بتاريخ ٥ أيّار (مايو) ١٩٧٣ وهذه هي المرّة الأولى في تاريخ الكنيسة القبطيّة الأرثذوكسيّة التي يحضر فيها بطريرك قبطيّ لمقابلة الحبر الرومانيّ وللتشاور معًا في شؤون الاتّحاد بين الكنيستَين. وفي اليوم العاشر من أيّار (مايو) ١٩٧٣، صدر بيان

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٣٥٢.

٢ ـ المرجع السابق.

مشترك من الحبر الرومانيّ وبابا الإسكندريّة يوضح تقارب الكنستَين، الكاثوليكيّة والقبطيّة من الوجهة العقائديّة، وتمّ تشكيل لجنة حوار مشتركة بين الكنيستَين. وصادفت هذه الزيارات الاحتفالات بالذكرى المئويّة السادسة عشرة لوفاة القدّيس أثناسيوس الكبير، رئيس أساقفة الإسكندريّة المتوفّى عام ٣٧٣. وبهذه المناسبة أعاد معه البطريرك من روما ذخائر القدّيس أثناسيوس[١]. وقد انعقد بين عامَي ١٩٧٤ و١٩٧٨ في القاهرة أربعة اجتماعات مسكونية في غاية الأهميّة. وبتاريخ ٢٣ حزيران (يونيو) وُضعت مبادئ بروتوكول الحوار المسكونيّ بين الكنيستَين الكاثوليكيّة والقبطيّة الأرثوذكسيّة، اعتمدها ووقّع عليها كلّ من البابا يوحنّا بولس الثاني والبابا شنوده الثالث. وفي إحدى الجلسات بتاريخ ١٢ شباط (فبراير) ١٩٨٨ توصّل الطرفان إلى اتّفاق تامّ حول صيغة مشتركة بشأن سرّ تجسّد السيّد المسيح، على النحو الآتي:

> نؤمن بأنّ ربّنا وإلهنا ومخلّصنا يسوع المسيح، الكلمة المتجسّد، هو كامل في لاهوته وكامل في ناسوته، وجعل ناسوته واحدًا مع لاهوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير ولا تشويش، ولاهوته لم ينفصل عن ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين، وفي الوقت نفسه، نحرّم تعاليم كلّ من نسطور وأوطيخا.

وانعقدت في ما بعد اجتماعات ثلاث بين أعضاء لجان الحوار المشتركة في دير أنبا بِوادي النطرون*: في تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩٨٨، ونيسان (إبريل) ١٩٩٠، وأيّار (مايو) ١٩٩١، حول "انبثاق الروح القدس" و"المطهر" دون الوصول إلى حلول نهائيّة.

---

١ ـ المرجع السابق.

في الحركَـة المسكُونيَّـة

بين ٢٦ و٢٨ تشـرين الأوّل (أكتوبـر) ١٩٩١، اجتمـع فـي ديـر الأنبابيشـوي فـي وادي النطـرون بمصـر حوالـى ثمـانين لاهوتيًـا مـن الكنـائس الأرثذوكسـيّة الشـرقيّة والكنائس الكاثوليكيّة، في مؤتمر لاهوتـيّ مسكونيّ. إشـترك فـي المؤتمـر بابـا الأقبـاط شنوده الثالث بطريرك الإسكندريّة للأقباط الأرثذوكس، والبطريرك اسـطفانوس الثـاني غطّاس بطريرك الإسكندريّة للأقباط الكاثوليك، وأساقفة وكهنة وعلمانيّون من الكنيسـة الرومانيّة الكاثوليكيّة ومختلف الكنائس الشرقيّة، ومـن الكنـائس الأرثذوكسـيّة الشـرقيّة: القبطيّة والسريانيّة والأرمنيّة. تكلّـم أوّلاً الأنبـا شـنوده الثـالث، فـأوضح إيمـان الكنيسـة القبطيّة الأرثذوكسيّة في طبيعة المسيح. وفسّـر قـول القدّيـس كـيرلّس الإسـكندريّ عـن طبيعة السيّد المسيح "الطبيعة الواحدة المتجسّدة للإله الكلمة" مركّزًا على ضرورة تأكيد الوحدة في شخص السيّد المسيح وفـي طبيعتـه المتجسّدة. فطبيعـة المسيح هـي طبيعـة واحدة مكوّنة من طبيعتَيـن: طبيعـة إلهيّـة وطبيعـة إنسـانيّة، دون امـتزاج ولا انقسـام، وذلك على مثال الإنسان الذي هو كائن واحد وطبيعة واحدة مركّبـة مـن نفس وجسـد. فالسيّد المسيح يقوم بكلّ أعماله الإلهيّة والإنسانيّة بطبيعته الواحدة المركّبة[1].

وعن موضـوع المجـامع والمجمعيّـة فـي الكنيسـة تحـدّث القمّـص تـادرس يعقـوب ملطي، من الكنيسة القبطيّـة الأرثذوكسيّة، وأظهـر الفـارق الـذي لا يـزال شاسـعًا بيـن الكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة، والكنائس الأرثذوكسيّة الشرقيّة فـي هـذا الموضـوع، ولا سيّما بالنسبة إلى عدد المجامع المسكونيّة وضرورتها وعصمتها والعقـائد التـي أُعلنـت

---

١ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط مرجع سابق، ص ٤٥ ـ ٤٦.

في المجامع التالية لمجمع أفسس (٤٣١م) وكذلك بالنسبة إلى رئاسة بابا روما وأوليّة بعض الكراسي الأسقفيّة[1].

ولقد اتّصف مؤتمر وادي النطرون بجوّ المحبّة والأخوّة والمصارحة. ونهار الأحد في ٢٧ تشرين الأول (أكتوبر) حضر جميع المشتركين في المؤتمر الليتورجيا الإلهيّة التي احتفل بها رهبان الدير الملاصق للمركز البطريركيّ. وفي ختام المؤتمر وزّع قداسة الأنبا شنوده الثالث على الجميع مجموعة كتبه وميداليّة تذكاريّة للمؤتمر[2].

وبين ١٧ و ٢١ شباط (فبراير) ١٩٩٢، عقد بطاركة الشرق الكاثوليك مؤتمرهم الثاني في القاهرة، في ضيافة البطريرك الأنبا اسطفانوس الثاني غطّاس، بطريرك الإسكندريّة للأقباط الكاثوليك. وقد شارك في هذا المؤتمر السيّد البطريرك مكسيموس الخامس الحكيم بطريرك أنطاكية وسائر المشرق والإسكندريّة وأورشليم للروم الكاثوليك، ومار أغناطيوس أنطون حايك بطريرك السريان الأنطاكيّ، ومار نصراللّه بطرس صفير بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للموارنة، ومـا روفائيل الأول بيداويد بطريرك بابل على الكلدان، ويوحنّا الثامن عشر كاسباريان بطريرك الأرمن الكاثوليك، وميشيل صبّاح البطريرك الأورشليميّ للاّتين. وقد بحث المجلس في موضوع الحضور المسيحيّ في الشرق ودوره ورسالته في العالم العربيّ، من خلال ولائه له والتزامه قضاياه المصيريّة العادلة. ورأى المجتمعون أنّه من واجب المسيحيّ أن يسهم في بناء الأخوّة الصادقة بين جميع أبناء الوطن الواحد، ودعوا جميع المؤمنين إلى المساهمة في جميع المجالات العامّة ليصبحوا مؤمنين صادقين ومواطنين مخلصين؛

---

١ ـ المرجع السابق.

٢ ـ المرجع السابق.

وقد أعدّ الآباء رسالة راعويّة توجّه إلى المؤمنين في مناسبة عيد الفصح. كما استمعوا إلى مجموعة من المحاضرين نقلوا إليهم هموم الشعب وتطلّعاته من خلال مواضيع العدل والسلام والتنمية والعمل الثقافيّ والحوار بين الأديان. واستقبل المؤتمر الأنبا شنوده الثالث، بابا الأقباط الأرثوذكس بصحبة وفد من الكنيسة القبطيّة. وتداولوا في أوضاع الكنيسة، وانبثق عن مداولاتهم مجموعة من التوصيات، اتّفق على متابعتها وترجمتها إلى واقع ملموس. وهي تتعلّق بقضايا الحوار الإسلاميّ - المسيحيّ والتنمية وغيرها من المجالات. وقد ألقى البطريرك اسطفانوس الثاني كلمة الافتتاح في ١٨ شباط (فبراير) ١٩٩٢، رحّب فيها بالمجتمعين "على الأرض التي لجأ إليها السيّد المسيح مهاجرًا وجعل منها وطنًا له، والتي كانت دومًا أرض السلام والأمان، وفي رحاب الكنيسة الإسكندريّة التي استقبلت المسيحيّة في شخص مار مرقس الذي أشعل النور المسيحيّ في هذا الوطن منذ بداية المسيحيّة، فسرى الإيمان في قلوب المصريّين المؤمنين بالتوحيد منذ آلاف السنين"... و"في رحاب الكنيسة المصريّة التي عبرت القرون والصعاب، ولم تزل متوهّجة بقداسة تاريخها، وحماس وبهجة حاضرها، ورجاء وثقة مستقبلها، الكنيسة المصريّة التي حفظت على أرض المشرق العربيّ أكبر تجمّع مسيحيّ، وكان لها رسالة مسيحيّة شرقًا وغربًا"، وقال:

إنّ الحضارة العربيّة الرائعة التي ازدهرت وأنارت طوال العصور المتتالية، وكانت نقطة انطلاق للحضارة المعاصرة، هذه الحضارة العربيّة بناها المسلمون والمسيحيّون معًا: لم يتخلّف أجدادنا عن أن يكونوا عونًا وسندًا في المجتمع العربيّ. لم يتخلّف تراثنا عن أن يكون بعضًا من التراث العربيّ والثقافة العربيّة. لم يشعر أجدادنا أنّهم غرباء أو أنّهم مهاجرون، بل إنّ الحضارة العربيّة صهرت المسلمين والمسيحيّين، فكان المجتمع العربيّ، وبخاصّة المجتمع المصريّ، عنصرًا واحدًا وتاريخًا واحدًا...

إنّ الكنيسة المصريّة في الوطن العربيّ بوجه عام وفي مصر بوجه خاصّ، لم ينقطع وجودها في عصر مِن العصور. لقد امتزج إيمانها بهذا الوطن، وعاشت فيه نواة سلام وعلم وحضارة... وجودها يؤدّي رسالة متمثّلة في كنائسها ومدارسها وأنشطتها[1]...

الكنيسـة القبطيّـة والبروتستانـت

لم تجد البروتستانتيّة مجالاً لها في مصر مثل الذي وجدته في لبنان. ففي مصر اعتُبرت الإرساليّات البروتستانتية "عاكسة للاتّجاهات الرئيسيّة للبناء الإستعماري". إلاّ أنّها قد تمكّنت من انتزاع نفر من أبناء الكنيسة القبطية لتؤسّس الكنيسة البروتستانتيّة هناك. وقد بدأت تلك الإرساليّات نشاطها الفعليّ بعد الإحتلال البريطانيّ لمصر. ويبدو أنّ الأسرة المالكة في مصر قد ساعدت، إن لم تكن قد حرّضت، بطاركة الأقباط على محاربة البروتستانتيّة في وادي النيل. فعندما انتقل بطريرك الأقباط، كيريلّس الخامس، إلى أسيوط سنة ١٨٩٧، ليقف في وجه النشاط البروتستانتيّ، وليمنع القبط من إرسال أبنائهم إلى مدارس التبشير، وليأمر الكهنة بأن يطوفوا على المنازل ليحرموا كل أب يرسل أولاده إلى هذه المدارس، إنّما هو سافر على متن باخرة وضعها تحت أمرته الخديويّ إسماعيل. ثمّ أعلنت الكنيسة القبطيّة الحُرُم ضدّ مَن يرسل أولاده إلى هذه المدارس أو يزور مكتباتها أو يقرأ كتبها أو يصادق أحدًا من المبشّرين[2]. وكان

---

١ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ٤٦ ـ ٤٨.

٢ ـ راجع: هوج رينا، الاستاذ الجليل بين مرسَلي وادي النيل، اتّحاد مدارس الأحد وإدارة المطبعة الإنكليزيّة الأميركانيّة (القاهرة،١٩١٧)؛ أسكاروس توفيق، نوابغ الأقباط ومشاهيرهم في القرن التاسع عشر، مطبعة التوفيق (القاهرة،١٩١٠)، ص ١٦٠ ـ ١٩٦؛ عوض جرجس، مُصلح عظيم (القاهرة،١٩١١).

بطريرك الأقباط كيريلّس الرابع (١٨٥٢ ـ ١٨٦٢) الملقّب بـأبي الإصلاح، قد سارع إلى فتح عدد من المدارس، وإلى تطوير التعليم في مدارس الكنيسة القبطيّة عمومًا، ليقطع الطريق على ازدهار أعمال أولئك المبشّرين[1].

على أيّ حال، فإنّ الدعوة البروتستانتية لم تلاقِ لها آذانًا صاغية في مصر. ويلاحظ أحد الباحثين الإنكليز[2] أنّ "تأثير الإرساليّات على المسيحيّين من سكّان البلاد المصريّة كان غير ذي شأن".

أمّا الإرساليّات الأميركيّة فقد انتقلت إلى مصر إبّان النزاعات الدامية التي حصلت في لبنان أواسط القرن التاسع عشر. فللإنجيليّين في مصر كنيسة منذ العام ١٨٦٠، وقد استقلّت عام ١٩٥٨ عن المحفل العام لمشيخيّة الولايات المتّحدة الأميركيّة[3].

---

١ ـ راجع: نجيب يعقوب جرجس، موجز تاريخ بطاركة الإسكندريّة، دار برادى للطباعة (القاهرة،١٩٦٦) ص ١٠٧-١١٠.

٢ - DEURBEN JOHN P., *OBSERVATION IN THE EAST, CHIEFLY IN EGYPT, PALESTINE, SYRIA, AND ASIA MINOR* (NEWYORK,1860) P. 67.

٣ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط مرجع سابق، ص ١٨.

الفَصلُ الثّامِن

الأقبَاط اليَوم

التعدَاد السُكّاني للأقبَاط؛

مسارٌ إنخفَاضيٌ؛

نظرةٌ شُمولِيَة.

التعدادُ السُكّانيّ للأقباط

ليس من إحصاء حول عدد السكّان الأقباط في مختلف مراحل تـاريخ مصـر. إنّما من الثابت أنّ بين سكّان مصر الحاليّين حوالى ٨٨٪ من الأسر القبطيّة القديمة اعتنق تسعة أعشارها الديانة الإسلاميّة. وأوّل إحصاء تقريبيّ ويحتمل الكثير من الجدل، هو ذاك الذي وضعه علماء الحملة الفرنسيّة على مصر عام ١٧٩٨، وفيه أنّ سكّان مصـر آنذاك كانوا يبلغون حوالى مليونَين ونصف المليون نسمة، بينهم ما يقارب ١٧٪ من الأقباط. وقد بلغ عددهم، في مطلع القرن العشرين، حوالى مليون نسمة، أي ما يوازي ١٠٪ من مجموع السكّان في مصر. واستمرّ، طوال هذا القرن، الجدل قائمًا حول تقدير عدد الأقباط، بين الإحصاءات الرسميّة المتتابعة، وتلك التي تعود إلى مصادر الكنيسة القبطيّة الأرثذوكسيّة. ففي حين أوردت الإحصاءات الرسميّة لعام ١٩٧٥ أنّ عدد الأقباط في مصر يبلغ حوالى ثلاثة ملايين من أصل أربعة وأربعين مليونًا، أي بنسبة ٧٪ من المجموع العام، فقد جعلته المصادر القبطيّة يتراوح بين سبعة وثمانية ملايين على الأقلّ، أي بنسبة ١٦ ـ ١٨٪. لكنّ الباحثين الغربيّين انتهوا إلى تقدير أنّ نسبة الأقباط، إلى المجموع العامّ، لا تتعدّى ١٠٪، وبذلك يكون عددهم عام ١٩٨٥، برأي هؤلاء الباحثين، حوالى أربعة ملايين وثمانماية ألف قبطيًّا من أصل مجمل عدد سكّان مصر البالغ ثمانية وأربعين مليونًا[1]. ويرد في مرجع آخر أنّ الأقباط الأرثذوكس

---

١ ـ زخّور توفيق، قصّة الأقباط مرجع سابق، ص ١٦.

يؤلّفون الكنيسة الكبرى في مصر من ناحية العدد، فقد ازداد عددها في القرن الأخير مع ازدياد عدد سكّان مصر فبلغت ٣ أو ٤ ملايين[١].

والكثافة السكّانيّة للأقباط في مصر تتفاوت بين منطقة وأخرى وبين محافظة وأخرى، فتزداد في الصعيد وتقلّ في الدلتا. وأكثر المحافظات كثافة قبطيّة هي أسيوط والمنيا وسوهاج وقنا. وللأقباط وجود ملحوظ في عدد من أحياء القاهرة مثل شبرا والأزبكيّة ومصر الجديدة ومصر القديمة والساحل[٢].

ويبلغ عدد الكنائس القبطيّة في مصر حوالى ١,٤١٣ كنيسة موزّعة في محافظات المنيا وأسيوط وسوهاج والإسكندريّة والغربيّة والقليوبيّة. وفي البلاد حوالى ٣٧ ديرًا، معظمها في المدن. ويتبع هذه الكنائس والأديرة مجموعة مؤسّسات قبطيّة كالمدارس والجمعيّات ومراكز الخدمات الطبيّة، ويصدر عنها مجلاّت دينيّة وعلميّة متخصّصة[٣]. وللكنيسة القبطيّة الأرثوذكسيّة ثلاثون أسقفًا ما عدا البطريرك المقيم في القاهرة، بينهم ٢٦ أسقفًا في مصر، واثنان في السودان، وواحد في إثيوبيا[٤].

١ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٣٥١؛ وهكذا نرى أنّ تقديرات عدد الأقباط في مصر تختلف باختلاف المرجع. والملاحظ أنّ هنلك فارقًا شاسعًا بين أرقام التقارير الرسمية المصريـة التي تذكر أنّ عدد الأقباط في مصر لا يتجاوز المليونَي نسمة، بينما بطريرك الأقباط الأرثوذكس شنودة الثالث أكّد قبل سنوات على أنّ عددهم في مصر وحدها هو ثمانية ملايين نسمة؛ راجع: مفرّج طوني، حرب الردّة، دار الجريدة (بيروت،١٩٧٩) ص ٦٦.

٢ - زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط مرجع سابق، ص ١٧.

٣ - زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط مرجع سابق، ص ١٨.

٤ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٣٥١.

مســـارٌ
إنخفَاضيّ

ومن الملاحظ أنّ المجتمع القبطيّ يواجه انخفاضًا في عـدد أفراده، وفـي مواقعهم الاجتماعيّـة، وهو يتعرّض لجملـة متغيّرات رئيسيّة أهمّها: التحـوّلات الدينيّـة إلـى الإسلام، تحت تأثير ظروف اجتماعيّة واقتصاديّة وتشريعيّة، وذلك بمعدّل سنويّ يزيد على سبعة آلاف شـخص؛ الهجرة الدائمـة فـي صفوف الأقبـاط إلـى كندا والولايـات المتّحدة الأميركيّة وأستراليا، وإلى بعض الدول الأوروبيّة؛ إنّ هذه الهجرة قد أخذت تتزايد، خاصّة منذ أوائل ستّينات القرن العشرين، ففي العام ١٩٦٢ بلغ عدد المهاجرين ٤,٣٩٩ قبطيًّا مقابل ٥٠٦ مسلمين. وبلغ عدد الذين هاجروا عـام ١٩٧٩ حوالـى ١٥٠ ألف قبطيًّا. أمّا هجراتهم إلى البلاد العربيّـة فهي بدرجـة أقلّ بكثير، إنّمـا لهم كنـائس قبطيّة أرثذوكسيّة في عمان وبغداد والكويت ولبنان[١]...

نظـــرةٌ
شمُوليَّة

فـي نظرة شـموليّة نلاحـظ أنّ أكبر مجموعـة مسيحيّة فـي البـلاد العربيّـة هـي المجموعة القبطيّة، مهما اختلفت تقديرات عدد أفرادهـا، فهي تشـكّل أكثر من نصف المسيحيّين في هذه المنطقة من العالم، ويتجمّع الأقبـاط بـأكثريّتهم السـاحقة فـي مصر. بينما مجموعة روم الأرثذوكس في البلاد العربيّة لا يزيد عدد أعضائها علـى المليون ومـائتَين وخمسين ألـف نسمة، تتوزّع علـى خمسـة بلـدان: سـوريا، لبنـان، الأردن،

---

١ - زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ١٧.

فلسطين، مصر. وباستثناء المجموعة المارونيّة يصبح سائر المجموعات أقليّات صغيرة. أما المجموعة المارونيّة فهي، على كثافتها النسبيّة، تتجمّع بأكثريّتها الساحقة في لبنان. وقد شكّلت هذه المجموعة مرجعًا كيانيًا مسيحيًا استقطب سائر الطوائف التي تدين بالكثلكة[1]. وحافظ بالتالي على كيان سياسيّ مسيحيّ فريد من نوعه في البلدان العربيّة. مع الإشارة إلى وجود مجموعة مارونيّة صغيرة في مصر. أمّا الدولة العربية الثالثة التي تضمّ مجموعة كبيرة من المسيحيّين بعد مصر ولبنان، فهي سوريا، التي يقدّر عدد المسيحيّين فيها اليوم بأكثر من مليون نسمة. وبحسب الإحصاء الذي جرى سنة ١٩٦٠ فقد كان يبلغ عدد المسيحيّين في سورية يومذاك حوالى ٦٢٧ ألف نسمة حسب الإنتماء التالي:

روم أرثوذكس ١٨٠ ألفًا، موارنة ١٧٠ألفًا، أرمن كاثوليك ١٢٠ ألفًا، أرمن أرثوذكس ١٢٠ ألفًا، روم كاثوليك ٥٨ ألفًا، سريان أرثوذكس ٥٣ ألفًا، أشوريّون ٢٠ الفًا، سريان كاثوليك ٢٠ ألفًا، بروتستانت ١٤ ألفًا، نساطرة ١٢ ألفًا، لاتين ٧ آلاف، كلدان ٦ آلاف[2].

أمّا في باقي البلدان العربيّة، فالوجود المسيحيّ ليس سوى وجود أقليّة محدودة، يمكن من خلاله الحصول على الجنسيّة في بعض تلك البلدان، كالأردن والعراق مثلاً، بينما لا يستطيع المسيحيّ في دول الخليج أن يحصل على جنسيّاتها. وفي السودان التي يبلغ مجموع عدد سكّانها حوالى ٢٢ مليون نسمة، لا يتجاوز عدد المسيحيّين نسبة الخمسة بالمئة، وهم يتوزّعون على الكنائس البروتستانتيّة والكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة.

---

١ - راجع: الجزء الرابع عشر من هذه الموسوعة.

٢ - راجع: WILLEMART H. ET P., DOSSIER DU MOYEN-ORIENT ARABE, ED. MARABOUT (BELGIQUE,1969) PP. 232-234.

وهم يعيشون في منطقة الجنوب التي لم تهدأ فيها الصراعات منذ أوائل هذا القرن، والتي يشترك فيها السكّان بحسب انتمائهم القبليّ. علمًا بأنّ عدد القبائل السودانيّة يزيد على الخمسماية وثلاثين قبيلة مختلفة الأصل والعرق واللغة والدين، وأنّ نسبة عالية من سكّان جنوبيّ السودان لا تزال تعتنق الوثنيّة.

إنّ هدف الثائرين في جنوبيّ السودان من أبناء الكنائس المسيحيّة هو رفض فرض الشريعة الإسلاميّة عليهم. وقد حاول مجلس الكنائس العالميّ، ومجلس كنائس عموم أفريقيا، التوصّل مع الحكومة السودانيّة إلى إيجاد حلّ نهائي لتلك المشكلة التي لا تزال تتفاعل دمويًا حتّى اليوم، بالنظر إلى الدعم الإثيوبيّ الذي يلقاه المتمرّدون المسيحيّون الذين هم من أصول أفريقيّة.

***

على الرغم ممّا تعرّض له الأقباط، وما يتعرّضون له اليوم، لم يقفوا موقفًا سلبيًا من بلادهم، فهم يعملون في شتّى القطاعات كالتجارة والصناعة والزراعة والخدمات السياحيّة، إلى جانب المهن الحرّة كالأطبّاء والصيادلة والمهندسين والمحامين وأساتذة الجامعات، والموظّفين في القطاعَين العام والخاص. وهم يساهمون عمليًا في بناء ونهضة مصر فكريًا وفنّيًا وعلميًا، ومنهم مَن برز على المستوى السياسيّ محليًا وعالميًا في شتّى مراحل تاريخ مصر الحديث، منذ أيّام أحمد عرابي باشا حتّى يومنا الحاضر[1].

---

١ ـ زخّور د. فرج توفيق، قصّة الأقباط، مرجع سابق، ص ١٧.

الفَصلُ التَّاسِع

الكَنيسَة الإثيُوبيَّة الحَبَشيَّة

إثيُوبيَا أو بلاد الحَبشَة؛ المسيحيَّة في الحبشَة؛
الإنتشَار المسِيحيّ في إثيُوبيا؛ الإسْلام في الحَبشَة؛
في ظلّ حُكم السُلالة السُليمانيَّة؛ بين كنيسَة رومَا والكنيسَة القبطيَّة؛
في التَّاريخ الحديث؛ تَقلُّبات الزمَن المعَاصِر؛ عقيدة الـ"توَاحيـد" في الكنيسَة الإثيوبيَّة؛
الليتورجيَا واللاهوت والحَياة الطقسيَّة والأسرار؛ مجادلات لاهوتيَّة؛
الكنيسَة الإثيوبيَّة الكاثوليكيَّة؛ الفنّ الإثيوبيّ المسيحيّ؛
البنيـة التَّنظيميَّة للكنيسة الإثيوبيّة.

إثيُوبيَا أو بِلاد الحَبشَة

إثيوبيا: كلمة إغريقيّة معناها بلاد الإثيوبيّين، أي بلاد المحروقة وجوههم.

كان هوميروس يفرّق بين الإثيوبيّين الغربيّين، والإثيوبيّين الشرقيّين. وتصوّر "أسخيلوس" أنّ الإثيوبيّين ينتشرون حتّى الهند. ويميّز "هيرودوت" بين الإثيوبيّين ذوي الشعور المجعّدة: الأفريقيّين، والإثيوبيّين أصحاب الشعور المرسَلة: الهنود البدائيّين. ومنذ عهد هيرودوت اشتملت إثيوبيا الأقاليم الواقعة جنوبيّ مصر وشمالي الحبشة.

إثيوبيا أو الحبشة، هي اليوم دولة في شرق وسط أفريقيا، عاصمتها أديسا أبابا. عدد سكّانها نحو ٥,٨٤٢,٠٠٠ نسمة. يحدّها البحر الأحمر شمالاً بشرق، والصومال شرقًا وجنوبًا، وجيبوتي شرقًا، وكينيا جنوبًا، والسودان غربًا. مساحة أراضيها ١,١٥٧,٥٨٥ كلم٢ ، تتألّف من صحاري منخفضة وهضبة جبليّة تصل في بعض أجزائها إلى ارتفاع ٤,٦٢٣م. عن سطح البحر في "رأس داشان". والهضبة وعرة يشقّ الانتقال فيها ويغزر سقوط الأمطار صيفًا، ويذهب أكثر مياه الأمطار إلى بحيرة في الشمال الشرقيّ، وهي منبع النيل الأزرق. وتشكّل "الأمهريّة" اللغة الرسميّة في البلاد، واللغة الإنكليزيّة تُعتبر أهمّ اللغات الأجنبيّة. ولا يُعرف بالتحديد زمن نشوء الأمبراطوريّة الإثيوبيّة، ولكنّ المعروف أنّ اتصالاً ما كان قائمًا بين شبه جزيرة العرب وما يُعرف الآن باسم إثيوبيا في حوالى الألف ق.م.، وتلا ذلك هجرة بعض الساميّين من جنوب غرب شبه الجزيرة العربيّة إلى إثيوبيا، حيث أسّست مملكة

"أكسوم[1]" ومنها نمت الأمبراطوريّة الإثيوبيّـة. وتقـول التقـاليد إنّ مؤسّس المملكـة هـو "منليك" الإبن الأكبر للملك سليمان الحكيم من ملكة سبأ[2].

المسيحيّة في الحبشة

فيمـا تعتبر المراجع الكلاسيكيّة، من منطلـق التقليد، أنّ المسـيحيّة الأرثذوكسـيّة دخلت إثيوبيـا علـى يد القدّيس "فرومنتيوس" الـذي رسـمه أسـقفًا القدّيس "أثناسيوس" بطريرك الإسكندريّة (٢٩٥ ـ ٣٧٣)، ردّ باحثون كنسيّون محدثون[3] نشأة المسيحيّة فـي إثيوبيا إلى القرن الرّابع. وشكّكوا فـي صحّـة روايـات التقليد الشـعبيّ، ولا سيّما منهـا الواردة في كتاب "مجد الملوك KEBRA NAGAST"، التـي تتحـدّث، انطلاقًـا مـن مراجـع كتابيّة[4]، عن تحول مبكّر إلـى اليهوديـة ومـن بعدُ إلـى المسيحيّة، واعتبروهـا مجـرّد أسـاطير لا تقـوم علـى براهيـن تاريخيّـة قاطعـة. فـالمؤرّخ اللاّتينـيّ روفينُس (٣٤٥ ـ ٤١٠)[5] يروي قصّـة اهتداء أسرة "أكسوم" الملكيّة إلى المسيحيّة، بفضـل مسـيحيَّين مـن مدينة صـور يُدعيان "فرومنتيوس[6]" و"أيديسيوس AEDESIUS"، أسِرا بعد غرق سـفينتهما

---

١ ـ أكسوم AXUM : هي اليوم مدينة قبطيّة قديمة في الحبشة، كانت عاصمة مملكة أكسوم القديمة في القرن المسيحيّ الأوّل.

٢ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ١: ٧٤.

٣ ـ أبو جودة الأب صلاح اليسوعيّ، في كتاب: تاريخ الكنيسة، دار المشرق، ط٢ (بيروت،١٩٩٧) ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦.

٤ ـ من هذه المراجع: ١ مل ١٠: ١ ـ ١٣، و٢ اخ ٩: ١ ـ ١٢ من العهد القديم، ورسل ٨: ٢٦ ـ ٣٩ من العهد الجديد.

٥ ـ روفينُس، التاريخ الكنسيّ، ١: ٩.

٦ ـ فرومنتيوس FRUMENTIUS : قدّيس من صور، رسول الحبّة وأسقف أكسوم في القرن الرابع.

قبالة شواطئ إثيوبيا. ويَروي أيضًا أنّ فرومنتيوس رُسم أسقفًا عن يد القدّيس أثناسيوس، بطريرك الإسكندريّة (٢٩٥ - ٣٧٣)، وعاد ثانية إلى أكسوم، ناقلاً معه إليها ليتورجيا كنيسة الإسكندريّة ونظامها، وهذا ما يفسّر وجود الروابط الوثيقة التي طالما قامت بين الكنيسة القبطيّة في الإسكندريّة وكنيسة إثيوبيا.

في حوالى سنة ٤٨٠، شهدت المسيحيّة في إثيوبيا، إبّان عهد الملك "أميدا AMEDA"، نهضة مهمّة بفضل نشاط "القدّيسين التسعة" السّريان، وفقًا للتقليد الإثيوبي. قدم هؤلاء الزهّاد من سوريا وروما وآسيا الصّغرى أو القسطنطينيّة. ولكنّ عقيدتهم كانت لا تزال موضع نقاش، إذ لا يُعرف بعد هل هم من أنصار العقيدة المونوفيزيّة القائلة بوحدة الطبيعة في المسيح، أم من المؤمنين الأرثذوكسيّين. ومن جهة أخرى، يُرجع التقليدُ إلى القدّيسين التسعة الفضل في نقل عدد من الأعمال اللاهوتيّة إلى "الجعز GE'EZ"، إحدى لغات الإثيوبيين العاميّة القديمة. ويُروى أنّهم نقلوا إلى تلك اللّغة أيضًا قوانين القدّيس "باخوميوس[1]" الخاصّة بالحياة الديريّة، وحياة القدّيس أنطونيوس* التي كتبها القدّيس أثناثيوس*، بالإضافة إلى مجموعة من كتابات آباء الكنيسة.

ولا يشكّ هؤلاء الباحثون[2] في أنّ الرّوايات الشعبيّة التي تتحدّث عن اعتناق مبكّر لليهوديّة ومن ثمّ للمسيحيّة، قد تأثّرت ببعض الحقائق التاريخيّة، وأهمها: أنّ اللغة الإثيوبيّة التقليديّة، الجعز، هي لغة ساميّة، تشبه الآراميّة والعبريّة؛ وجود جماعة

---

١ - باخوميوس: عاش في أواسط القرن الرابع أو لعلّه توفي ٣٤٦، مؤسّس الحياة النسكيّة المشتركة، أسّس عدّة أديار في مصر العليا ووضع لها القوانين الرهبانيّة الأولى.

٢ - أبو جودة، مرجع سابق، ص٣٤٦.

يهوديّة في إثيوبيا تدعى "الفلاشا"[١]، وهي جماعة نجهل أصلها التاريخيّ؛ تمسُّك المسيحيّين الإثيوبيّين بعادات وتقاليد من العهد القديم، أهمّها: الختان، والحجّ إلى أورشليم، واحترام راحة السبت، عند بعضهم؛ ما يأتي على ذكر بلاد الحبشة في بعض المراجع الكتابيّة، من العهدَين القديم والجديد... ولكنّ هذه الحقائق التاريخيّة، بنظر بعض الباحثين، لا تجيز استنتاج المعتقد الشعبيّ الإثيوبيّ المشار إليه.

وبحسب رواية كتاب "مجد الملوك KEBRA NAGART"، أنّ ملكة سبأ كانت سيّدة إثيوبيا[٢]! ويقول "مجد الملوك" إنّ الملكة أنجبت ولدًا من الملك سليمان، سمّته "مينيلك MENILEK"، وعندما بلغ أدّه، عقد العزم على الذّهاب من إثيوبيا إلى أورشليم ليتعرّف إلى أبيه. فأُعجب اليهود به، لا سيّما أنّه كان شبيهًا بأبيه، وأراد سليمان استبقاءه لكي يخلفه على العرش. إلاّ أنّ الشّابّ أبى وآثر العودة إلى إثيوبيا، فأذن له أبوه، فرحل ومعه جميع أبكار إسرائيل. وبمؤازرة بعض الكهنة الذين تبعوه، استطاع اختلاس تابوت العهد وجاء به إلى إثيوبيا حيث هو مستقرّ إلى الآن، كما يؤمن بذلك كثيرون، في كنيسة صهيون بأكسوم. وبحسب رواية الكتاب نفسه أيضًا، اعتنق الإثيوبيّون اليهوديّة منذ ذلك العهد، واهتدوا إلى المسيحيّة بفضل عماد ملكة الحبش عن يد "فيليبّس"، على ما جاء في أعمال الرّسل ٨: ٢٦ ـ ٣٩[٣].

---

١ ـ الفلاشا FALÂSHA: قبيلة إثيوبيّة تنتسب إلى حام، تنتمي إلى "جالا" الذي اعتنق اليهوديّة وادّعى أنّه يتحدّر من القبائل اليهوديّة العشر التي نزحت من الأرض المقدّسة، وفي رواية أنّهم أجداد منليك، الإبن المزعوم لسليمان من ملكة سبأ، ولا يُعرف بالضبط تاريخ اعتناقهم اليهوديّة، فمن قائل في عهد سليمان، ومن قائل في أيّام الأسر البابليّة، وقيل في القرن الأوّل مسيحيّ. ويعيش الكثيرون من الفلاشا في قرى خاصّة بهم، فإذا وُجدوا في مدينة إسلاميّة أو مسيحيّة انعزلوا في حيّ بمفردهم. وهم يدّعون أنّ ملوكهم انحدروا من سلالة داود، ولكن بانقراض الأصل الملكيّ ١٨٠٠ خضعوا للمملكة الحبشيّة من دون أن يندمجوا بالأحباش، ولم يتزوّجوا من أجانب قطّ ولا يمارسون تعدّد الزوجات، كانوا مهرة في الزراعة وصناعة الفخّار والمصنوعات الحديديّة والأقمشة، هاجر العديد منهم إلى إسرائيل بعد قيامها.

٢ ـ في حين أنّ سبأ، التي يشير إليها الكتاب المقدّس، هي اليَمَن.

٣ ـ أبو جودة، مرجع سابق، ص٣٤٦.

الإنتشار المسيحيّ
في إثيوبيـــــــــا

إنّ ما تثبته المدوّنات التاريخيّة هو أنّ الحياة الرهبانيّة ما لبثت أن شهدت انتشارًا في سائر أنحاء إثيوبيا، ولا سيّما ابتداءً من القرن السادس، وأمست الأديرة مراكز فكريّة وروحيّة استقطبت العديد من الشبّان الإثيوبيّين الذين تركوا العالم واجتهدوا في حياة زهديّة بقيادة مرشد روحيّ.

في هذه الأثناء، قاد الملك "كالِب إلاّ أصبيحة KALEB ELLA ASBEHA" حملة عَسكريّة في سنة ٥٢٣ على المملكة الحِميريّة[١] في اليمن بعد أن قام ملكها، الذي اعتنق اليهوديّة، باضطهاد المسيحيّين. فاستطاع كالب، بمساعدة الأسطول البيزنطيّ، أن يعبر البحر الأحمر ويقهر الحِميريين. ثمّ بنى عددًا من الكنائس في أنحاء اليَمن. وتمكّن الإثيوبيّون، مع الوقت، من توسيع رقعة انتشارهم في شبه الجزيرة العربيّة، حتّى مطلع القرن السابع، عندما وضع الاجتياح الفارسيّ حدًّا لسيطرتهم في هذه المنطقة. في هذا الوقت، حافظت الكنيسة الإثيوبيّة على علاقات وطيدة مع شعوب البحر المتوسّط، من خلال تبعيّتها لبطريركيّة الإسكندريّة، ورحلات الحجّ المتواصلة التي كان أبناؤها يقومون بها إلى الأراضي المقدّسة[٢].

---

١ ـ حِمير: شعب قديم في بلاد اليمن، وريث الحضارة السبئيّة المعينيّة، ذكرته الآداب اللاتينيّة، دخلت إليه المسيحيّة في عهد الأمبراطور قسطنطيوس ٣٣٧ ـ ٣٦١ على يد ثيوفيلُس الهنديّ الآريوسيّ.

٢ ـ أبو جودة، مرجع سابق، ص٣٤٧.

الإســــلام
في الحَبَشَة

في القرن السابع، دخل الإسلام إثيوبيا[1]. وكان النبيّ العربـيّ نفسـه قد هاجر إلى الحبشة لمّا لجأت قريش إلى العنف في مناهضة رسالته، فراح القرشيّون يُرغمون مَن أسلموا على الرجوع عن الإسلام وشتم الرسول. ومَن لا يفعل، كان يتعرّض للضرب، وأحيانًا للقتل. ولمّا رأى النبيّ ما في أصحابه من المعاناة والعذاب، قال لهم: "إرحلوا مهاجرين إلى أرض الحبشة، إلى النجاشـيّ[2]، فإنّـه يحسن الجوار". فخرج اثنا عشر رجلاً، سرعان ما تبعهم سبعون رجلاً ما عدا الأبناء والنساء. وقد صدق ظنّ النبيّ بأنّ الحبشة النصرانيّة لن تؤذي أتباعه. ولقد كان أولئك الذين انتقلـوا الـى الحبشـة، المهاجرين الأُول، الذين يؤلّفون مع الصحابة، الطبقة النبيلة الراقية في المجتمع الجديد. ولقد كان انتقالهم إلى الحبشة في العام ٦١٥م. حيث بقوا زمنًا[3]. وكانَ من الصحابة من المسلمين الأوائل الذين هاجروا إلى الحبشـة: عمّار بن ياسر، أحد أوّل شـهيدَين فـي الإسلام، كان أقرب المقرّبين إلى النبيّ؛ والمقداد بن الأسود (ت ٣٣ هـ / ٦٥٣م) وهـو صحابيّ من الابطال، نُسب إلى الأسود بن عبد يغوث، وهـو أحد السبعة الذين كـانوا أوّل من أظهر الاسلام، قاتل في بدر وأحد، لقّب "حبّ اللـه وحبّ رسول اللـه"، توفّـي بالمدينة؛ وعبد الرحمن بن عوف، (٣٢ هـ / ٦٥٢ م) القرشـيّ الزهريّ، كـان تـاجرًا واسع الثراء، وهو يُعدّ من أكابر الصحابة، ثامن مَن أسلم في مكّة، وكـان مـن العشـرة

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ١: ٧٤.

٢ ـ النجاشيّ: لغة حبشيّة في الملك والأمير والحاكم أو حتّى الأمبراطور.

٣ ـ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف باليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، طبعة دار الصادر (بيروت، لا.ت.) ٢: ٣١.

المبشّرة، وقد روي عنه حديث كثير؛ وابن مسعود عبد الله (ت ٣٢ هـ / ٦٥٢م) وهو هُذلي، صحابيّ كان سادس مَن أسلم، خدم النبيّ مدة حياته، وكانَ أول من جهر بالقرآن في مكّة، وهو أيضًا أحد المبشّرين بالجنّة، وممّن أتقنوا تلاوة القرآن، وروى عن النبيّ.

وفي وقت لاحق، كتب النبيّ إلى نجاشيّ الحبشة كتابًا عبّر فيه الرسول عن معان هامّة في ما يتعلّق بالمسيحيّة وقد جاء في كتابه هذا:

> بسم الله الرحيم، من محمّد رسول الله إلى النجاشيّ الأفخم ملك الحبشة، سلام أنت، فإنّي أحمد إليك الله الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن. **وأشهد أنّ عيسى بن مريم روح الله وكلمته. ألقاها إلى مريم البتول الطيّبة الحصينة. فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه.** وإنّي أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإنّي رسول الله. وقد بعثَ إليك ابنَ عمّي جعفرًا ونفرًا معه من المسلمين. فإذا جاؤوك فأقرّهم ودع التجبّر. فإنّي أدعوك وجنودك إلى الله فقد بلّغت ونصحت فاقبلوا نصحي. والسلام على مَن اتّبع الهدى[1].

لم تُفدنا المدوّنات بالشيء الكثير عن ماجريات الأمور في إثيوبيا بين هجرة النبيّ وبعض الصحابة إليها وبين القرن الثالث عشر، حيث بدأت تسود فيها الفوضى والقلاقل. ذلك أنّه كان لظهور الإسلام وانتشاره تأثير كبير في مملكة أكسوم، التي أخذت قوّتها البحريّة والتجاريّة تضعف. فانحسرت بقعة سيطرتها الجغرافيّة، وسادتها حقبة تقلّبات سياسيّة بسبب كثرة الثورات، الأمر الذي آل إلى إتلاف ملفّات السلالات التي حكمت قبل القرن الثالث عشر.

---

١ ـ مظهر سليمان، قصة الديانات، دار الرقي (١٩٨٤) ص٤٧٩.

فـــي ظـــلّ حُكـــم السُلالة السُليمانيَّة

لم تعرف مملكة إثيوبيا استقرارًا إلاّ عند وصول السلالة السليمانيّة إلى الحكم سـنة ١٢٧٠. فاستطاع الملك "يكونو أملاك YEKUNO AMLAK" أن يعـزّز السـلطة المركزيّـة، ويحيي التجارة، ويساعد الكنيسة على التقدّم. وأخذت إثيوبيا في التوسّع وبدأت عصـرًا من القوّة فـي القـرن الخـامس عشـر وبدايـة القـرن السـادس عشـر[١]. ووصـل ازدهـار الكنيسة الإثيوبيّة إلى أوجه في عهد الملك "زرْعا يعقوب ZAR'A YÂ'EQOB" (١٤٣٤ ـ ١٤٦٨)، الـذي نجـح فـي توحيـد كنيسـة بـلاده عـن طريـق التوصّـل إلـى تسـوية بيـن "الإفسطائيّين" الذيـن أرادوا مراعـاة سبت اليهـود إلـى جـانب الأحـد المسيحيّ، وبـاقي المسيحيّين المتقيّدين بسلطة بطريرك الإسكندريّة. ولم يقف نشاط الملك عند هذا الحدّ، بل شجّع ترجمة الكتب اللاهوتيّة وكتب الشّرع الكنسـيّ وتأليفهـا، ولعـلّ أبرزهـا كتـاب "مَصْحَفَه بِرهان MASHAFA BERHÂN"، أو "كتاب النّور". أمّا حرص الملك على وحـدة الكنيسة، فلم يقتصر على كنيسة بلاده، بل تعدّاها إلــى الكنيسـة الجامعـة، عندمـا أرسـل مندوبين ليشاركوا في مجمـع فلورنسا (١٤٣٨ ـ ١٤٤٥). وفضـلاً عن ذلـك، حـارب الملك المذكور بدعتَين ظهرتا في القرن الرابع عشر. البدعة الأولى، وعُرِف أنصارهـا باسـم "الميخـائيليّين MIKAÉLITES"، وهـي إحـدى البـدع الغنوصيّـة. أمّـا الثانيـة، فلُقِّـب أنصارها بـ"الإسطفانيّين STÉPHANITES" الذين رفضوا تكريم الصّليب والقدّيسـة مريـم. ولكن، على الرّغم من الاضطهاد، فقد دامت هاتان البدعتان ناشطتَين في بعض الأديرة المنعزلة حتّى النصف الثاني من القرن السادس عشر[٢].

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ١: ٧٤.

٢ ـ أبو جودة، مرجع سابق، ص٣٤٧ ـ ٣٤٨.

بينَ كنيسَـة رومَا
والكنيسَة القبطيَّة

تتحدّث مراجع عن نجاح بعض المرسَلين الفرنسيسكان والدومينيكـان، فـي القرن الرابع عشر، وبعد جهد جهيـد، فـي الدخـول إلـى إثيوبيـا. وعـن أنّـه فـي سنة ١٤٠٤، زارت مجموعـة إثيوبيّيـن رومـا. وابتـداءً مـن سـنة ١٤٨٦، أخـذت البعثـات البرتغاليّـة تزور إثيوبيا لضمان الطرق البحريّة إلى الهند، عن طريق إنشـاء قـلاع علـى شـواطئ البحر الأحمر. ولكنّ ملوك إثيوبيا لم يُظهروا إلاّ القليل من الحماسـة لتطويـر علاقـاتهم الخجولة بالأوروبيّين[1]. وتقول مراجع أخرى بأنّـه فـي القـرن السـادس عشـر، وصلـت إثيوبيـا بعثـات دينيّـة برتغاليّـة، غيـر أنّهـا فشلت فـي تحويـل المسيحيّة الإثيوبيّـة إلـى الكثلكـة[2]. علـى أنّ موقفهـم هـذا، سـرعان مـا تبـدّل، عندمـا اسـتنجد الملـك "لِبنـا دِنغِـل LEBNA DENGEL" بالبرتغاليّين ليوقف زحف أمير "هرار"، "أحمد بن إبراهيم" الغـازي، الذي أخذ يهاجم إثيوبيا ابتداءً من سنة ١٥٢٥، وتوصّل في سـنة ١٥٣١ إلـى السيطرة على معظم أراضيها. فاستجابت البرتغال لطلب الملك وأرسلت قوّات لها تمكّنـت، بعـد أكثر من موقعة، من قتل أمير هرار وتشتيت قوّاته. فكان ذلك بمثابة عصـر جديـد مـن الانفتاح الإثيوبيّ على أوروبّا. فالمرسَلون اليسـوعيّون اقتفـوا أثـر القـوّات البرتغاليّـة، وبدأوا عملهم لدى السلطات الإثيوبيّة لتوحيد كنيسـتهم بالكرسـيّ الرسـوليّ فـي رومـا. فاستطاع الأب "بيرو بابيز PERO PAEZ" أن يُقنع الملك "سوسـينيوس SUSENYOS" سـنة ١٦١٤، بالموافقة على الوحدة. ولكن، بعد وفاة الأب بابيز سنة ١٦٢٢، تعالت أصوات معارضي الوحدة، ولا سـيّما مـن قِبَـل رهبـان الأديـار الذيـن اعـترضوا علـى اسـتبدال

---

١ ـ أبو جودة، مرجع سابق، ص٣٤٧ ـ ٣٤٨.

٢ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ١: ٧٤.

الطقوس الإثيوبيّة القديمة بالليتورجيا اللاتينيّة. فكان بنتيجة ذلك أن أعاد الملك "فاسيلادِس FÂSILÂDES" خليفة سوسينيوس، علاقات كنيسة بلاده ببطريركيّة الأقباط في الإسكندريّة إلى سابق عهدها، وأبعد المرسَلين اليسوعيّين عن إثيوبيا. تجدر الإشارة إلى إنجازَين مهمَّين لهؤلاء المرسَلين في إثيوبيا: مساهمتهم في تنوير الغرب عن تاريخ إثيوبيا وعروقها البشريّة وديانتها؛ ونجاحهم في تبنّي اللغة الـ"أمهريّة AMHARIAT" الشائعة، في الكتابات الدينيّة، بدلاً من لغة الجِعِز الميتة[1].

في التّاريخ الحَديث

يذكر باحثون محدثون[2] أنّ المجادلات اللاهوتيّة لم تتوقّف في إثيوبيا مع رحيل المرسَلين الأوروبيّين عنها، بل تجدّدت في القرن السابع عشر على أثر ظهور تيّار لاهوتيّ في أوساط "إفسطاثيّة" قال بأنّ وحدة الطبيعتَين، الإلهيّة والإنسانية، في المسيح، لم تتمّ إلاّ بعد مسحة العماد. وآلت هذه المجادلة إلى إثارة مجادلة أخرى بعد أن أخذ بعضهم يتكلّم على ولادات ثلاث في التجسّد[3]. وقد أدّت هاتان المجادلتان إلى انقسامات في قلب الكنيسة الإثيوبيّة، وإلى اضطهادات في بعض الأحيان. ونشبت حروب أهليّة عنيفة انتهت سنة ١٨٨٩ دُمّرت في خلالها أعظم آثار إثيوبيا. والمقول إنّ هذا النضال وقع من أجل سلطان زعيم إسمه "كاسا" حكم البلاد ١٨٥٥ ـ ١٨٦٨ باسم "تيودور الثاني". وكانت بريطانيا قد جرّدت حملة عسكريّة على إثيوبيا سنة ١٨٦٧ لتخليص

---

١ ـ أبو جودة، مرجع سابق، ص٣٤٨.

٢ ـ أبو جودة، مرجع سابق، ص٣٤٨ ـ ٣٤٩.

٣ ـ **ولادات ثلاث في التجسّد**: بدعة ما يُعرف بـ"سوست ليدت SOST LEDAT": الكلمة المولود من الآب، والمسيح المولود من مريم العذراء، وابن مريم، ابن الله الآب بالتبنّي.

فريق من الدبلوماسيّين من يده، فهزمته وتولّى الحكم "رأس تيجرا RA'S TIGRA" باسم يوحنّا الرابع[١].

حَرّمَ الملك يوحنّا الرابع (١٨٧٢ ـ ١٨٨٩)، الذي أظهر حماسةً لا تخلو من قلّة التسامح، بدعة "ولادات المسيح الثلاث"، واهتمّ، من مكان آخر، بدعم الدير الإثيوبيّ في أورشليم حيث شرع في بناء كنيسة خارج أسوار المدينة القديمة. وفي سنة ١٨٨٩، لاقى هذا الملك حتفه في ميدان إحدى المعارك ضدّ "المهديّين"، أنصار شيع الإسلام المتعصّبة في السودان. وقد كان للكنيسة الإثيوبيّة، إبّان عهد الملك يوحنّا الرابع، رئيس أساقفة وثلاثة أساقفة جميعهم من المصريّين رسمهم بطريرك الأقباط في الإسكندريّة[٢].

وخلف يوحنّا الرابع "منيلك الثاني الشاويّ MENILEK LE SAWÂ" (١٨٨٩ ـ ١٩١٣). وجاء أنّ هذا الأخير، الذي كان يحكم "شوا"، قد سيطر على الحكم بمساعدة إيطاليا التي عقدت معه معاهدة "أوتيالي" سنة ١٨٨٩. وقد نشأ نزاع بين هذا الأمبراطور وبين الإيطاليّين بسبب تلك المعاهدة التي نصّها الإيطاليّ يعطي بموجبها لإيطاليا حقّ إدارة شؤون الحبشة الخارجيّة، وإذ ألغى منيلك المعاهدة، غزت الجيوش الإيطاليّة إثيوبيا سنة ١٨٩٥ ولكنّها هزمت في معركة "عدوة" سنة ١٨٩٦[٣]. وتميّز هذا الأمبراطور بلباقته الدبلوماسيّة وحسن إدارته ورغبته في تحديث بلاده[٤]، وأقام علاقات وديّة مع فرنسا وبريطانيا[٥]، وأسّس عاصمة جديدة في وسط "شاوا" سمّاها "أديس أبابا"،

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ١: ٧٤.

٢ ـ أبو جودة، مرجع سابق، ص٣٤٨ ـ ٣٤٩.

٣ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ١: ٧٤.

٤ ـ أبو جودة، مرجع سابق، ص٣٤٩ ـ ٣٥٠.

٥ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ١: ٧٤.

أي "الزهرة الجديدة"، وشجّع المرسَلين المصريّين على فتح المدارس والقيام بالأعمال الخيريّة. وتوفّي منيلك سنة ١٩١٣، فخلفه "لِج إياسو LEJJ IYÂSU" الذي لم يتوّج ملكًا، بل حرّمته الكنيسة وتخلّى عن الحكم سنة ١٩١٦، لِما أظهر من تعاطف مع الإسلام وتركيا وألمانيا، الأمر الذي أثار ريبة الإثوبيّين، فتُوّجت "زَوديتو ZAWDITU"، إحدى بنات منيلك الثاني، ملكةً. ولكنّ أحد أبناء عمّ أبيها، "رأس تفرّي مكونين RÂ'S TAFARRI MAKOUNEN"، أخذ يزاحمها على السلطة[1]، فعيّن وصيًّا سنة ١٩١٧[2].

كانت الملكة زَوديتو مسيحيّة متفانية، وحامية للكنيسة شديدة التزمّت. وإبّان عهدها، وتحديدًا سنة ١٩٢٦، توفّي رئيس أساقفة البلاد، فأخذ الإثيوبيّون يطالبون بخليفة من بينهم. فتمّ التوصّل إلى تسوية سنة ١٩٢٩، قضت بتعيين رئيس أساقفة مصريّ: "أبونا كيرلّس"، ورسامة أربع أساقفة إثيوبيّين. وفي ١ نيسان (إبريل) ١٩٣٠، تمكّن "رأس تفرّي" من التغلّب على جيش الملكة في موقعة عسكريّة، فأعلن نفسه امبراطورًا باسم "هيلاسيلاسي"، أي "قوّة الثالوث"، وهو اسمه في العماد. ولكنّ العقد الأوّل من عهده كان في غاية الاضطراب بسبب حربه ضدّ الإيطاليّين (١٩٣٥ ـ ١٩٣٦)، واحتلال هؤلاء بلاده حتّى سنة ١٩٤١[3]. وفي ظلّ الاحتلال الإيطاليّ، طرد رجال الدّين الإثيوبيّون كيرلّس وانتخبوا أحدهم، "أبونا إبراهيم"، رئيس أساقفة. وبعد وفاة إبراهيم، خلفه "أبونا يوحنّا". إلاّ أنّ كيرلّس عاد إلى إثيوبيا سنة ١٩٤١، بُعيد

---

١ ـ ليو جوندة، مرجع سابق، ص٣٥٠.

٢ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ١: ٧٤.

٣ ـ تعرّضت إثيوبيا للغزو الإيطاليّ سنة ١٩٣٥، ورغم أنّ عصبة الأمم قد فرضت على ايطاليا عقوبات اقتصاديّة إلاّ أنّها لم تجدِ نفعًا، ففرّ هيلاسيلاسي إلى الخارج، وضمّت إثيوبيا إلى أفريقيا الشرقيّة الإيطاليّة حتّى ١٩٤١، واستمرّ كفاح الشعب الإثيوبيّ ضد الاحتلال الإيطاليّ، ولم يعد الأمبراطور إلى بلاده قبل الحرب العالميّة الثانية في كانون الثاني (يناير) ١٩٤١، إذ دخل العاصمة مع القوات الإثيوبيّة والبريطانيّة الظافرة في ٥ أيّار (مايو) ١٩٤١.

الاحتلال الإنكليزيّ. فتمّ التوصّل إلى اتّفاق سنة ١٩٤٩، يعيّن بموجبه بطريركُ الإسكندريّة رئيسَ أساقفة إثيوبيا. ولم تتحرّر الكنيسة الإثيوبيّة من وصاية بطريركيّة الإسكندريّة إلاّ في سنة ١٩٥٩، إذ أصبح لها، منذ ذلك التاريخ، بطريركها الخاصّ. إلاّ أنّ تحرّر الكنيسة الوطنيّة هذا كان من عواقبه خضوعها المتزايد للسلطة السياسيّة التي أمست مركزيّة[١].

تقلّبَـــــــــات

الزمَن المعَاصِر

إتّحدت إريتريا[٢] مع إثيوبيا اتّحادًا فدراليًّا سنة ١٩٥٢، ثمّ أصبحت إريتريا محافظة إثيوبيّة سنة ١٩٦٢. ومنذ الستّينات، تعرّض حكم هيلاسيلاسي لعديد من الثورات والانقلابات. ففي كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩٦٠، بينما كان هيلاسيلاسي في البرازيل، حدث انقلاب عسكريّ فاشل للمطالبة بعدالة توزيع السلطة والثروة في البلاد. وفي ما بين ١٩٦١ و١٩٦٧ حدثت مناوشات على الحدود بين إثيوبيا والصومال. وفي أواخر ستّينات القرن العشرين وأوائل سبعيناته، حدثت معارك بين الحكومة المركزيّة والحركة الإنفصاليّة الإريتريّة. وفي ١٩٦٦ قام هيلاسيلاسي بعدّة إصلاحات داخليّة ولكنّ الاضطرابات والمظاهرات قد تزايدت للمطالبة بإصلاحات أكثر[٣]. وفي ١٢

---

١ ـ أبو جودة، مرجع سابق، ص٣٤٩ ـ ٣٥٠.

٢ ـ إريتريا: كانت من مقاطعات الحبشة، هي اليوم جمهوريّة في شمال شرق أفريقيا على البحر الأحمر، عاصمتها أسمرة، عدد سكّانها حوالى ٣،٨٤٢،٥٠٠ نسمة، منطقة زراعيّة يسكنها رعاة من أصول حاميّة، كانت ضمن ممتلكات إثيوبيا حتّى القرن السادس عشر حين استولى عليها العثمانيّون، خضعت لحكم عدد من الزعماء المحليّين من القرن السابع عشر حتّى التاسع عشر، استعمرتها إيطاليا ١٨٩٠، طرد البريطانيّون الإيطاليّين منها ١٩٤١، منحت عصبة الأمم إريتريا لأثيوبيا ١٩٤٩، انضمّت إلى الحبشة ١٩٥٢، استقلّت وأصبحت جمهوريّة ١٩٩٣ بعد ثورة استمرّت قرابة ثلاثين سنة.

٣ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ١: ٧٤.

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٤، أطاح الجيش بالأمبراطور هيلاسيلاسي بعد تردّي الأوضاع الاجتماعيّة وانتشار المجاعة في البلاد. وما لبث الإنقلابيّون أن أعلنوا قيام الجمهوريّة الإشتراكيّة الإثيوبيّة. ولكنّ الثورة لم تقف عند هذا الحدّ، بل بدأت تنتهج سياسة تأميم المؤسّسات، في ظلّ حكم الكولونيل "مانغستو هايلا مريم"، بطريقة حاسمة. ففي مطلع ١٩٧٥، أممت المصارف والشركات، ولاحقًا، في السنة نفسها، أممت الملكيّات الخاصّة في المدن. وفي ٢٢ آذار (مارس) ١٩٧٦، أصبحت البلاد جمهوريّة شعبيّة ذات نهج ماركسيّ لينينيّ متشدّد[1]. وفي سنة ١٩٩١ نجحت حرب العصابات في طرد مانغستو من البلاد واستولى ثوّار "تيغرا" على أديس أبابا وأقاموا حكومة موقّتة برئاسة "ميليس زناوى"، كما انتصر الإريتريّون وحصلت إريتريا على الاستقلال سنة ١٩٩٣. وفي سنة ١٩٩٥ أصبح "تيغاسو غيدادا" رئيسًا لإثيوبيا[2].

في ما يختصّ بالكنيسة، فهي لم تَسلَم من تداعيات الانقلاب، إذ صودر جزء كبير من ممتلكاتها في سنة ١٩٧٥. وفي شباط (فبراير) ١٩٧٦، أوقفت الحكومة العسكريّة البطريرك "توفلوس TEWOFLOS"، ووضعته في الإقامة الجبريّة حتّى تمّوز (يوليو) ١٩٧٩. ومذ ذاك التّاريخ فُقد له كلّ أثر. وقد عُقد سينودس في ٧ تمّوز (يوليو) ١٩٧٦ انتخب بطريركًا بديلاً هو "أبونا تكلا حايمانوت ABUNA TAKLA HÂYMÂNOUT". وفي السنة التالية أُعلنت التغييرات في تشكيل مجمع الأساقفة، الأمر الذي أحدث صدمة، إذ أُحيل ثمانية أساقفة، رُسموا في عهد الأمبراطور، إلى التقاعد. وبعد وفاة البطريرك حايمانوت، في ٦ حزيران (يونيو) ١٩٨٨، انتُخب "أبونا ماركوريوس MÂRQOREWOS" خليفة له.

---

١ ـ أبو جودة، مرجع سابق، ص٣٤٩ ـ ٣٥٠.

٢ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ١: ٧٤.

عقيدة الـ"تَوَاحيـد"
في الكنيسَة الإثيوبيَّة

تعترف الكنيسة الإثيوبيّة، على غرار الكنيسة القبطيّة، بالمجامع المسكونيّة الثّلاثة الأولى[1]. وبالمقابل، لا تعترف الكنيسة الإثيوبيّة بالمجمع الخلقيدونيّ[2]. وصرّح باحثون كنسيّون محدثون[3] أنّه ليس بوسعهم تحديد تاريخ اعتناق المونوفيزيّة في إثيوبيا لقلّة الوثائق التاريخيّة. ولكن من الأرجح أن يكون ذلك قد حدث في أعقاب موقف كنيسة الإسكندريّة من المجمع الخلقيدونيّ سنة ٤٥١. إلاّ أنّ كنيسة إثيوبيا لا تستعمل كلمة "مونوفيزيّة" لتعرّف عن نفسها، بل "تواحيدو TAWÂHEDO" أي "توحيد UNIFICATION". فهي: "الكنيسة الأرثذوكسيّة التوحيديّة الإثيوبيّة EGLISE ORTHODOXE UNIFIÉE DE L'ETHIOPIE". وفي كلمة "توحيد" إشارة إلى وحدة الطبيعتَين الإلهيّة والإنسانيّة في المسيح. غير أنّ عزلة إثيوبيا الجغرافيّة حالت دون تأثّر البلاد بالمناظرات اللاهوتيّة التي أعقبت المجمع الخلقيدونيّ، واستنفرت الكنائس الشرقيّة، وسبّبت اضطهادات كثيرة.

---

١ ـ المجامع المسكونيّة الثلاثة الأولى: مجمع نيقيا ٣٢٥، حرّم آريوس ودحض معتقده القائل بأنّ الكلمة ليس بإله، بل خليقة ثانويّة أو خاضعة؛ ومجمع القسطنطينيّة ٣٨١، أصدر قانون إيمان سُمّي القانون النيقاويّ القسطنطينيّ، وأنهى المناظرات الأريوسيّة، وحرم البدعة المقدونيّة التي كانت تشكّ في ألوهة الروح القدس؛ ومجمع أفسس ٤٣١، حكم على تعليم نسطور القائل بوجود شخصَين في المسيح والرافض إطلاق لقب "والدة الله" على مريم العذراء.

٢ ـ المجمع الخلقيدونيّ: عُقد في خلقيدونيا ٤٥١، أدان أوطيخا صاحب المذهب القائل بوحدة طبيعة المخلّص وبعدم التساوي في الجوهر بين جسد المسيح وجسد الإنسان، عزل ديوسقورس بطريرك الإسكندريّة.

٣ ـ أبو جودة، مرجع سابق، ص٣٥٢.

الليتورجيا واللاهوت

والحَياة الطقسيَّة والأسرَار

تَعتبرُ الكنيسة الإثيوبيّة، على غرار الكنيسة القبطيّة، أنّ الكتاب المقدّس هو القاعدة والمرجع لكلّ ما يتعلّق بمسائل الإيمان. ومن المرجّح أنّ أول نصّ كتابيّ نُقل إلى لغة الجعِز هو الإنجيل، وربّما تمّ ذلك في النصف الثاني من القرن الخامس، الذي شهد انتشارًا واسعًا للمسيحيّة في إثيوبيا. وبحسب التقاليد أنّ الترجمة الكاملة للكتاب المقدّس قد أُنجزت مع ترجمة سفر الجامعة سنة ٦٧٨. وقد خضعت الترجمة الكاملة هذه لأكثر من مراجعة كان آخرها في مجرى القرن الرابع عشر. تجدر الإشارة، في هذا المجال، إلى أنّ الكنيسة الإثيوبيّة لا تعترف بسفرَي المكابيّين، ولكنّها، من جهة أخرى، تُدخل في لائحة أسفارها المقدّسة عددًا من الكتب المنحولة[1]، مثل: "أخبار باروك"، و"صعود أشعيا"، و"كتاب أخنوخ"، و"كتاب اليوبيلات"، و"كتاب الرّاعي"، وغيرها. أمّا في ما يختصّ بتفسير الكتاب المقدّس، فالإثيوبيّون يؤثرون الاستعانة بآباء الكنيسة، لا سيّما منهم القدّيس "باسيليوس"، والقدّيس "غريغوريُس النازيانزيّ"، و"القدّيس النيصيّ"، و"القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم" و"القدّيس كيرلّس الإسكندريّ"، فضلاً عن بعض الآباء السريان والرومانيّين. ويُعتبر كتاب "هَيْمَانوتَه أبّاو HAYMÂNOTA A'BBÂW"، أي "إيمان الآباء"، عملاً نموذجيًا في هذا الصدد، إذ يشتمل على مختارات في أصول العقيدة والدفاع عن الإيمان، للاهوتيّين تقليديّين يقارب عددهم الخمسين. وقد نُقل هذا الكتاب عن العربيّة إلى لغة الجعِز إبّان عهد الملك الاسكندر (١٤٧٨ ـ ١٤٩٤)، وفي وقت لاحق، سنة ١٩٦٧، إلى "الأمهريّة AMHARIQUE"[2].

---

١ ـ نحل نحلاً القول: أضاف إليه قولاً قاله غيره وادّعاه عليه.

٢ ـ أبو جودة، مرجع سابق، ص٣٥٢.

إختلفت مواضيع الأدب الجدليّ وأسلوبه عند الإثيوبيّين باختلاف العصور ومقتضياتها، ولكنّ غايته بقيت واحدة، ألا وهي إظهار الإيمان المسيحيّ، سواء أكان ذلك إزاء الوثنيّة أم الإسلام أم الهرطقات، مع التشديد على المونوفيزيّة. وثمّة كتاب ظهر سنة ١٤٢٤ بعنوان "مَصْحَفَة مستير MASHAFA MESTIR"، أي "كتاب السرّ"، وفيه دحض للهرطقات المسيحانيّة والثالوثيّة، ولمعتقدات آريوس وصابيليوس ونسطور وأوطيخا وأوريجينس ولتعاليم المجمع الخلقيدونيّ. وفي عهد الملك "زرعا يقوب"، أُلّفت عدّة كتب أهمها: "مَصْحَفَة برهان"، أي "كتاب النور" والمقصود به هو المسيح، و"مصحفة ميلاد MASHAFA MILAD"، أي "كتاب ميلاد ربّنا". وقد أُلّفت هذه الكتب للردّ على عبادة الأصنام، وممارسة السحر والشعوذة، والهرطقات، لا سيّما منها هرطقات الإسطفانيّين والميخائيليّين[1]. أمّا في عصر الاجتياح الإسلاميّ لإثيوبيا ووصول المرسَلين الأوروبيّين، فالكتب التي ظهرت اهتمّت بالدفاع عن المسيحيّة في وجه الإسلام، وعن المونوفيزيّة في وجه إيمان الكنيسة الرومانيّة. ومن الكتب المهمّة في هذا الصّدد، كتاب "أنقستا أمين ANQASTA AMIN"، أي "باب الإيمان"، بقلم أحد رؤساء الأديار، وفيه ذكر لآيات قرآنيّة وبراهين عن صحّة المسيحيّة وشموليّتها. كما ظهر كتاب بعنوان "مازغَبا حيمنوت MAZGABA HÂYMÂNOT"، وهو قراءة تاريخيّة للمجامع المسكونيّة الأربعة الأولى، ويهدف إلى دحض ادّعاءات المرسَلين. أمّا تاريخ ظهوره، فيعود إلى أواسط القرن السادس عشر. وهناك أخيرًا كتاب "أمِسْت أعمِدا

١ ـ كان للميخائيليّين عدد من المؤلفات منها "همارا نَفْس HAMARA NAFS" أي "سفينة الروح"، و"مرس أمين MARS AMIN" أي "المرفأ الأمين". ويُستحسن أن نذكر في هذا السياق ـ والحاشية لأبو جودة ـ كتاب أحد المنشقّين عن هذه البدعة، واسم الكتاب "فكّاري ملكوت FEKKARÉ MALAKOT" أي "تفسير الألوهيّة". ولا يخلو هذا الكتاب، الذي يمتاز بأسلوبه الأدبيّ الأنيق، من الأفكار الغنوصيّة.

مسنطر AMEST A'EMEDA MESTIR"، أي "أعمدة السرّ الخمسة"، وهو كتاب التعليم الدينيّ في إثيوبيا، وكان قد نُقل عن لغة الجعز إلى الأمهريّة سنة ١٩٥٢[١].

أمّا الأعمال الكتابيّة في الحقل الروحيّ والأخلاقيّ عند الإثيوبيّين، فهي ترجمات لنصوص آبائيّة وسريانيّة، وتُعتبر أساسيّة في الحياة الروحيّة، ولا سيّما في تكوين الرهبان. أمّا النصوص الآبائيّة فعددها كبير ومصادرها متنوّعة. فهنالِكَ ترجمات لعظات القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفمّ، وعلى الأخصّ "شرحه للرسالة إلى العبرانيّين"، وترجمة لـ "شرح الأناجيل"، لـ"ديونيسيوس برصليبي". تجدر الإشارة إلى طابع هذه المؤلّفات العقائديّ إلى جانب فحواها الروحيّ؛ أمّا الأعمال السريانيّة الأصل، فقد نُقلت عن العربيّة إبّان عهد الملك "لِبنادنغل"، ويبلغ عددها ثلاثة. العمل الأوّل منها عنوانه "فيلكسيوس FILKESYUS" أي "فيلوكسين"، يُنسب إلى "فيلوكسين المنبجيّ" (ت٥٢٣)، وهو يتناول حياةَ آباء البريّة المتوحّدين، على شكل أسئلة وأجوبة. أمّا العمل الثاني فيُعرف باسم "الشيخ الروحانيّ"، وهو مجموعة مؤلّفات ترويضيّة لـ"يوحنّا سابا[٢]"، تتضمّن دروسًا في الأخلاق والحياة الروحيّة، وبعض رسائل يوحنّا سابا. وأمّا العمل الثالث، والأخير، فهو "رسالة في ترويض النفس" لـ"إسحق النينويّ[٣]" نُقلت إلى الأمهريّة سنة ١٩٢٣[٤].

---

١ ـ أبو جودة، مرجع سابق، ص٣٥٣.

٢ ـ يوحنّا سابا: عاش في القرن الثامن، ناسك عُرف بالشيخ الروحانيّ، له مؤلّفات في الحياة النسكيّة أخذها النساطرة ثمّ الأقباط عن ترجمة عربيّة.

٣ ـ إسحق النينويّ: عاش في القرن السابع، راهب نسطوريّ، وُلد في اليمن وترهّب في دير رابان شابور في الأهواز، له مؤلّفات سريانيّة دينيّة وفلسفيّة.

٤ ـ أبو جودة، مرجع سابق، ص٣٥٤.

تؤمن الكنيسة الإثيوبيّة بأنّ طبيعة المسيح الإلهيّة قد توحّدت مع طبيعته البشريّة لحظة حَبَل مريم العذراء به. ولكن، في الوقت نفسه، لا تذوب طبيعة في أخرى. فلاهوت المسيح وناسوته لم يلحقهما أيّ تغيير. فالطبيعتان تتّحدان الواحدة بالأخرى، كما يتّحد الروح والجسد في الإنسان ليؤلّفا طبيعة واحدة. إلاّ أنّه ما من ثنائيّة في هذه الوحدة، إذ لا يمكن الفصل بين الطبيعتَين؛ من جهة أخرى، فاللّه الآب ولد الكلمة قبل أن يكون العالم. وبعدها خلق العالم، ولد الكلمة من العذراء مريم، ولذا من المحقّ أن تُدعى مريم "أمّ اللّه"، وأن يكون الكلمة قد وُلد مرتَين.

مجادَلات لاهوتيَّة

نشأت في الكنيسة الإثيوبيّة مجادلات لاهوتيّة ونظريّات ومذاهب، اصطلح الكتّاب المسيحيّون الغربيّون والشرقيّون على وصفها بالبدع SECTES. أبرزها كما أوردها باحث كنسيّ معاصر[1]:

الإفسطائيّون LES EUSTATHIENS: أسّس هذه البدعة "الأبّا إفستاتيوس ABBÂ EWOSTÂTEWOS" (حوالى ١٢٧٣ ـ ١٣٥٢)، الذي نادى بضرورة احترام "السبتَيْن"، أي سبت العهد القديم أو سبت اليهود، والأحد المسيحيّ. فخرج بذلك على تعاليم كنيسة الإسكندريّة التي ألحّت على إلغاء السبت اليهوديّ واحترام يوم الأحد. فكان أن ألّف الإفسطائيّون بدعة انتشرت على وجه الخصوص في بعض الأديرة بجنوب البلاد، وبقيت مستقلّة عن الكنيسة المحلّية، إلى أن توصّل الملك زرعا يعقوب إلى تسوية أجازت للإفسطائيّين احترام السبتَين من دون خروجهم على الكنيسة.

---

١ ـ أبو جودة، مرجع سابق، ص٣٥٤ ـ ٣٥٥.

الميخائيليّون LES MIKAÉLITES: ظهرت هذه البدعة في مجرى القرن الرابع عشر. وقد استمدّ أتباعها معتقداتهم من كتب متأثّرة بالفكر الغنوصيّ. ومن هذه الكتب: "حياة القدّيسة حنّة" و "الاسكندر (الكبير) بطل الطهارة"، و "كتاب الأسرار". ويقوم مذهبهم على الاعتقاد بأنّه لا يمكن لإنسان أن يتقدّم في معرفة اللّه إلاّ بالتدريج، وبفضل معلّمينِ أُسبغ الروحُ القدس عليهم. وقد استندوا في حججهم إلى بعض المراجع الكتابيّة مثل يوحنّا ١: ١٨: "إنّ اللّه ما رآه أحدٌ قطّ"، ويوحنّا ٤: ١٢: "إنّ اللّه ما عاينه أحد قطّ"، وطيموتاوس ٦: ١٦، وسواها. ولقد اضطهد الملك "زرعا يعقوب" هذه البدعة التي دامت، بالرغم من ذلك، حتّى القرن السادس عشر.

الإسطفانيّون LES STÉPHANITES: لُقّب أتباع هذه البدعة بالإسطفانيّين نسبةً إلى مؤسّسهم الراهب إسطفانوس (توفّي حوالى ١٤٥٠). مارس رهبان هذه البدعة ترويضًا للنفس، وأظهروا تعصّبًا شديدًا لمعتقدهم الذي نصّ على احترام السبتَين، ورفْض إكرام العذراء مريم والصليب. حاربهم الملك "زرعا يعقوب" في القرن الخامس عشر، وبنتيجة ذلك أخذت البدعة تضعف تدريجيًّا حتّى انتهت في القرن التالي.

جدل حول "المسحة": لم تنتهِ المجادلات اللاهوتيّة فصولاً مع انتهاء بدعة الإسطفانيّين، فقد شهد القرن السابع عشر قيام جدل جديد حول "المسحة". ذلك أنّ أوساطًا رهبانيّة إفسطاثيّة أخذت تروّج نظريّة لاهوتيّة تقول بأنّ الاتّحاد التامّ بين طبيعتَي المسيح إنّما حصل بعد مَسحة عماد يسوع في الأردنّ، فالمسيح منذ تلك اللحظة فقط أصبح ابن اللّه. فكان من أمر هذه النظريّة أن انتقصت من لاهوت يسوع جاعلة منه، على مثال بدعة "التبنيّة" ADOPTIANISME إنسانًا عاديًّا نال بنوّة اللّه. فنتج عن ذلك انعقاد عدّة مجامع وطنيّة في محاولة لإيجاد حلّ بين أنصار هذه البدعة وباقي

الكنيسة الإثيوبيّة التي أصرّت على أزليّة الإبن. إلاّ أنّ هذه المساعي باءت بالفشل، فقد استمرّت المجادلة، وساهم في إعمارها مواقف الملوك المتعاقبين بين مؤيّد لبدعة المسحة ومعارض لها. فكان أن اتّخذ الجدل بُعدًا لاهوتيًا جديدًا، مع تبنّي بعضهم نظريّة ولادات المسيح الثلاث "سوست ليدَت SOST LEDAT".

جدل حول ولادات المسيح الثلاث: قال أصحاب نظريّة ولادات المسيح الثلاث بأنّ وحدة الطبيعة في المسيح هي خاصّة جدًّا، وما ذلك إلاّ عمل اللّه الآب. فوحدة الطبيعة في المسيح لم تتمّ إبّان مسحته، بل في ولادته، إذ تبنّاه اللّه. وهذا ما حدا أنصار هذه البدعة على الاعتراف بولادات ثلاث في حدث التجسّد: الكلمة المولود من الآب قبل كلّ الدهور، والمسيح المولود بسمة الروح القدس، وابن مريم، ابن اللّه الآب بالتبنّي. وقد دامت هذه البدعة فاعلة في الكنيسة الإثيوبيّة إلى حين وصول الملك يوحنّا الرابع (١٨٧٢ ـ ١٨٨٩) إلى العرش. إذ اضطهد أنصار هذه البدعة وأيّد عقيدة الكنيسة المحليّة[1].

وحول الحياة الطقسيّة والأسرار جاء[2] أنّ الكنيسة الإثيوبيّة تتمسّك ببعض التقاليد الشعبيّة التي يعود بعضها إلى تعاليم العهد القديم، وإن كانت الكنيسة الوطنيّة لا توصي

---

١ ـ باستثناء مسألة انبثاق الروح القدس (ذلك بأنّ الكنيسة الإثيوبيّة تتبع التعاليم البيزنطيّة في هذه النقطة)، وناسوت المسيح، تعترف الكنيسة الإثيوبيّة بباقي العقائد الإيمانيّة التي تسلّم بها الكنيسة الكاثوليكيّة، ولكن مع بعض التفاصيل الناتجة عن الكتب المنحولة والتقاليد الشعبيّة. فيسوع، على سبيل المثال، قد تعمّد يوم الثلاثاء في ١٩ كانون الثاني (يناير) من العام ٥٥٣١ بعد خلق العالم، وله من العمر ٣٠ سنة و ١٣ يومًا... أمّا عن مريم، فقد وُلدت سنة ٥٤٨٥ بعد خلق العالم ليواكيم وحنّة اللذين كرّسا ابنتهما للّه. وعندما كان لها من العمر ثلاث سنوات، صعد الملاك فانوئيل بها إلى السماء، وأعطاها لتأكل وتشرب، ثمّ عاد بها إلى أرضها حيث كان في استقبالها الشعب والكهنة. فقرّروا استبقاءها في الهيكل، فبقيت فيه وكانت الملائكة تخدمها. وعندما أصبح لها خمسة عشر عامًا، اختار لها اللّه يوسف، ابن داود، من عشيرة يهوذا، ليهتمّ بها.

٢ ـ أبو جودة، مرجع سابق، ص٣٥٦ ـ ٣٥٨.

بها صراحة. فالإثيوبيّون يختتون ذكورهم بعد انقضاء أسبوع على ولادتهم، ومنهم من يختتون إناثهم أيضًا. وختان الذكور، في نظرهم، هو علامة عهد اللّه مع إبراهيم، على ما ورد في سفر التكوين ٧: ١٠ و ٢١: ٤. أمّا من الناحية القانونيّة، فالكنيسة الإثيوبيّة تُعترف بالأسرار السبعة التي تمارسها الكنيستان الكاثوليكيّة والأرثذوكسيّة.

العماد والتثبيت: يُمنح سرّ العماد للذكَر بعد ٤٠ يومًا على ولادته، وللأنثى بعد ٨٠ يومًا. ويتمّ العماد عن طريق تغطيس الجسم ثلاث مرّات في الماء. كما يُمسح المعتَمد بالميرون، إشارةً إلى هبة الروح القدس. ومن عادة الإثيوبيّين أن يحتفلوا بالإفخارستيّا بعد منح سرّ العماد، ويشترك المعمَّدُ أثناءها في المناولة، أسوة بالكنائس الأرثذوكسيّة. أمّا سرّ التثبيت، فيمنحه الكاهن بعد العماد بزمن، وهو غالبًا ما يُلغى، كما في سائر الكنائس المونوفيزيّة.

الإفخارستيّا: يُقسم القدّاس الإثيوبيّ إلى قسمَين رئيسيَّين، قسم ما قبل النافور وفيه يشترك الموعوظون، وقسم النافور ويقتصر على المعمَّدين فقط. أمَّا القسم الأوّل، فهو يتألّف من تبخير المذبح وتحضيره، وتبريك الخبز والخمر وتقديمهما، إضافةً إلى صلوات الشكر والطلبات والتريصاجيون، وأربع قراءات تؤخذ من رسائل القدّيس بولس والرسائل الجامعة وأعمال الرسل والإنجيل. ويُختتم هذا القسم بتلاوة قانون الإيمان بعد صرف الموعوظين. أمّا القسم الثاني، أو النافور، فهو مركز الثقل في الليتورجيا وله اسمان: "فِري قدّاسي FERÊ QEDDÂSÊ"، أي ثمرة الليتورجيا، و"أَكوتِيت قُرْبان AKOTÊT QURBÂN"، أي ذبيحة الشكران. وهو يتضمّن عددًا كبيرًا من الصلوات، منها أدعية من أجل السلام، والمجد للّه وقبلة السلام، والقدّوس، والتكريس، وكسر الخبز، والصلاة الربيّة، والمناولة. وتسبق المناولة عادةً صلاةُ توبة طويلة، مع ترداد جملة "ارحمنا أيّها السيّد المسيح" واحد وأربعين مرّة؛ ويمتاز القدّاس

الإثيوبيّ بوفرة نوافيره، إذ يبلغ عددها سبعةِ عشر. إلاّ أنّ أكثرها استعمالاً هو نافور الرسل.

يُحتفل بالقدّاس أيام الآحاد والأعياد، ويومَي الأربعاء والجمعة في الرعايا الكبيرة والأديار. ويفترض عادةً وجود كاهنَين وثلاثة شمامسة. ويتناول المؤمنون الأسرار تحت شكلَي الخبز والخمر.

نوافير القدّاس الإثيوبيّ: تُعدّ الكنيسة الإثيوبيّة واحدة من الكنائس الغنيّة بالنوافير، إذ يبلغ عددها سبعة عشر نافورًا. ويُعيد التقليد هذه النوافير، مثلما هي الحال في سائر الكنائس الشرقيّة، إلى الرسل وآباء الكنيسة وبعض القدّيسين. أمّا النوافير فهي: نافور ربّنا يسوع المسيح الذي، بحسب التقليد، تعلّمه الرسل من يسوع نفسه بعد قيامته؛ ونافور القدّيسة مريم المنسوب إلى القدّيس "قرياقس CYRIAQUE" المصريّ؛ ونافور القدّيس يوحنّا الإنجيليّ؛ ونافور القدّيس يعقوب أخي الربّ؛ ونافور القدّيس مرقس الإنجيليّ؛ ونافور الآباء ٣١٨ "الذين اشتركوا في مجمع نيقيا في سنة ٣٢٥"؛ ونافور القدّيس أثناسيوس؛ ونافور القدّيس باسيليوس القيصريّ؛ ونافور القدّيس غريغوريُس النصيبيّني؛ ونافور القدّيس أبيفانيوس أسقف سلامين قبرص في القرن الرابع؛ ونافور القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم؛ ونافور القدّيس كيرلّس الإسكندريّ؛ ونافور القدّيس يعقوب السروجي أسقف بطنان بالقرب من الرّها، المتوفّي سنة ٥٢١؛ ونافور القدّيس ديوسقورس بطريرك الإسكندريّة ٤٤٤ ـ ٤٥١؛ ونافور القدّيس غريغوريُس المنوّر رسول أرمينيا. ويُضاف إلى هذه النوافير الخمسة عشر، نافور ثانٍ للسيّدة العذراء يُنسب إلى القدّيس مرقس الإنجيليّ؛ ونافور ثانٍ يُنسب إلى القدّيس كيرلّس الإسكندري.

سرّ التوبة: لا يبدو سرّ التوبة إلزاميًا للمؤمن في أوقات معيّنة، إلاّ أنّ السرّ يُمنح عادةً، مع اعتراف المؤمن بخطاياه، للمنازعين. والغفران في الواقع هو صلاة استرحام.

سرّ الزواج: تتمسك الكنيسة الإثيوبيّة بطابع الزواج غير القابل للفسخ. وهذا ما يحدو الكثيرين إلى عقد قرانهم . ج الكنيسة، عن طريق عقد اتفاقات تأخذ أشكالاً مختلفة أكثرها موقّت. ولذا يجد المثيرون أنفسهم في حالة حِرْم، فلا يتقدّمون من الأسرار إلاّ بعد منحهم الحلّ، وخضوعهم لقوانين الكنيسة. أمّا في ما يختصّ بالكهنة، فلا يجوز لهم الزواج غير مرّة واحدة. وفي حال وفاة الزوجة، على الكاهن أن يلتحق بأحد الأديار، إلاّ في حال عدم توفّر مَن يرعى شؤون الأولاد.

مسحة المرضى والدَرَجَة: إنّ الكنيسة الإثيوبيّة، وإن كانت تعترف بسرّ مسحة المرضى على ما ورد في رسالة يعقوب ٥: ١٤ ـ ١٦، فممارستها له نادرة جدًا؛ أمّا سرّ الدرجة، فيمنحه المتروبوليت للكاهن والشمّاس بحسب الطقس القبطيّ. وبما أنّ دور الشمّاس مهمّ في الإفخارستيّا والصلوات الليتورجيّة، فإنّ درجة الشماسيّة تُمنح لعدد كبير من الصبيان.

الكنيسَةالإثيوبيّةالكاثوليكيّة

ذكر باحثون كنسيّون محدثون[1] أنّ اليسوعيّين كانوا قد تمكّنوا من دخول إثيوبيا إبّان القرن السابع عشر، وأنّه في تلك الحقبة، قد اغتيل مرسَلان سنة ١٦٣٨. فكان أن انقطع عمل المرسَلين في أعقاب ذلك، إلى سنة ١٨٣٨، عندما أقدم الأب اللّعازري "سَبيتو SAPETO" على تأسيس منزل في "أدوا ADUWA"، ومن ثمّ، قام الأب "غوستينو دي جاكوبِس GIUSTINO DE JACOBIS" بعمل رسوليّ فعّال في أدوا و"تِغره TIGRÉ"، فوصل عدد الكاثوليك إلى خمسة آلاف. كما أنشأ الأب نفسه إكليريكيّة، كان الهدف منها تحضير شبّان من السكّان الأصليّين للكهنوت، ورُسم منهم، سنة ١٨٥٢، خمسة عشر كاهنًا كاثوليكيًا. وفي أثناء الاضطهاد الذي أثاره ملك الحبشة، ثيودورس، قُتل أوّل كاهن كاثوليكيّ إثيوبيّ، هو الأبّا "غِبري ميخائيل ABBA GHEBRÉ MICHAEL"، سنة ١٨٥٥. أمّا الكبّوشيّون، فقد باشروا رسالة في النيابة الرسوليّة بـ"غالا GALLA" سنة ١٨٤٦، وافتتحوا إكليريكيّة في "كافّا KAFFA". وفي سنة ١٨٨١، افتتح الأب "تورَان شاني TOURIN CHAGNE" مؤسّسة خيريّة في هرار. وأسّس الأب "ماري برنارد M. BERNARD"، سنة ١٩١٥، جمعيّة راهبات إثيوبيّات. وفي سنة ١٩٣٧، أُنشئت قصادة رسوليّة في العاصمة الإثيوبيّة، قوامها تسع إرساليّات، وثلاث نيابات رسوليّة في أدّيس أبابا وجمّة وهرار، وأربع مدبّريّات رسوليّة في "دسيّه DESSIE" و"غندار GONDÂR" و"نِغِلّيه NEGHELLI" و"تِيغره"، أُلحقت بها سنة ١٩٤٠

---

١ - أبو جودة، مرجع سابق، ص٣٤٩ - ٣٥١.

"إنْدِبِر ENDEBER" و"هوزانّة HOZANNA". أمّا في سنة ١٩٦١، فأصبحت الكنيسة الكاثوليكيّة مقسّمة إلى ثماني مقاطعات: مديريّتان رسوليّتان في "هوزانّة HOZANNA" و"نِغِلّيه NEGHELLI" على الطقس اللاتينيّ، وثلاث نيابات رسوليّة في أسمره وجمّة وهرار على الطقس اللاتينيّ أيضًا، وأبرشيّتان في أديكرات وأسمره على الطقس الإثيوبيّ، وأبرشيّة رئيس أساقفة في أديس أبابا. وقد بلغ عدد الكاثوليك في أديس أبابا، سنة ١٩٦٣، ٢٤ ألفًا من أصل سبعة ملايين نسمة ألّفوا حينذاك مجموع سكّان العاصمة. وكان الكاثوليك موزّعين على ١٣ رعيّة يخدمها ١٨ كاهنًا أبرشيًّا، إضافة إلى وجود ٣٣ كاهنًا ينتمون إلى جمعيّات مختلفة، وخمسة أديرة رهبان، شغلها ٤٥ راهبًا، وتسعة أديرة نسائيّة، ضمّت ٤٧ راهبة. أمّا "أديكرات"، التي كان عدد سكّانها سنة ١٩٦٣ ثلاثة ملايين نسمة، فقد بلغ عدد الكاثوليك فيها سبعة آلاف، موزّعين على ١٦ رعيّة يخدمها ١٦ كاهنًا أبرشيًّا. وتشير إحصاءات سنة ١٩٦٢، إلى أنّ عدد الكاثوليك في أسمره بلغ ٣٧ ألفًا، من أصل مجموع السكّان البالغ حينذاك مليون نسمة، وقد وصل عدد الرعايا فيها إلى ٨٤، يخدمها ١١١ كاهنًا أبرشيًّا و ٤٠ من كهنة الجمعيّات. إلى ذلك، فقد كرّس البابا بيوس الحادي عشر، في ١٢ شباط (فبراير) ١٩٣٠، الكليّة الإثيوبيّة في الفاتيكان، التي كان قد أسّسها البابا بندكتس الخامس عشر، كليّة حبريّة سنة ١٩١٩، وعهد بإدارتها إلى الآباء الكبّوشيّين.

الفنّ الإثيوبيّ المسيحيّ

للكنائس الإثيوبيّة القديمة العهد، لا سيّما التي شُيّدت في شمال البلاد، شكل مستطيل. ويرقى هذا الشكل الهندسيّ، الذي يشبه البازيليكات السريانيّة القديمة، إلى الفنّ المعماريّ الأكسوميّ. وكان المذبح في هذه الكنائس ظاهرًا للمؤمنين. وفي ما بعد، حُجب القَبَا[1]، المستطيل الشكل دومًا، عن نظر الجمهور بواسطة حائط، هو بمثابة الإيقونُسطاس[2] المعروف في الكنائس الشرقيّة. وبعد القرن الرابع عشر. أُقفل على المذبح نهائيًّا بما يشبه قدس الأقداس، وأصبح الولوج إليه مقتصرًا على الكهنة والشمامسة.

غير أنّ أكثريّة هذه الكنائس القديمة قد زالت مع الأسف، إمّا بسبب الحروب المتعاقبة، أو بسبب الإهمال. فلم يبقَ من الكنائس المستطيلة الأربع، التي تعود إلى القرون الوسطى، إلاّ كنيسة واحدة، هي كنيسة دير "دَبرا دامو DABRÂ DÂMO".

إلى جانب الكنائس المستطيلة، عرف فنّ عمارة الكنائس الإثيوبيّ الشكل المستدير، وهو الشكل الأكثر انتشارًا في الوقت الحاضر، ولا سيّما في وسط البلاد وجنوبها.

---

١ ـ القَبَا: في بعض الكنائس، طرف مستدير، في شكل محارة، موجّه عمومًا نحو الشرق، يقع وراء المذبح والخورس ـ عن معجم الإيمان المسيحيّ.

٢ ـ الإيقونُسطاس: حجاب مرتفع، توضع عليه الأيقونات، ويفصل بين صحن الكنيسة والقدس، وله ثلاثة أبواب ـ عن معجم الإيمان المسيحيّ.

تشبه هذه الكنائس الأكـواخ المستديرة المعروفة في الأريـاف الإثيوبيّة، حيث يتألّف سقف الكنائس من القش أو الصفيح المتموّج. ولعلّ هذا الشكل الهندسيّ قد اعتُمد بعد التدمير الهائل الذي لحق بالكنائس القديمة إبّان "حرب جران". أمّا الكنـائس الصخريّة، فتُعتبر من الآثارات المسيحيّة المهمّة في إثيوبيا، وحتّى في الشرق المسيحيّ. وهذه الكنائس هي ثلاثة أنواع: المغاور التي حُوّلت إلى كنائس، ولها واجهات ظاهرة على مثال آثار "البتراء"، والكنائس الأحاديّة الحجر "MONOLITHES"، والكنائس المبنيّة تحت الأرض، وهي حُفرت في الصخور أو الأجْراف، وأُخفيت ملامحها الخارجيّة. وقد عرف هذا الخط المعماريّ انتشارًا في إثيوبيا الوسطى والجنوبيّة، وبوجه خاصّ في عهد أسرة "زاغوي ZÂGWE" الحاكمة بين القرنَين الحادي عشر والثاني عشر. وتُعَدّ مجموعة الكنائس في "لاليبِلا LÂLIBELE" من منطقة "لاستَا LÂSTÂ" في إثيوبيا الوسطى، من أجمل الكنائس الصخريّة وأكثرها عددًا.

لجهة الرسوم الكنسيّة، لم تعرف الكنيسة الإثيوبيّة فنّ رسم الأيقونات إلاّ ابتداءً من القرن الخامس عشر، إذ أخذ بعضهم يرسمها على ألواح خشبيّة. أمّا قبل ذلك العهد، فكانت الرسوم الجداريّة المائيّة في الكنائس هي الفنّ الشائع. وقد مثّلت، في معظمها، مشاهد إنجيليّة أو حياة قدّيسين. كما عرفت الكنيسة الإثيوبيّة بعض المخطوطات المزوّقة. وقد تأثّرت الإيقونوغرافية الإثيوبيّة، على مرّ العصور، بالمنتجات الفنيّة البيزنطيّة والفارسيّة والأرمنيّة وحتى الهنديّة، وابتداءً من القرن الخامس عشر، على وجه خاصّ، بالمنتجات الأوروبيّة. وهذا ما أفقدها طابعها الإثيوبيّ الأفريقيّ الخاصّ. فضلاً عن ذلك، يُعبّر في الإيقونوغرافية الإثيوبيّة، كما هي الحال في إيقونوغرافية الشرق المسيحيّ، عن معتقدات الإيمان الأرثذوكسيّ. ولذا نجد أنّ المقاييس الطبيعيّة لا تراعى في الرسم، فالهدف الأساسيّ هو جعل المفاهيم اللاهوتيّة منظورة وحسب.

من ناحية أخرى، اكتسب الإثيوبيّون شهرة في صناعة السجّاد والجدرانيّات والمطرّزات المزخرفة بالرسوم الدينيّة، إلى جانب صناعة الأدوات الليتورجيّة من كؤوس وصلبان وسواها[1].

البنيَة التَّنظيميَّة للكنيسة الإثيوبيّة

ذكر باحثون كنسيّون معاصرون[2] أنّه كان للملوك دور بالغ الأهميّة في شؤون الكنيسة، ولا سيّما عند نشأتها في القرنَين الرابع والخامس. ذلك بأنّ نموذج الإمبراطوريّة البيزنطيّة، التي تدخّل أباطرتها في أمور كنسيّة ومسائل لاهوتيّة، كان غالبًا آنذاك. فكان يجوز للملوك الدخول إلى قدس الأقداس في الكنائس، أسوةً بالكهنة والشمامسة، والدعوة إلى عقد المجامع. وطالما اعتبر الإثيوبيّون ملوكهم روّادًا في الدعوة إلى اعتناق الإيمان المسيحيّ والدفاع عنه. وقد قام الكثير من الملوك، في الواقع، بدعم الكنيسة وتعزيزها.

واحتفظ البلاط الملكيّ الإثيوبيّ بكهنة لم تشملهم سلطة المتروبوليت، بل كان لهم رئيسهم الخاص. وقد أدّى هذا الوضع، في حقبة من عهد هيلاسيلاسي، إلى خلق توتّر بين البطريركيّة ذات النزعة المحافظة، ورئيس كهنة البلاط "حبتا ماريام ورقنه HABTA MÂRYÂM WARQNAH"، الذي أقدم على تأسيس مدرسة لاهوتيّة ومكتبة حديثة

---

١ ـ أبو جودة، مرجع سابق، ص٣٥٨ ـ ٣٦٠.

٢ ـ أبو جودة، مرجع سابق، ص٣٦٠ ـ ٣٦٢.

وجريدة، إضافةً إلى عدد من منظّمات للشبيبة. ولكن ما لبثت هذه المؤسّسات أن حُلّت، وأُلغي دور البلاط في الكنيسة بعد الثورة في آب (أغسطس) ١٩٧٤.

السلطة الكنسيّة: بعد الاتّفاق الذي عُقد بين بطريركيّة الإسكندريّة وكنيسة إثيوبيا سنة ١٩٤٩، رسم متروبوليت إثيوبيا القبطيّ "جرلُس GERLOS" أساقفة إثيوبيّين. وبعد وفاته سنة ١٩٥١، حلّ محلّه المتروبوليت "باسيليوس"، وهو إثيوبيّ ورئيس للرهبان والراهبات آنذاك. رسم هذا المتروبوليت خمسة عشر أسقفًا وزّعهم على أقاليم البلاد الأربعة عشر، وعلى أورشليم. وفي سنة ١٩٥٩، أصبح المتروبوليت باسيليوس أوّل بطريرك في الكنيسة الإثيوبيّة.

عدد الكهنة في إثيوبيا لافت للنظر، إذ وصل إلى ٦,٩٧٢ كاهنًا سنة ١٩٧٠. والكهنوت غالبًا ما يستمرّ في البيت الواحد، فيصبح الابن كاهنًا على غرار أبيه. ويُحاط الكهنة باحترام كبير، ويتمتّعون بامتيازات كثيرة، ويقومون بدور اجتماعيّ مهمّ. إلاّ أنهم، بوجه عامّ، يفتقرون إلى تكوين لاهوتيّ وفكريّ متين. وقد وعت السلطات الإثيوبيّة الحاجة إلى ضرورة توفير تكوين لاهوتيّ معاصر للكهنة، فطلبت، في سنة ١٩٤٤، من بطريركيّة الإسكندريّة إنشاء مدرسة لاهوتيّة حديثة في إثيوبيا. إلاّ أنّ الطلب لم يلبّ. فوجب الانتظار حتّى سنة ١٩٦٠ ليتمّ تأسيس "معهد الثالوث الأقدس" في العاصمة أديس أبابا، ذلك المعهد الذي أغلق زعماء الثورة أبوابه سنة ١٩٧٤. فحاولت السلطات الكنسيّة أن تستعيض عنه عن طريق إنشاء عدد من الإكليريكيّات والمدارس الحديثة، غير أنّ مستواها بقي دون مستوى المعهد السالف الذكر.

"الدَّبْترا DABTARÂ" : إلى جانب الكهنوت والشمّاسيّة، هناك في الكنيسة الإثيوبيّة ما يُسمّى بـ"الدَّبْترا"، وهي وظيفة ذات شقّين: الترتيل والتعليم. ولهذا السّبب، يستفيد

المرشّحون لهذه الوظيفة من تكوين أشمل من تكوين الكهنة وأكثر إتقانًا منه. فينخرطون في مدارس كنسيّة متخصّصة ليُدرسوا الموسيقى الدينيّة والتراتيل والتفسير التقليديّ للكتاب المقدّس، إضافة إلى آباء الكنيسة واللاهوت الأخلاقيّ وقواعد اللغة. وتدوم مدّة تأهيلهم غالبًا عشر سنوات. وفضلاً عن دورهم المهمّ في العبادة، فهم يتطوّعون للتدريس في المناطق التي تفتقر إلى مدارس. ويصل عدد الدّبترا في بعض الرعايا إلى المئات، وفي كنائس الأرياف إلى ستّة على الأقل.

التوحّد: مع بداية المسيحيّة في إثيوبيا، إبّان القرن الرابع، شهدت الحياة التوحّديّة نموًّا سريعًا وانتشارًا شمل مختلف أنحاء البلاد. وقد كان للتوحّديّين دور أساسيّ في تبشير المناطق الوثنيّة، ولا سيّما في وسط إثيوبيا وجنوبها. فاحتلّت الحياة التوحّديّة مقامًا اجتماعيًّا ودينيًّا مميّزًا، أخذ يترسّخ مع الوقت. وفي نهاية القرن الثالث عشر، قام "الأبّا إياسوس مُؤى IYÂSUS MO'Â"، رئيس دير القدّيس إسطفانوس في "حَيْق HAYQ"، بدور مهمّ لصالح الملك "يِكونو أمْلاك YEKUNO AMLÂK". فاعترفَ الملك، بالمقابل، بسيادة رئيس ذلك الدير على الإكليروس العلمانيّ. ثمّ انتقلت هذه السيادة، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، إلى رئيس دير دَبْرَه "ليبانوس DABRA LÏBÂNOS" في "شُوا CHOA". فأصبحت الحياة التوحّديّة، منذ ذاك العصر، خاضعة لنظام تسلسليّ، على رأسه رئيس ينتخبه مجمع دير دبره لبانوس، ويعيّنه الملك. فعزّز هذا الواقع مكانة الرهبان الإجتماعيّة والوطنيّة، لا سيّما وأنّ المتروبوليت كان، حتّى سنة ١٩٥١، لا يزال مصريًّا.

وإلى جانب الأديار التوحّديّة والرجاليّة، تأسّست جماعات نسائيّة تخضع قانونيًّا وروحيًّا للأديار الرجاليّة. كما عرفت الكنيسة الإثيوبيّة، على مرّ العصور، نسوة اعتزلن العالم، وأمضين حياتهنّ بالصوم والصلاة والتأمّل في الكتاب المقدّس.

يمضي الرهبان والراهبات أوقاتهم في الأديار في الصلاة وفي أعمال تقشّف قاسية، إضافةً إلى انصرافهم إلى الزراعة والبناء وأعمال الصيانة الداخليّة. ومنهم مَن ينصرف إلى الدراسة ونقل المخطوطات. ولذا يُعتبر الرهبان الإثيوبيّون حماة التراث الأدبيّ والفنيّ. وتتميّز الأديار عامّة بكرم الضيافة. ويصل عدد الأديار الرجاليّة حاليًا إلى حوالى ٨٠٠ دير، يمكن أن يُحصى في مقابلها عدد مماثل من الأديرة النسائيّة. وتتركّز أكثريّة هذه الأديار في مقاطعات "غُجّم GOJJAM" و"تِغْرِي TEGRE" و"غُنْدَر GONDAR". تَجدر الإشارة أخيرًا إلى أنّ مهمّة رئيس الحياة التوحّديّة، أو الـ"إيشَغي ECAGE"، قد أُسندت، ابتداءً من سنة ١٩٥١، إلى رئيس الكنيسة الإثيوبيّة[1].

***

لخّص باحثون كنسيّون معاصرون[2] التعريف بالكنيسة الإثيوبيّة أو الحبشيّة على الوجه التالي:

كانت كنيسة إثيوبيا مرتبطة ببطريركيّة الإسكندريّة القبطيّة، ولم يكن لإثيوبيا حتّى ١٩٢٩ إلاّ أسقف واحد، وهو أسقف مصريّ يختاره ويرسمه البطريرك القبطيّ الأرثذوكسيّ. ولم يكن الأثيوبيّون راضين عن هذا الوضع. وتجاه طلباتهم الملحّة، رسم لهم البطريرك القبطيّ الأرثذوكسيّ عام ١٩٢٩ أربعة أساقفة إثيوبيّين يرئسهم الأسقف

---

١ ـ إعتمدنا في موضوع الكنيسة الحبشيّة بشكل أساسيّ على دراسة لأبو جودة الأب صلاح اليسوعيّ، في كتاب: تاريخ الكنيسة، دار المشرق، ط٢ (بيروت،١٩٩٧) ص٣٤٣ ـ ٣٦٢. وذكر أبو جودة في دراسته المراجع التالية: BÜHLMANN WALBERT, VISAGE DE L'ÉGLISE D'AFRIQUE, DESCLÉE (PARIS,1967); DICTIONNAIRE D'HISTOIRE ET DE GÉOGRAPHIE ECCLÉSIASTIQUE, T.XV, (PARIS,1963), ARTICLE: ÉTHIOPIE, COL. 1176 -1181; NEW CATHOLIC ENCYCLOPEDIA, VOL.V, (WASHINGTON,1967); ARTICLE: ÉTHIOPIE, P. 583-589; HABLE SELLASSIE -SERGEW, ANCIENT AND MEDIEVAL ÉTHIOPIAN HISTORY TO 1270, (ADDIS ABABA,1972); STOFFREGEN PEDERSEN KRISTEN, LES ÉTHIOPIENS, COLL. FILS D'ABRAHAM, EDITIONS BREPOLS (BELGIQUE,1990).

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٣٥٥.

المصريّ. وبقيت الأمور على هذه الحال حتّى ١٩٥٠، ما عدا فترة الاحتلال الإيطـاليّ ١٩٣٦ ـ ١٩٤١. وفي مطلع سنة ١٩٥١ انتُخب الأنبا باسيليوس، وهو إثيوبـيّ، رئيسًا أعلى للكنيسة الإثيوبيّة، ومُنح عام ١٩٥٩ لقب بطريرك جـاثليق، بموجب اتّفـاق عقده مع البطريرك القبطيّ كيرلّس السادس، وهكذا أصبحت الكنيسة الإثيوبيّة شبه مستقلّة عن الكنيسة القبطيّة. وفي إثيوبيا اليوم ٨ ملايين من الأرثذوكس، يشتقّ طقسهم من الطقس القبطيّ، ولكن لهم لغتهم القوميّة وعاداتهم الخاصّة.

NOBILIS

بيروت